قسطنطين جيورجيو

شحّاذو المعجزات

مكتبة بغداد

مكتبة
الفكر الجديد
08-04-2017

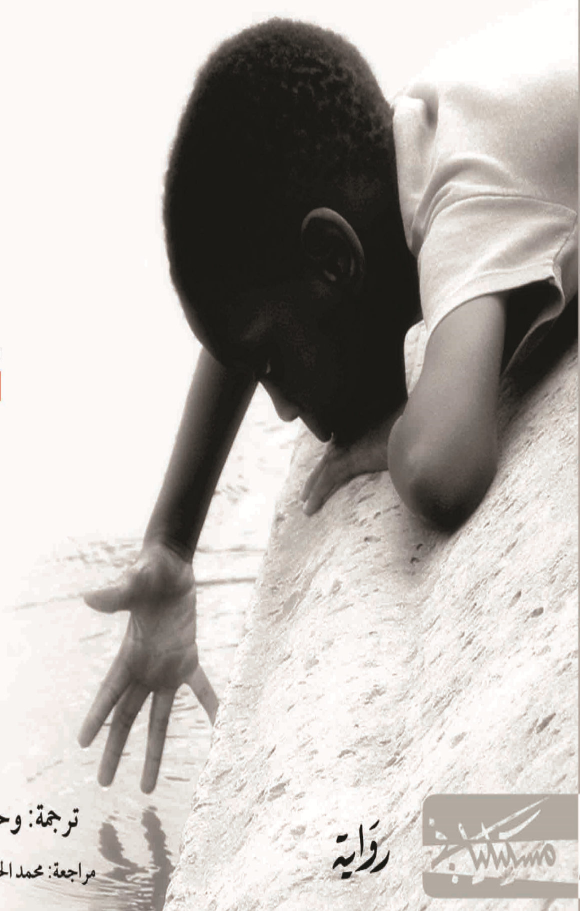

رواية

ترجمة: وحيدة بن حمادو

مراجعة: محمد الخالدي وسحر ستّالة

قسطنطين جيورجيو • شحّاذو المعجزات

رواية

عنوان الكتاب الأصليّ
Les Mendiants de Miracles
Constantin Virgil Gheorghiu

قسطنطين جيورجيو

شحّاذو المعجزات

رواية

ترجمة: وحيدة بن حَمَادُو

مراجعة: محمّد الخالدي وسحر ستّالة

مسكيلياني للنشر

الكاتب: قسطنطين جيورجيو
عنوان الكتاب: شحّاذو المعجزات
ترجمة: وحيدة بن حمادو
مراجعة: محمّد الخالدي وسحر ستّالة
تحرير: مهدي الغانمي وبلال المسعودي
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 23305015(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 5-93-833-9938-978

© Thierry Gillyboeuf, 1958.

الطبعة الأولى: دار مسكيلياني، تونس، 2017.

جميع الحقوق محفوظة لدار مسكيلياني للنشر©

توزيع

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

ADAB BOOK

الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

(1)
الأبيض والأسود

في منتصف شهر ديسمبر، وقد تجاوزت السّاعة منتصف الليل، لمْ يكنْ يشغَلُ رصيفَ مقهى فندق أفريكا بالاست سوى زبونين اثنين فقط. هذان الزّبونان على رصيف المقهى، هُما سائحان يجلسان إلى الطّاولة نفسها. أحدهما أسود البشرة والآخر أبيض. يقيم الرّجل الأسود بالفندق، وقد قدم إلى عاصمة تروبيك على متن باخرة، في نهاية الأسبوع. أمّا السّائح الأبيض فقد حلّ بالمدينة في الفترة نفسها تقريبًا. وهو غير مقيم بنزل أفريكا بالاست، ولا أحد يعرف من أين أتى.

في انتظار ساعة إغلاق المقهى، أخذ النُّدل في مراقبة الحريفيْن. فَهُمْ يعرفون أنّ الزّبون الأسود سيمضي هذه اللّيلة «إلى داخل البلاد». هنا في عاصمة تروبيك، لا يَخْفَى على أحد خبر ذهاب أحد السوّاح إلى هناك. وتصبح هذه الرّحلة الّتي لا يحتاج شخص مقيم بأوروبا إلّا إلى تذكرة قطار للقيام بها، تُصبح في أفريقيا رحلة بأتمّ معنى الكلمة. بحيث لو أنّ سائحا مقيما بأفريكا بالاست يذهب في رحلة إلى الدّاخل، فإنّ الجميع يكون على علم بذلك.

كانت شاحنة الرّجل الأسود محمَّلة بعشرات الآلات، وأجهزة التّصوير وآلات التّسجيل وكاميرات، جلبها من أمريكا.

ـ «لقد جاء إلى أفريقيا كي يصوّر الحيوانات البريّة»، قال أحد النُدل.

كان النُدل يحملقون في هذين الحريفين الأخيرين الجالسين على رصيف المقهى: الرّجل الأبيض والرّجل الأسود الأمريكي، وهم متعجّبون من أن يكون شخصان متمايزان إلى هذا الحدّ معًا. ربّما تجمعهما صداقة منذ الطّفولة، فهما لا يفترقان إلّا في ساعة متأخّرة من اللّيل. فيعود الأسود حينئذ إلى الفندق كي يخلد إلى النّوم بينما يغادر الأبيض بمفرده. إذْ لا أحد يعلم أين يُقيم.

بعد بضع ساعات من وصوله إلى الفندق، انتابت الرّجلَ الأسود نوبة من الكُباد. كانت نوبة مرعبة، أيقظ على إثرها جميع المُقيمين في الفندق بصراخه. وبسبب هذه النوبة أصبح السّائح الأسود معروفا جدّا، الآن، لدى زبائن فندق أفريكا بالاست وموظّفيه. إنّه يُدعى ماكس أومبيلينت، وهو يجلس إلى طاولة على رصيف المقهى عاقدا ساقيه، متأمّلا الفراغ. ويشرب، من حين إلى آخر، جرعة من قنّينة شراب الرّوم الّتي يضعها في جراب جلدي رائع، يُعلِّقه في رقبته كما تُعلّق آلات التّصوير أو المناظير.

بينما يدعى الرّجل الأبيض ستانيسلاس كريتزا. ويجلس هو الآخر إلى طاولة وُضع فوقها كأس وزجاجة ماء معدنيّ، منهمكًا في قراءة كتاب، على عكس الرّجل الأسود الّذي لا يقرأ مطلقا. إنّ ماكس أومبيلينت رجل ضخم الجثّة، عملاق أسود، لا يرتدي إلّا الملابس الحريريّة وبدلات مفصَّلة من القماش الرّفيع يغيّرها كلّ يوم. ومع ذلك، فهو غير مُبالٍ بهيئته.

أمّا ستانيسلاس كريتزا فهو رجل قصير القامة، يرتدي على الدّوام، شأنه شأن صغار الموظّفين في ترويبيك، نفس البدلة المصنوعة من الكتّان الرّمادي، وينتعل حذاء من القماش، إضافة إلى أنّه يضع قبّعة من القشّ وقفّازين لا ينزعهما أبدا. حتّى في هذه اللّحظة الّتي يجلس فيها إلى الطّاولة، فإنّه يمسك بكتابه وهو يرتدي قفّازين من القطن الرّماديّ. وهُمَا قفّازان من النّوع الرّخيص، مزرّران على الدّوام. في حين أن الرّجل الأسود لا يرتدي قفّازات قطّ.

ماكس أومبيلينت لا يتحدّث إلّا الأمريكية، بينما يجيب ستانيسلاس كريتزا بدقّة بنفس اللّغة الّتي يُسأل بها. ويشاع عنه أنّه يتحدّث كلّ اللّغات المهمّة ودزّينة من اللّهجات على الأقلّ.

- «ألَمْ تكنْ مُناوبًا في المساء الّذي وصل فيه الرّجل الأسود؟» قال النّادل الأوّل متوجّها بالسّؤال إلى صديقه.

- «لن أنسى أبدا ما رأيته هناك حين اصطحبتُ الطّبيب إلى غرفته. كان الرّجل الأسود عاريا إلاَّ من تبّان صغير أبيض اللّون، فيما جسده المتصبّب عرقًا ممدّدٌ على الشّراشف البيضاء. وقرب السّرير، كان يقف ستانيسلاس كريتزا، وعيناه ممتلئتان بالدّموع حزنًا على الرّجل الأسود المريض. ومع ذلك، فقد تعامل هذا الأخير معه بشكل فظّ، فرمى بوسادته وبمنديله المبلّل وبكلّ ما وقعت عليه يده على رأسه. إلّا أنّ الأبيض لم يحرّك ساكنا طوال السّهرة. عندها فقط أدركت معنى الصّداقة الحقيقيّة. لقد شعرنا جميعا بالشّفقة على الرّجل الأسود». تابع النّادل الأوّل، وسكت برهةً ثمّ أضاف:

ـ «زدْ على ذلك، فإنّ تناول لتر من الرّوم يوميًا يؤدّي حتما إلى نوبات قاتلة من الكُباد. والرّجل الأسود يَعُبُّ أكثر من لتر. صبّي الحانة هو من أكّد لي ذلك: لتر من الرّوم الأبيض كلّ يوم».

لن ينسى نادل المقهى، إضافة إلى جميع عملة أفريكا بالاست، ماكس أومبيلينت أبدًا لسبب واحد فقط: وهو آلام كبده المبرِّحة.

توقّفت شاحنة محمَّلة بالأمتعة أمام الفندق. شاحنة مكشوفة، يجلس داخلها زنجيَّان على حقائب من الصَّفيح. تعجَّب النُّدل من ذهاب ماكس أومبيلينت إلى داخل البلاد مصحوبا بخادمين أسودين فقط. فهذا الأمر غير مألوف. كان يجلس أمام المقود سائق أبيض البشرة. وقف كريتزا واتجه نحو الشّاحنة يتبعه الرّجل الأسود الّذي ما إن سار بضع خطوات حتّى ترنّح. إنّه ثمل، لكنّه لا يترنَّح كأيّ رجل سكران، بل كسِنَّور رشيق، سرعان ما ينتصب واقفًا من جديد كلّما فقد توازنه وسقط، تمامًا مثل القطط الّتي لا تسقط إلّا على أرجلها.

توقف ستانيسلاس كريتزا أمام الدَّرجات المرمريَّة وأمسك بذراع الرّجل الأسود كي يساعده على الصّعود إلى الشّاحنة، ثمّ أجلسه قرب السّائق الأبيض.

– «رحلة موفّقة سيّد أومبيلينت»، ردَّد النّادلان بصوت واحد.

لم يجبهما ماكس أومبيلينت ولم ينظر إليهما حتّى. تراجع السّائق إلى الوراء ليتَّسع المكان للرّجل الأسود قدر الإمكان. وسرعان ما أشاح ماكس أومبيلينت بنظره عن السّائق الأبيض، حتّى أنه لم ينتبه لوجوده

إلى جانبه. ربَّت ستانيسلاس كريتزا على كتف الرّجل الأسود بيده المدسوسة في قفّاز رماديّ من القطن، لكنّه لم يلق بالًا لحركة كريتزا الوديّة. وبحث بحركة متكاسلة عن الجراب الّذي يتدلَّى من رقبته. ثمّ نزع غطاء القنّينة، وطفق يشرب. في تلك اللّحظة، انطلقت الشّاحنة.

- «إنّه لا يبالي إلّا بشيء واحد فقط»، قال النّادل الأوّل. «لون الرّوم الّذي يشربه. إذ يشترط أن يكون من النّوع الأبيض».

* * *

رحل ماكس أومبيلينت إلى منطقة لا يغامر السّوّاح بالذّهاب إليها أبدا. إذْ عادةً ما يرتادون جميعهم الأماكن ذاتها، أمّا هو فقد اتّجه نحو إقليم آكلي لحوم البشر. وهي منطقة عسكريّة تقع في حدود الإدارة الاستعماريّة لتروبيك، هذا الإقليم الّذي تساوي مساحته مساحة مقاطعة سويسريّة، ويخضع لسيطرة الملازم بلانك. إنّها منطقة متوحَّشة يسكنها سودٌ عُراة.

منذ أسبوعين، قدم أربعة مبشِّرين من متساكني الرّاين إلى المنطقة، وهم أوّل المبشّرين الّذين يزورون آكلي لحوم البشر هؤلاء.

ينتمي مبشِّرو الرّاين إلى طائفة «حاملي الإنجيل» وهم: مارك، بيانكا، لوقا وماتيي. إنّ بيانكا هي أخت أحد الفتية، وهو لوقا الّذي يناهز واحدا وعشرين سنة في حين يبلغ البقيّة العشرين من العمر. كان قدوم المبشّرين الشبّان إلى تروبيك موضع استنكار ورفض في جميع الأوساط. ذلك أنّ المبشّرين الإنجيليّين يُنظر إليهم على أنّهم مغامرون ومتهوّرون.

ماكس أومبيلينت يعرف أين يُوجَد تحديدا مبشّرو الرّاين. إنّها قرية يسكنها السّود من آكلي لحوم البشر تُسمَّى إيسيوبوليا. وتعني هذه الكلمة في لغتهم: «جوزة فارغة».

سافر الرّجل الأسود إلى إيسيوبوليا، ولم يكن الهدف من سفره إلى هناك هو تصوير الحيوانات المفترسة كما يُشاع في عاصمة تروبيك وفي أفريكا بالاست. فرغم أنّه لا يعرف المبشّرين الأربعة، ولم يرهم في السّابق أبدا، حتّى في الصّور، فإنّه سيذهب، مع ذلك، إلى إيسيوبوليا كي يقتلهم: كي يقتل، قبل عيد الميلاد، لوقا ومارك وماتيي وبيانكا، وفقا لخطّة وضعها ستانيسلاس كريتزا.

ـ «إنّها جريمة رباعيّة»، خمَّن ماكس أومبيلينت. «إنّه عمل قذر، لا يُوكل إلّا إلى رجل أسود. فالأبيض لن يقبل القيام بعمل كهذا».

ولكن قُضي الأمر. فلم يعد باستطاعته التّراجع. بحث الرّجل الأسود عن قنّينة الرّوم الأبيض المتدلِّية على صدره في مزودها الجلديّ الرّائع، واحتسى بعض الشّراب.

لم يخطئ نُدل أفريكا بالاست في تقديرهم. فماكس أومبيلينت لا يُتعتعه إلّا الرّوم الأبيض. ولكنّه لم يعتد على هذا التّقليد إلّا حين تعرَّف على ستانيسلاس كريتزا. فقد كان يحتسي أيّ نوع من الخمور قبل ذلك. ومنذ أن أصبح صديقا للرّجل الأبيض الّذي قرّر قتل كتبة الإنجيل، لم يعد يُسكر الرّجل الأسود إلّا الرّوم الأبيض القويّ، تمامًا كمنطق البيض.

* * *

ماكس أومبيلينت لا يعرف السّائق الأبيض الّذي يقود الشّاحنة ولم يره قطّ.

- «تعذَّر عليّ العثور على سائق أسود»، قال كريتزا. «فاضطررت إلى استئجار رجل أبيض. فهل يزعجك أن يكون السّائق أبيض؟».

- «كلّا»، أجاب ماكس أومبيلينت.

كان هذا كلّ ما في الأمر. ولم يُطرَح موضوع لون بشرة السّائق مرّة أخرى. ترك الرّجل الأسود الحريّة التّامّة للرّجل الأبيض كي يخطّط لتفاصيل قتل المبشّرين الإنجيليّين مثلما يشاء. كما كان موافقًا، أيضًا على كلّ قرارات ستانيسلاس كريتزا. ولكن في هذه اللّحظة شَعُرَ -ولأوّل مرّة - أنّه في حاجة إلى الاعتراض على أمر ما. أمر ما يزعجه. فسائق السيّارة أبيض البشرة، وهذا لا يروق لماكس أومبيلينت. ولكن فات أوان تغيير السّائق، فهم في طريقهم الآن إلى إيسيوبوليا. كانت الشّاحنة تشقّ حلكة اللّيل بأقصى سرعة في اتّجاه موطن آكلي لحوم البشر.

استدار ماكس أومبيلينت ونظر إلى الأمتعة. الشّاحنة المكشوفة محمَّلة بحقائب من الصّفيح، مطليَّة باللّون الأخضر. وينام فوقها، في آخر العربة، الخادمان الأسودان، وهما منكمشان. صُنعت الشّاحنة خصّيصًا للمناطق المداريَّة. ورغم ارتكاز عجلاتها الاستثنائيّ فإنّ الهزّات كانت عنيفة. لكنّ الخادميْن الأسوديْن لا يشعران بذلك لأنّهما غارقان في النّوم. وهذان الخادمان ليسا سوى صبيّيْن أسوديْن

صغيريْ السنّ، ينتمي كلاهما إلى القبيلة الّتي يُوجد فيها المبشّرون المهدّدون بالقتل. لقد اختيرا بشكل جيّد لأنّ ستانيسلاس كريتزا هو من انتخبهما بنفسه للمشاركة في المهمّة. وهو يتقن هذا الأمر دائما، ويمكن الوثوق في اختياره خاصّة عندما يتعلّق الأمر باختيار الرّجال.

لا أحد يعرف شيئا عن الجريمة، لا السّائق الأبيض ولا الخادمان الأسودان. فَهُمْ يعتقدون، شأنهم شأن مستخدمي أفريكا بالاست، أنّ الرّجل الأسود سيصوّر حيوانات بريّة. وهكذا سارت الأمور منذ اللّحظة الّتي أعلن فيها ستانيسلاس ذلك.

كان يرتدي كلّ واحد من المراهقيْن الأسوديْن اللّذيْن ينامان في آخر الشّاحنة، بنطالا قصيرا وسترة صفراء داكنة. وهي ثياب جديدة اقتناها ستانيسلاس كريتزا لهما.

ماكس أومبيلينت يعرف أنّ أحد الخادمين الأسودين يُدعى كسو-غوا- كزوب بينما يُسمّى الآخر ناكوسانسوا. وكي يعرف من منهما يُدعى كسو- غوا- كزوب، كان ينادي:

- «كزوب».

فيرفع أحد الصّبيّين رأسه.

عندها يصرخ فيه ماكس:

ـ «نَمْ أيّها الأحمق».

فيضع كزوب رأسه على حقيبة الصّفيح الخضراء من جديد، ويعود إلى النّوم.

يحفظ ماكس أومبيلينت مائة وخمسين كلمة، تقريبا، من لغة

آكلي لحوم البشر. ويضع في جيب بنطاله معجمًا رقنه كريتزا على الآلة الرّاقنة. هذه الكلمات المائة والخمسون تؤلّف كلّ مفردات لغة آكلي لحوم البشر. وهؤلاء هم أفقر النّاس على وجه الأرض، فهم لا يملكون شيئا، وليسوا أشدّ ثراء من الثّعالب والذّئاب والتّماسيح. كلّ ثرواتهم الأرضيّة تنحصر في فراش مرتجل يهجرونه في أيّ لحظة دون أدنى شعور بالنّدم. ويقتصد آكلو لحوم البشر، مثل جميع الفقراء، في استعمال كلّ شيء. فحتّى معجمهم مُخْتَصَرٌ، أيضًا، كقوتهم اليوميّ. هم يكوّنون جملا اسميّة دون اللّجوء إلى الأفعال. فيرصفون الأسماء، الواحد تلو الآخر، دون أن يصلوها بأفعال، تمامًا كما يبني الإنسان البدائيّ جدران منزله دون ملاط، مكتفيًا فقط بترصيف الصّخور بعضِها فوق بعض.

مدَّد ماكس أومبيلينت ساقيه اللّتين تبدوان طويلتين جدّا بالنسبة إلى هذه الشّاحنة. فأدرك السّائق أنّ الرّجل الأسود لم يكن مرتاحا في جلسته. فتوجَّه إليه بالسّؤال:

– «هل ترغب في أن أخفض مسند المقعد حتّى يتسنّى لك النّوم؟».

وكإجابة على أي سؤال، يتحسَّس ماكس مثل أعمى قنّينة الرّوم الأبيض في الجراب الجلديّ المتدلّي على صدره.

– «ماتزال أمامنا عشرون ساعة حتّى نصل إيسيوبوليا»، قال السّائق.

– « اخرس»، ردَّ عليه ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة.

- «أنا آسف يا سيّدي»، قال السّائق.

كان له صوت منغَّم، وماكس لا يستطيع احتمال هذا الصّوت. فاحتسى الشّراب، وفجأة غزت الكراهيّة رئتيه، واتّسع جذعه فيما بعد وكأنّه دبّابة.

- «لا رغبة لي في الحديث»، قال «اخرس».

- «حسنًا سيّدي»، ردَّ السّائق الأبيض.

لكنّ أذنيْ الرّجل الأسود لا تحتملان هذه الكلمات الأخيرة: «حسنا سيّدي».

ماكس لا يريد سماع صوت الرّجل الأبيض.

ـ هل تخرس أم أحطِّم فمك الأبيض القذر؟

كان صوت أومبيلينت جافًّا ومبحوحًا وناشزًا مثل صرير القضبان الحديديّة حين تُجرّ على الإسفلت. فصمت السّائق الأبيض مذعورًا.

على عكس سود إفريقيا المتوحّشين، يعرف ماكس أومبيلينت كيف يكره. فهو يحفظ عددا لانهائيّا من كلمات الحقد الّتي تعلَّمها من البيض، الكلمات الّتي لا يتقنها غيرهم. فالنّجمة الّتي تقود خطى الرّجل الأبيض على الأرض هي نجمة العنف والغزو والسّيطرة. وهو الّذي غزا الأرض والماء والفضاء. فحتّى عندما يعشق امرأة، يقوم بغزوها. كما أنّه غزا كلّ ما يكره. لقد ابتدع الرّجل الأبيض واجبات ثمّ أسر نفسه في دائرتها، كما يسجن نفسه بقفص حديديّ. فكلّ ما يملكه هو غنيمة غزواته. وعندما لا يجد حوله ما يغزوه، يهزم

نفسه بنفسه، يهزم أمعاءه وأحلامه وأفكاره، ويغزوها. يسود حياته ويتحكّم فيها تمامًا كما يتحكّم في مستعمراته. يتحكّم في جوعه وفي عطشه وفي نومه وفي أحلامه. إنّ وجود الأبيض هو حُمَّى غزوات وتسلّط. والرّجل الأسود يجهل تمامًا جنون الغزو، هذا الّذي يلتهم الرّجل الأبيض ويستنزفه كالحريق.

ومع ذلك، فإنّ ماكس كان ينهشه الغضب، في هذه اللّحظة، تمامًا مثل رجل أبيض. ويشعر بكراهيّة لا حدود لها، تدفعه لسحق السّائق الأبيض. بدأت هذه الكراهيّة لحظة صعوده إلى الشّاحنة، وما فتئ هذا الشّعور الّذي سبّبه وجود رجل أبيض يتعاظم منذ ذلك الحين.

ترك ماكس أومبيلينت الحرّية التّامّة لستانيسلاس كريتزا في أن يسهر على تنظيم أدقّ تفاصيل جريمة القتل الرّباعيّة. صحيح أنّ كريتزا أعلمه بأنّ السّائق سيكون أبيض. وكان هو موافقًا على ذلك، لأنّه لم يَعُدْ يهمّه لون بشرة السّائق سواء كان أبيض أو أسود أو أصفر. ففي تلك الفترة من حياته، تساوتْ عنده كلّ الأمور.

ولكن عندما توقّفت الشّاحنة أمام رصيف مقهى أفريكا بلاست، وفي اللّحظة الّتي لمح فيها وجهَ السّائق الأبيض، خامره شكّ، أخذ في التّعاظم حتّى صار يقينًا. فهو واثقٌ، الآن، بأنّ السّائق الأبيض قد كلّفه ستانيسلاس كريتزا بمراقبته. وما وجوده إلّا دليلٌ على أنّ ستانيسلاس لا يثق فيه.

طفق الرّجل الأسود يشرب حتّى كادت رئتاه تنفجران، رئتاه الطّافحتان بالكثير من التمرُّد.

- «توقّفْ»، صاح ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة: «توقّفْ».

كانت رائحة الحقد والرّوم الّتي تلهب أنفاس الرّجل الأسود، تجلد وجه السّائق الأبيض مثل قاذفة اللّهب.

(2)
الفَلاشي

- «لماذا لم يقع استئجار سائق أسود؟»، سأل ماكس أومبيلينت.

توقّفت الشّاحنة في وسط الطّريق، لكنّ المحرّك واصل الدّوران وتُركت المصابيح مشتعلة. تشنَّج فكّا السّائق الأبيض الّذي يُدعى زينو، من الرّعب.

- «هل كلَّفك ستانيسلاس كريتزا بالتّجسّس عليّ؟»، قال ماكس أومبيلينت. «يجب أنْ يكون الرّجل الأسود مراقَبًا، دائما، من رجل أبيض. أليس كذلك؟ ولكنّ كريتزا مخطئ. سأقتلك. وعندما تموت، لن تكون لا أبيض ولا أخضر ولا أزرق، بل ستغدو بلا لون».

غطّى صفير النّفس الملتهب للرّجل الأسود صوت المحرّك. كانت تفوح من ماكس أومبيلينت رائحة الرّوم، وتتسرّب رائحة حامضة من جسده، بينما اكتسب رأسه الشّديد السّواد كفحم الأنتراسيت، لونًا بنفسجيًّا الآن. تشنَّجت يداه الشّبيهتان بيدي غوريلَّا، ورفع مخالبه السّوداء نحو رقبة السّائق البيضاء. فأخذ هذا الأخير يرتجف، وهو يرى المخالب الّتي ستخنقه، بوضوح، تحت الضّوء الأصفر للوحة القيادة. ثمّ صفَّر الرّجل الأسود من بين أسنانه:

- «يجب أن يحرص رجل أبيض، دائمًا، على أن ينفّذ عمله القذر رجلٌ أسود بإتقان».

- «كلّا سيّدي»، ردَّ زينو الفلاشي. «أنا لست مكلَّفا بمراقبتك يا سيّدي».

تجمَّدت اليدان السّوداوان على رقبة الرّجل الأبيض دون حراك.

- «كنت أعتقد أنّك على علم بذلك يا سيّدي»، قال الفَلاشي. «لقد استُؤجرت من أجل أن تضربني وتصفعني يا سيّدي. كنت أعتقد أنّك تعلم ذلك. أنا الرّجل الأبيض الّذي يجب عليك أن تضربه أمام آكلي لحوم البشر. هذه هي مهمّتي يا سيّدي: أن تصفعني».

السّائق لا يكذب. تذكّر ماكس أومبيلينت أنّ على زينو الفلاشي أن يسمح له، في إيسيوبوليا، بضربه وركله والبصق على وجهه في حضرة آكلي لحوم البشر طبقا للخطّة الّتي وضعها ستانيسلاس كريتزا. فحين يشاهدون أومبيلينت الأسود وهو يصفع رجلا أبيض، سيرهَبُ هؤلاء ماكس وسينال إعجابهم واحترامهم. وحينها سيفعل ماكس، بعد استعراضه لقوّته، ما يريده بآكلي لحوم البشر.

ارتخت أصابع الرّجل الأسود المتشنِّجة، وعاد يبحث عن قنّينة الرّوم. وبعد أن هدأت فورة غضبه، رفعها إلى فمه. فلمح السّائق جوزة حلق ماكس وهي تتحرّك في الرّقبة السّوداء، كأنّها إطار عجلة مطاطيَّة لشدّة ضخامتها. رسم زينو الفلاشي علامة الصّليب على حنكه مستعينا بطرف لسانه، وشكر الربّ لأنّه أبعد عنه ذلك الخطر.

عمد ماكس أومبيلينت، وهو يشرب، إلى توضيح الأمر في ذهنه:

هو رجل أسود، ويجب عليه إنهاء مهمّة دنيئة، مهمَّة خاصّة بالسّود. يجب أن يقوم بقتل المبشّرين الّذين يقيمون بين آكلي لحوم البشر، قبل عيد الميلاد. وهؤلاء المبشّرون لم يلحقوا أيّ أذى بماكس أومبيلينت، لكن هذا الأمر لا يكتسي أيّة أهميّة. يوجد أيضا من بين المبشّرين فتاة شقراء، وهي بيانكا. وهذا ليس مهمّا أيضًا، فالإنجيليّة الشّقراء ستُقتل هي الأخرى. سينفّذ الرّجل الأسود هذا العمل القذر. وبعد إتمام جريمة القتل، سينسى، ولن يصبح أيّ شيء ذا بال حينها. فليس لحدث طواه النّسيان أيّة خطورة.

أعاد الرّجل الأسود إغلاق القنّينة، وتركها تسقط في الجراب الجلديّ المتدلّي على صدره. وشعر، فجأة، بالشّفقة على السّائق الأبيض.

-«يا لَلأبيض مِنْ مسكينٍ»، قال الأسود في نفسه. «إنّ مهمّته لا تقلّ دناءة عن مهمّتي، فمن الدّناءة حقّا أن تترك رجلا أسود يضربك ويصفعك ويبصق عليك على مرآى قبيلة من آكلي لحوم البشر».

ورغم أنّ زينو أبيض البشرة، فقد قبل، مع ذلك، القيام بهذا العمل. قَبِلَ أن يضربه الرّجل الأسود، وأنْ يُسيل دمه، وأنْ يتلقّى اللّكمات ويخسر أسنانه من دون أنْ يحتجَّ أوْ يدافع عن نفسه. ووافق على أن يكتفي بالصّمت، أو أن يقول «شكرا» في أقصى الحالات.

قال ماكس أومبيلينت في نفسه: «أنا مكلَّف بعمل قذر، ويجب عليّ اقتراف أربع جرائم قتل. ولكنّ مهمّة هذا الرّجل الأبيض غير مشرّفة، هي الأخرى، في شيء. فهو أيضا مكلّفٌ بمهمّة في غاية القذارة».

- «منذ متى وأنت تعمل لصالح الحزب؟»، سأله الرّجل الأسود.

صحيح أنّ سؤاله هذا فظّ، لكنّه لا يخلو من المنطق. فظهور زينو الفلاشي هنا في قلب أفريقيا، لا يدع مجالا للشكّ في أنّه رجل تابع للحزب. إنّه مناضل شرس بكلّ تأكيد. ولا يمكن إلّا لشخص مثله إتمام مهمّة تجبره على تلقّي صفعاتِ رجل أسود وبصاقِه، وتحمُّل إهانته. والمناضل الشّرس هو رجل من حديد، فمن دون إيمان راسخ مثل الصّخر لا يمكن إتمام عمل كهذا. ماكس أومبيلينت يقوم بعمل قذر لأنّه أسْود، فالأسْود لا يجب أن يقوم إلّا بالأعمال القذرة. أمّا بالنسبة إلى الرجل الأبيض فالأمر يختلف: فهو عندما يقوم بعمل قذر، فإنّه يفعل ذلك بدافع المثاليّة وبدافع الإيمان به. فالأبيض يملك حقّ الاختيار، ولهذا هو أبيض.

- «أنا لا أنتمي إلى الحزب»، ردَّ زينو الفلاشي. «لمْ أَنْتَمِ يومًا إلى الحزب، ولا إلى أيّ تنظيم آخر».

ابتسم زينو الفلاشي وتبدَّد خوفه. فقد هدأ الرّجل الأسود وعدل عن قتله. لزينو أسبابه الّتي تجعله يبتهج، فهو لم يبلغ الثّلاثين سنة من العمر بعد. نظر ماكس أومبيلينت إلى الوجه الأبيض. كان السّائق يملك وجه شخص يعاني من سوء التّغذية. وهي المرّة الأولى الّتي ينظر فيها الأسود إلى وجه السّائق الأبيض. فحتّى عندما كان يريد خنقه، لم ينظر إليه. وفي الحقيقة، لمْ يعُدْ ماكس أومبيلينت ينظر إلى أيٍّ كانَ منذ زمن بعيد. لمْ يعُدْ ينظر إلى شيء، ولا إلى أيّ شخصٍ. لقد أصبح النّاس لا يعْنُونه، وصارت الأشياء الّتي تحيط به غير جديرة باهتمامه.

ومع ذلك، فقد شعر الرّجل الأسود بالشّفقة على السّائق الأبيض. شفقة غريبة ظهرت فجأة.

- «إذنْ، ماذا تفعل هنا، إن كنت غير مُنتَمٍ للحزب؟»، سأله.

- «من أجل المال يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي. «كلّ النّاس يعملون من أجل المال. لقد أتاح لي السيّد كريتزا هذه الفرصة، وكنت سعيدا بقبول العمل معه، فهو يدفع لي بسخاء. أنا في حاجة إلى المال لأبتاع تذكرة سفر عبر الباخرة. وقد حصلت عليه الآن. هذا كلّ شيء، ولكن لِمَ تسألني يا سيّدي؟»

لمْ يُجبْ ماكس أومبيلينت.

- «لقد فهمت، على الفور، لِمَ تمَّ تكليفي بهذا العمل»، قال زينو الفَلاشي. «لم يكن يحتاج السيّد كريتزا إلى شرح مطوَّل . لقد أدركت، في الحين، في ما تتمثّل مهمّتي. فأنت في حاجة إلى أن تكون لك هيبة في أعين المتوحّشين. ويجب عليهم أن يطيعوك ويهابوك. لذلك، كان يلزمك رجل أبيض كي تتمكّن من إهانته أمامهم. فضرب رجل أبيض يضفي هيبة على رجل أسود. ولتسمح لي بهذه الملاحظة يا سيّدي: إنّ الخطّة ممتازة، وهيبتك أمام آكلي لحوم البشر مضمونة. فلا توجد وسيلة غيرها مع هؤلاء المتوحّشين.

لم يكن زينو الفَلاشي يستشعر إلّا النّوايا النّبيلة والأشياء الجميلة والذّكيّة من حوله. ومن المستحيل إقناعه بالعكس.

- «من أيّ بلاد أنت؟»، سأله الرّجل الأسود.

- «من بلاد بعيدة»، ردّ عليه زينو الفَلاشي وهو يضغط على دوّاسة البنزين. «أنا واثق بأنّك لم تسمع بموطني قطّ، أنا فَلاشي».

- «أتعتقد أنّني جاهل بالجغرافيا لمجرَّد أنّ لوني أسود؟»، قال ماكس أومبيلينت. «أتعتقد أنّ الرّجل الأبيض هو وحده الّذي يعرف الجغرافيا؟».

اهتاج الرّجل الأسود من جديد. فقد التمس في إجابة زينو تلميحًا إلى دونيَّة العرق الأسود.

- «هناك سود يفقهون الجغرافيا أكثر من البيض»، قال ماكس أومبيلينت. «أنا، مثلا، درست في جميع كليّات الولايات المتّحدة الأمريكيّة قبل سفري. أنا أسود لكنّني أفهم الجغرافيا أكثر من البيض. هل تريد أن أثبت لك ذلك؟».

أجهد الرجل الأسود ذاكرته. فانكمش جبينه وقال كما لو أنّه يقرأ من الموسوعة البريطانيّة:

- «بلدك يقع في أوروبا، شمال نهر الدّانوب. ويعدُّ عشرين مليون ساكن. يسكنه شعب ذو أصول لاتينيّة. وهو بلد غنيّ بالبترول والقمح. وله ميزات أخرى: منها، جمال نسائه الّذي ذاع صيته. أليس كذلك؟».

رفع زينو الفلاشي قدمه من على الدوّاسة برفق، فتوقّفت الشّاحنة. ثمّ أطلق المقود، وأخذت يداه الصّغيرتان البيضاوان تبحثان عن يد الرّجل الأسود اليمنى، عن يد الغوريلا الّتي كانت

تريد خنقه قبل بضع دقائق. لكنّ زينو نسي ذلك، وضغط على يده بامتنان صادق وعميق.

- «شكرا يا سيّدي»، قال الفَلاشي.

- «لماذا تشكرني؟»، سأله الرّجل الأسود.

- «أنت أوّل شخص يعرف من هو الفَلاشي، وأوّل مَنْ يعرف أنّ الفَلاشيّين موجودون فعلًا. فالعالم كلّه يجهل أنّنا موجودون، ولكنّك تعرف ذلك. إنّ هذا الأمر يدفعني إلى البكاء يا سيّدي، وأنا سعيد لأنّ بي رغبة في البكاء».

اغرورقت عينا زينو الفَلاشي بالدّموع.

- «في كلّ مرَّة أُخبر أحدهم بأنّني فلاشي، أتعرَّض إلى الشّتم: «ماذا يعني فلاشي؟ لم أسمع، طيلة حياتي، بهذا الشّيء. هل يوجد حقًّا شعب فلاشي؟ إنّه أمر غريب»، هذا ما يقال لي. أمّا أنت فتعرف، بل تعرف أيضًا أنّ النّساء الفلاشيّات جميلات. فهنّ فاتنات فعلا يا سيّدي».

- «اخرسْ!»، قال ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة.

أثارت صداقة الفَلاشي غضب الرّجل الأسود، ودفعته إلى الحذر منه. فهُوَ يُدرك أنّه كلّما أظهر رجل أبيض مودَّته لرجل أسود، فعلى هذا الأخير أنْ ينتظر حدوث كارثة.

- «تابع طريقك أيّها القذر»، قال ماكس أومبيلينت.

شغَّل زينو الفلاشي محرّك السيّارة. لمْ يغضبْ من الرّجل الأسود حين نعته بالقذر. إنّه سعيد الآن. فقدْ عثر أخيرًا على رجل يعرف ما

معنى «فَلاشي». وقد قال زينو كلّ ما في قلبه.

- «الفَلاشي يدين بالنّصرانيّة يا سيّدي»، قال زينو في حماس. «هذا هو الأساس، وكلّ ما عداه ثانويّ».

وروى السّائق أنّ الفَلاشيّين قد خاضوا حربا ضدّ السّوفيات خلال الحرب العالميّة الثّانية.

- «أنا أيضا حاربت معهم يا سيّدي طيلة أربع سنوات. حاربت في كامل أنحاء روسيا: في القوقاز وفي القرم وفي أوكرانيا وفي سباسب نوقاي. حاربت في كلّ مكان. قضى مليون فلاشي في سبيل المسيح. لقد حاربت وسُجِنْتُ في سيبيريا من أجله. هل يمكن أن لا أدافع عنه؟ إذا لم ندافع نحن النّصارى عن ابن الربّ، فمن سيدافع عنه بدلا منّا؟».

كان زينو الفلاشي يتحدّث عن المسيح بحميميّة، كما لو كان شقيقه الأكبر. فالكنيسة، في رأيه، هي بيت الربّ والنّصارى حرّاسه. ولقد دافع عن هذه الفضيلة الدّنيويّة ضدّ السّوفيات.

كان ماكس أومبيلينت يستمع إليه في شرود.

- «هل أنت نائم يا سيّدي؟»، تساءل زينو الفلاشي.

لمْ يكنْ الرّجل الأسود نائمًا، بلْ يفكّر. إنّه يفهم السّائق جيّدا. فكَيْ تفهم فلاشيّا يجب أنْ تكون أسود. وفي المقابل، يجب أنْ تكون فلاشيًّا حتّى تفهم رجلا أسود. يلزمك أن تعيش آلاف السّنوات من الظّلم واليأس حتّى تفهم رجلا أسود أو فلاشيّا.

- «أنا سعيد برفقتك يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي. «إنّها فرصة

كبيرة بالنّسبة إليّ. وبإمكانك أن تضربني بكلّ ما أُوتيتَ من قوّة. لقد ضُرِبْتُ طوال فترة أسري بروسيا، وسُجنت في سيبيريا. لا يمكنك أن تتخيّل كيف يضرب الرّوس سجناءهم. كان يضربني كلّ أفراد الشّرطة أينما وجدوني، يضربونني دائما، ودون سبب. أمّا الآن، فأنا سعيد يا سيّدي».

- «سعيد لأنّك ستُضرب؟»، سأل الرّجل الأسود.

- «إنّها المرّة الأولى الّتي سأُضْربُ فيها من أجل شيء ما يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي. «إلى حدّ هذه اللّحظة كنت أُضرب مجانا، دونما سبب وبلا هدف. أمّا الآن، فأنا أعرف السّبب الّذي سأضرب من أجله، سأضرب كي تكون لك هيبة».

على ضوء لوحة القيادة، لمح الرّجل الأسود وجه الفلاشي الشّاحب: كان وجها نحيفا بنظرة حزينة لرجل يعاني من سوء التّغذية. فوقع هذا المشهد في نفسه.

- «هل تعلم يا صغيري الفلاشيّ أنّ الوجه البشريّ هو نسخة أمينة من الوجه الإلاهي، وإنّها لخطيئة يُعَدُّ ذنبا أن تترك وجه الربّ، أي وجهك، يُصفع ويُبصق عليه؟ إذا تركت أحدهم يضرب وجهك، فأنت تهب له، بذلك، وجه الربّ كي يضربه. ويجب أن تدافع عن وجه ربّنا، يجب أن تدافع عن وجهك».

- «لا تقلق بهذا الشّأن، سيّد أومبيلينت. لقد بصق الجميع على وجهي. ولو بصقت أنت حيث بصق الآخرون فهذا لا يعدُّ شيئا. ستصفع وجها صفعه الجميع قبلك. أنا فلاشي. والفلاشيّون هم مثلك يا سيّدي، كالسّود تماما. بإمكانك أن

تضرب دون خوف. سيثير ذلك إعجاب آكلي لحوم البشر ويمنحك هيبة أمامهم. لا تقلق بشأني فأنا هنا من أجل هذا الأمر. أنا هنا لأُصفع ويُبصق على وجهي. فقط من أجل هذا الأمر يا سيّدي، أمّا دوري كسائق فمسألة ثانويّة».

- «هل تعلم لِمَ أنا ذاهب إلى إيسيبوليا؟»، سأل ماكس أومبيلينت فجأة. «هل أخبرك ستانيسلاس كريتزا عن سبب ذهابي إلى الإنجيليّين؟ هل أخبرك بما سأفعله عندهم؟».

- «هناك أشياء لا تفسّر، ياسيّدي»، قال زينو. «طبعا أعرف. لا علم لي بالتّفاصيل، لكنّي من حيث المبدأ، أعرف السّبب الّذي يدفعك إلى الذّهاب بحثًا عن الإنجيليّين».

إنّها المرّة الأولى الّتي يتحدّث فيها زينو بهذه الثّقة.

هل هو على علم إذن بأنّ ماكس أومبيلينت ذاهب إلى زيارة آكلي لحوم البشر من أجل قتل المبشّرين الأربعة؟ إذنْ فستانيسلاس كريتزا قد كذب عندما قال للرّجل الأسود إنّ الخادميْن الأسوديْن والسّائق يجهلون الخطّة بأسرها.

- «هل تعتقد أنّ ما سأقوم به أمر حسن؟»، سأله الأسود. «أَلَمْ يحرِّكْ ذلك ضميرك كنصرانيٍّ؟».

- «ضميري مرتاح يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي. «أمر رائع أن تصير الأمور على هذا النّحو، بل إنّها تسير على أحسن ما يرام».

بحث ماكس أومبيلينت عن قنّينة الرّوم. فهو يحتاج إلى جرعات من الرّوم حتّى ينسى أنّه مقدم على زهق أرواح أربعة مبشّرين. إنّها فكرة يعجز عن احتمالها. ولذلك، يجب أن يسكر حتّى لا يفكّر فيها أبدا.

- «إذنْ أنت تعرف وتؤكّد أنّه من الجيّد...»، قال الرّجل الأسود. وترك القنّينة تسقط في الجراب المتدلّي على صدره.

- «إنّه عمل مثاليّ خالص يا سيّدي»، قال الفلاشي. «أنا أفهم موقفك. فنحن الفلاشيّون لسنا أغبياء، نفهم دون حاجة إلى الكلمات. إذا طلبت منّي أن أوصلك إلى المقهى، فأنا أعرف أنّك ترغب في تناول مشروب ما. وإذا طلبت منّي أن أوصلك حيث المبشّرون الأربعة الّذين يخاطرون بحياتهم في سبيل أن يعتنق آكلوا لحوم البشر الدّيانة النّصرانيّة، فسأفعل ذلك. فأنت أيضا أسود، وهم ينصّرون سودًا مثلك. أنت ذاهب إليهم، وهذه حركة في غاية المثاليّة، أنت على صواب. هم يستحقّون أن تزورهم».

ابتسم زينو الفلاشي في سرور.

- «إنّه لا يعلم شيئا عن الخطّة»، قال الأسود في نفسه. «ستانيسلاس كريتزا لا يكذب أبدا. وما دام قد قال إنّ السّائق لا يعلم شيئا، فهو فعلا لا يعلم شيئا».

- «ما هي الهديّة الّتي تعتقد أنّني سأقدّمها إلى المبشّرين؟»، سأل ماكس أومبيلينت.

- «لا علم لي بالتّفاصيل»، ردَّ الفلاشي. «لكنّني واثق من أنّك ستجعلهم سعداء، هؤلاء المبشّرين الشّجعان».

واصل ماكس أومبيلينت تناول الرّوم، ولم يعد يصغي لما يقوله الفلاشي. إنّه يشعر بأنّ هذا الأخير سعيد، وفخور بنفسه وبمنطقه. زينو يملك منطقا أُسِّس حصريّا على الثّقة في النّاس. وهو عاجز عن

تصوّر إمكانيّة أن يزور الكنيسة شخص كي يسرق الأشياء المقدّسة أو يقتل الرّاهب بدل الصّلاة. ولذلك، من غير الوارد بالنّسبة إلى زينو الفلاشي، أن يذهب الأسود إلى المبشّرين كي يقتلهم. فلا أحد يزور هؤلاء إلّا وهو مسكون بأفكار ورعة. هكذا يفكّر، فذهنه قاصر على تخيّل الشرّ. سيُتَّهم زينو، دون شكّ، بالاشتراك في جريمة قتل مبشِّري إيسيوبوليا. فهو يقود شاحنة القاتل الأسود. ويبدو من المستحيل أنّه يجهل مخطّط الجريمة، لكنّه يجهله رغم ذلك. إنّه لا يعرف شيئا عنها. إنّه مَعُوق ذهنيًّا.

وتكمن إعاقته في عدم قدرته على تخيّل الشرّ، حتّى لو يراه بأمّ عينيه.

(3)
سلالة أومبيلينت

- «ما الّذي يحدث يا سيّدي؟».

داس زينو، فجأة، على الفرامل، وحاول تهدئة الرّجل الأسود الّذي كان يصرخ من شدّة الألم وهو يقبض على كرسيّ الشّاحنة بيديه، فبدا جامدًا في مكانه كتمثال عملاق من الأنتراسيت. كانت عيناه جاحظتيْن ومنتفختيْن، وأبيضهما ملطّخ بأثلام حمراء شبيهة بأزهار صغيرة من الدّم. أطلق القاتل الأسود صرخة انبثقت من لحمه ومن عظامه وأحشائه وكلّ مسامّ بشرته السّوداء.

- «أتوسّل إليك يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي.

فتح البوّابة، ونزل مسرعا ليبحث عن كسو-غوا- كزوب وناكوسانسوا. لكنّ الخادميْن اللّذيْن كانا نائميْن في مؤخّرة الشّاحنة، اختفيا. لقد أصبح زينو وحيدا الآن.

حتّى هذه اللّحظة لم يكن الفلاشيّ قد سمع صراخ الرّجل الأسود، على عكس ستانيسلاس كريتزا الّذي ألفه. وكلّ العاملين بالفندق الّذين استضافوا ماكس أمبيلنت يعرفون عويله. ففي بعض الأحيان، كان الأسود يقف ويمسك بقضبان النّوافذ، ويعوي كحيوان مسجون في قفص. وفي كل مرَّة يزوره فيها الأطبّاء، كانوا يجمعون على التّشخيص نفسه:

- إنّه الهذيان الارتعاشي[1].

ثمّ يدحضون، بعد فحصه ثانية، تشخيصهم الأوّل:

- «إنّ الكحول عامل مهمّ في إثارة النّوبَات وفي مدى حدّتها، إلاّ أنّ هذه الأعراض لا علاقة لها بالهذيان الارتعاشي، ولا بتشمّع الكبد جرّاء تناول الكحول».

كان الأطبّاء يجهلون المرض الّذي يعاني منه ماكس أومبيلينت. وكان ستانيسلاس كريتزا من القليلين على وجه الأرض الّذين يعرفون سبب صراخ الرّجل الأسود.

- «لمَ تصرخ هكذا يا سيّدي؟»، ردَّد زينو الفلاشي دون انقطاع.

إنّه وحيد ويائس لعجزه عن فعل أيّ شيء، فاكتفى بوضع يديه على كتفي الرّجل الأسود. وفجأة، توقّف الصّراخ مثلما انطلق فجأة. كان العرق يتصبّب من جبين الرّجل الأسود ومن صدره حتى تبلَّل قميصه. قرَّب قنّينة الرّوم من شفتيه وأفرغها في فمه، ثمّ ناولها زينو. فتح السّائق إحدى الحقائب، وملأ القنّينة من جديد. وعندما كان بصدد إغلاق الحقيبة المعدنيّة، لمح كسو-غوا-كزوب وناكوسانسوا اللّذين فرّا فزعيْن حين بدأ الرّجل الأسود في الصّراخ، وقد صعدا إلى الشّاحنة من جديد، ووضعا رأسيهما على الحقائب، ثمّ عادا إلى النّوم.

أخذ ماكس أومبيلينت القنّينة الممتلئة، ووضعها في الجراب. كان هادئا، ويبدو أصغر بعشر سنوات.

---

(1) باللّاتينيّة في النصّ Delirium tremens. (المترجمة).

- «لم كنت تصرخ يا سيّدي؟»، سأل زينو. «هل تتألّم يا سيّدي أومبيلينت؟».

- «هيّا بنا»، ردَّ الرّجل الأسود بلهجة آمرة.

انطلقت الشّاحنة، لكنّ صراخ الرّجل الأسود ظلّ مغروسا في لحم الفلاشي. فخلال الحرب ضدّ روسيا، شاهد زينو أناسًا كثيرين يموتون، وسمع الجرحى يطلقون صرخات مُحزنة، ورجالا يبكون، ويطلبون النّجدة في يأس، وآخرين يصرُّون أسنانهم من شدَّة الألم حتّى توشك فُكوكهم أنْ تتحطّم. وفي السّجون، سمع زينو الفلاشي الأسرى يئنّون تحت التّعذيب طوال اللّيل. لكنْ ولا صرخة من كلّ تلك الصّرخات تشبه صراخ ماكس أومبيلينت الأسود. إنّ صراخه لا يشبه إلاّ صراخ أسلافه الّذين تمّت مطاردتهم في إفريقيا، وبيعوا إلى تجّار الرّقيق كي يقتادوهم إلى أمريكا.

يجهل ماكس أومبيلينت من أيّ بلد إفريقيّ قدم أسلافه. ولا يوجد أمريكي أسود يملك شجرة عائلته. كل ما يعرفه ماكس عن عائلته يتلخّص في جملة واحدة: عائلة أومبيلينت تملك ثروة تفوق الثّلاثة ملايين من الدّولارات منذ ثلاثة أجيال.

منذ أربعة أجيال -أي منذ أن تحرّر السّود من العبوديَّة- أصبحت عائلة أومبيلينت تملك مؤسّسة ضخمة، مخصَّصة للسّود، لإدارة شؤون الجنائز. إنّها صفقة رائعة.

تملك مؤسّسة أومبيلينت مقابرها الخاصّة الّتي يدفن فيها الموتى بموجب عقد يبدأ منذ لحظة وفاتهم حتّى يوم الحساب، بالإضافة إلى مصانع تنتج كلّ الأدوات المتعلّقة بالموت من توابيت وأزهار

اصطناعية ومدافن وصلبان وبطاقات زيارة لُوِّنت حوافّها بالأسود، وأوشحة حداد من الكريب[1].

وُلد ماكس لسلالة حفّاري القبور الأثرياء. ولكونه مليونيرا، كان يُفترض أنْ يكون جالسًا، في هذه اللّحظة، وراء أحد المكاتب الفخمة في الشّركة الّتي عُيّن رسميًّا مديرا لها. إلاّ أنّه آثر الرّكوب في شاحنة رفقة سائق فلاشي وناكوسانسوا وكسو-غوا- كزوب، ليُقدم على اغتيال أربعة شبّان من المبشّرين. إنّ ماكس أومبيلينت قاتل أسود، قاتل رغم ملايينه، قاتل مثل أيّ أسود بائس لا يملك دولارا واحدا.

* * *

السّود شديدو التّعلّق بالأشياء، حتّى لوْ كانوا يملكون الملايين. كان حفّارو القبور الأثرياء هؤلاء، منذ أربعة أجيال ، يتمنّون من كلّ قلوبهم أن يظهر في سلالتهم رجل مثقّف. لكن ما من أحد من أفراد العائلة نجح في الحصول على شهادة جامعيّة قبل ماكس.

وفَّرت عائلة ماكس أومبيلينت سيّارة من نوع كاديلاك لابنها، وسائقا خاصّا، كما أرسلته للدّراسة في كلّ الجامعات الأمريكيّة الّتي تقبل الطّلبة السّود، وهي الجامعات الّتي تخرَّج منها بعد أن حصل على كافّة أصناف الشّهادات العلميّة.

وعند بلوغه السّادسة والعشرين من العمر، كان ماكس رياضيًّا وشابّا وسيما، بحوزته عدّة شهائد، وصاحب ثروة تُقدّر بالملايين. ثمّ ظهرت في حياته فتاة شقراء كتتويج لجميع نجاحاته.

---

(1) نوع من القماش (المترجمة).

تُدعى الفتاة الّتي كانت رفيقته في الكليّة، بلانش كنور. وقعت بلانش[1] في غرام الرّجل الأسود، وأحبّته حدّ الوله. لكن من المستحيل معرفة ما إذا كانت بلانش عاشقة لثروة ماكس أو لثقافته أو لبشرته السّوداء.

- «لا أقدر على العيش من دونك، يا حبيبي ماكس. أريد أنْ أصبح زوجتك. فلقد أُغرمت بك يا ماكس»، تقول بلانش كنور.

كانت تهمس لماكس أومبيلينت بالعديد من الكلمات العذبة. وهي تحفظ قاموس الفتيات العاشقات عن ظهر قلب، وتردّده بكلّ شغف على الرّجل الأسود المفتون بها تمامًا، مثلما يفتن أيّ رجل أسود تقع في غرامه فتاة شقراء.

- «إن لم تتزوّجني، فسوف أقتل نفسي، يا ماكس»، قالت بلانش.

- «سأكون سعيدا جدّا بزواجي منك»، قال ماكس أومبيلينت.

لم يكن يملك الشّجاعة كي يخبرها بوجود بعض الصّعوبات، ولكنّ بلانش كانت تملك إجابة جاهزة عن ذلك.

- «حين يقع اثنان في الغرام معًا، تسقط كلّ الفوارق العرقيّة والدّينيّة والجسديّة. فكلّ الرّوايات تثبت أنّ الحب هو الأقوى دائما».

بلانش كنور هي ابنة شرطيّ وأخت لشرطيّيْن أيضا، كما أنّ جدّها شرطيّ متقاعد هو الآخر. مثلما هي الحال في عائلة ماكس أومبيلينت الّتي كان أفرادها السّود حفّاري قبور بالوراثة، فإنّ عائلة

(1) اسمها يعني «بيضاء» (المترجمة).

بلانش كنور هم شرطيّون أبا عن جدّ. يجري في عروق عائلة كنور دم الشّرطيّ كما تجري في عروق عائلة ماكس أومبيلينت دماء السّود. فبلانش كنور هي الشّرطة، وماكس أومبيلينت هو المقبرة: الشّرطة والمقبرة محطّتان نهائيّتان. فالشّرطة تمثّل نهاية الحريّة والمقبرة هي نهاية الحياة. لكنّ الحرية والحياة شيء واحد: لا تساوي الحياة شيئا في غياب الحريّة، مثلما لا توجد حريّة خارج الحياة.

لم يُدع الرّجل الأسود، ولو مرّة واحدة، على العشاء في منزل عائلة رجال الشّرطة البيض. تُقيم عائلة كنور هذه في ضاحية المدينة، ويعيش أفرادها في فقر مدقع بسبب بخلهم.

أمّا والدة ماكس فتُدعى أفريكا أومبيلينت، ويناديها كلّ أفراد العائلة «بالأمّ أفريكا». كانت بلانش كنور تقضي ساعات طويلة برفقتها. إنّها زنجيّة رائعة الجمال، قصيرة القامة، وبدينة نوعا ما. يداها ناعمتان وممتلئتان ومكسوّتان بخواتم الألماس. إنّها امرأة أنيقة للغاية. كانت بلانش تجلس على السجّاد المحاذي لأريكة الأمّ أفريكا، وتمسك بيد الزنجيّة بين يديها البيضاوين، وتقول:

- «أنا جدّ مغرمة بماكس، يا ماما أفريكا».

ثمّ ترفع عينيها الزّرقاوين كزهرة آذان الفأر[1]، وتردّد:

- «أنا أحبّه إلى درجة لا تتخيّلينها يا ماما أفريكا، أعدك أن أجعل منه أسعد زوج في الكون».

- «أتمنى لكما السّعادة»، تقول ماما أفريكا.

لقد تأثّرت بمشاعر الحب الّتي تحملها هذه الفتاة البيضاء لابنها

(1) زهرة صغيرة في لون اللّازورد. (المترجمة).

الأسود. لكن الأمّ أفريكا تشعر بالخوف. لقد تمنّت لو أُغرم ماكس بفتاة سوداء.

تُقيم عائلة أومبيلينت في فيلّا فاخرة في أحد المنتجعات، وهي عبارة عن فندق خاصّ، يحتوي على ثلاثة طوابق من الحجر المقصوب، وسلالم من المرمر، وتحيط به حديقة غنَّاء.

كان أفراد العائلة سعداء باستقبال بلانش كنور في منزلهم، بل إنّهم يشعرون بالفخر لأنّ فتاة بيضاء تزور منزلهم يوميًّا. ماما أفريكا وحدها يساورها الخوف.

- «في كلّ مرّة تزورنا فيها بلانش، يعتريني رعب شديد»، تقول الأمّ أفريكا. «أعرف أنّ هذا ضرب من الغباء، لكن ما إنْ أرى بشرتها البيضاء بلون القشدة المخفوقة، حتّى تسري في جسدي قشعريرة».

لوالدة ماكس أسبابها الوجيهة الّتي تبرّر خوفها من لون بشرة بلانش البيضاء، ومن زرقة عينيها. فمنذ أربعة أجيال[1]، ساق الحانوتيّون من سلالة أومبيلينت ملايين السّود إلى المقابر، وهُمْ أعلم النّاس بأسباب وفاتهم. تعرف الأمّ أفريكا أنّ عدد السّود الّذين يموتون بسبب السّرطان لا يفوق عدد من يقضون جرّاء معاشرتهم لنساء بيض. وسجلاَّت دار الجنائز أكبر دليل على ذلك.

كانت الأمّ أفريكا تعلم أنّ : «رجلا أسود + امرأة بيضاء = موت الرّجل الأسود»، فالأمر أشبه ما يكون بقاعدة كيميائيّة.

- «لقد تغيّر الزّمن»، قالت أخت الأمّ أفريكا. «سيكون زواج

(1) منذ تحرّر السّود من العبوديّة. (المترجمة).

ماكس وبلانش شرعيّا، وما تبقّى أضحى من الماضي. ألم نقرأ في عديد الصّحف أنّ المساواة بين البيض والسّود أصبحت قضيّة محسومة، وأنّ عهد التّمييز العنصري قد انتهى؟».

وافقت الأمّ أفريكا على زواج ماكس، كما قبلت عائلة رجال الشّرطة أيضًا، ولكنّهم اشترطوا أن يتمّ حفل الزّفاف في أوروبا.

- «لتجنّب تعقيدات قد تطرأ فجأة»، قال الشّرطيّ الأب. «ما تزال هناك نفوس رجعيّة. من الأفضل أن تتزوّجا في أوروبا. فهناك الجميع متحضّرون».

(4)

حادثة تافهة

تقرّر أنْ يذهب ماكس وبلانش بمفردهما إلى أوروبا، دون حضور عائلتيْ أومبيلينت وكنور حفل الزّواج. ولكن عند عودة العروسين من روما، ستقيم العائلتان وليمة بالمناسبة. وستكون مناسبة تلتقي فيها عائلة رجال الشّرطة البيض بنظيرتها عائلة الحانوتيّين السّود. أوصت بلانش بفستان العرس وكلّ لوازم السّفر. جُهِّزت الحقائب، ولم يبق سوى ثلاثة أيّام على إبحار الباخرة إلى أوروبا.

غمرت الفرحة العائلتيْن، والعروسيْن كذلك. وبدا الزّفاف محمَّلا بوعود السّعادة إلى درجة أنّ هواجس الأمّ أفريكا قد تبدّدت كلّها.

- «لقد كنتُ غبيّة»، قالت الأمّ أفريكا. «المجد ليسوع. لقد أصبحنا نعيش في عصر متحضِّر».

إنّه يوم السّبت، وبلانش كنور تشعر بالتّعب. فمنذ عدّة أسابيع، والعروس الجميلة منهمكة في ترتيبات الزّفاف، متنقِّلة يوميًّا بين محلاَّت الصَّاغة ومصمِّمي القبَّعات ومصمِّمي الأزياء وصانعي الأحذية وصالونات الحلاقة.

تعامل ماكس بسخاء مع خطيبته، فأنفق المال دون حساب،

ووقّع الشّيكات دون أن ينظر إلى المبالغ المدوَّنة عليها. كان بإمكان عائلة كنور الاستغناء عن الأنوار في المنزل دون الغرق في العتمة، بما أنّ مجوهرات بلانش من الألماس وحلي الخطوبة وهدايا ماكس يشعّ بريقها في كلّ مكان.

- «أرغب في قضاء عطلة آخر الأسبوع بمفردي مع ماكس»، قالت بلانش كنور، وهي جالسة على السجّاد قُرْبَ أريكة الأمّ أفريكا. «أريد أن أختلي به، أن أكون أنا وهو فقط. إنّني مرهقة».
- «ستكونان بمفردكما على الباخرة، دون رفقة أيّ أحد، ولن تفترقا أبدا. لكن من الطّبيعي أن يبقى ماكس معنا قبل سفره. بعد ذهابكما سيصبح لك وحدك يا بلانش. فاتْركيه لي قليلا الآن. لم يبق على سفركما سوى ثلاثة أيّام، فلا تذهبا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع».

لكنّ بلانش تمسَّكت برأيها.

جلست بلانش إلى جانب ماكس في سيّارة البورش الحمراء. وضع العروسان حقيبتيهما في الخلف، ثمّ توجّها إلى الفندق المنعزل خارج البلدة. لقد نزل الخطيبان في ذلك الفندق عدّة مرّات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. يحبّ الرّجل الأسود قيادة السيّارات، ولذلك كان يقود البورش بسرعة بينما تضع بلانش يدها البيضاء على كتف ماكس أومبيلينت السّوداء.

لم يمضِ وقت طويلٌ حتّى توقّفت السيّارة أمام فندق هادئٍ ومنعزلٍ. إنّه عشّ مناسب لعاشقيْن.

وضعت الخادمة الحقيبتين في الحجرتين اللّتين تقعان في الطّابق الأوّل، وتفتحان على بعضهما. وهما غرفتان مؤثّثتان بأناقة، لكنّهما لا تشبهان حجرات الفنادق، فصاحبها لا يؤجّرها إلّا لمعارفه.

يُوجد أيضًا عدا صاحب النّزل وزوجته والخادمة الّتي ترتّب الحقائب في غرفتيْ الطّابق العلويّ، عامل آخر بالمطبخ، هاجر من أوروبا حديثًا، واستقرّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وقد خرج من المطبخ، الآن، ليحيّي ماكس أومبيلينت وخطيبته، وهو معتمرٌ طاقيّة بيضاء ويرتدي مئزرا أبيض.

- «تسرّني، دوما، رؤيتك بيننا»، قال رئيس الطبّاخين.

دخل الشابّان إلى مطعم النّزل الصّغير الّذي كان خاليًا من الزّبائن.

- «أنا أعمل اليوم من أجلكما فقط»، قال الطبّاخ.

- «شرائح لحم على الطّريقة النّمساويّة»، قالت بلانش كنور. «في غضون ثلاثة أيّام سنبحر إلى أوروبا، وسنتأكّد ممّا إذا كان طبق الشّنيتزل في فيينّا ألذّ من الّذي تعدّه أنت».

حينها، دخل الشّخص الخامس الّذي يعمل بالفندق إلى القاعة. وهو البستانيّ والحارس في الوقت نفسه.

- «لقد ركنت السيّارة»، قال الحارس.

شغَّل صاحب الفندق الّذي كان يعرف الأسطوانات المفضّلة للعروسين، آلة التّسجيل.

- «هل نرقص؟»، قالت بلانش كنور.

وطوَّقت بذراعيها البيضاوين خصر الرّجل الأسود العملاق في مرح، كأنّها تلفّه بوشاحين. بينما يُعدّ الطبّاخ طبقه الخاصّ من شرائح اللّحم، وهو اختصاصه.

لمح ماكس أومبيلينت، عبر النّافذة، سيّارة تلج ساحة الفندق. إنّها سيّارة قديمة ومكشوفة بلون السيّارات العسكريّة، على متنها شقيقَا بلانش رفقة شابّيْن آخريْن. تعرَّف على أحدهما، وهو بطل رياضيّ.

- «إنّهما أخواك، لطف منهما أن يأتيا لزيارتنا هنا»، قال ماكس.

فُتِح الباب.

كلّ رجال الشّرطة في العالم لا يشعرون بالمتعة إلّا عندما يثيرون الخوف في من حولهم. دخل الأخوان كنور وصديقاهما إلى المطعم وقد غطّوا وجوههم. أخذ ماكس ينظر إليهم ضاحكا، دون أن يتوقّف عن الرّقص.

اقترب المقنَّعون الأربعة من الرّجل الأسود الّذي تظاهر بالخوف. إنّه يحبّ المزاح مثل كلّ السّود. فسمح لهم باختطافه. كان يتصرّف تمامًا كرجل أسود حين ينتزعه أفراد حقيقيّون من الكو كلوكس كلان من بين ذراعيْ الفتاة الّتي يراقصها.

لم يكفّ ماكس أومبيلينت عن الضّحك فيما مختطفوه يجرّونه إلى خارج المطعم.

واصلت الأسطوانة دورانها، وظلّ صاحب الفندق وزوجته والعاملة والطّباخ والبستانيّ يقهقهون، وهُمْ واقفون عند عتبة

المطبخ. تظاهرت بلانش بالخوف أيضا، ونادت شقيقيْها بأسمائهما، وهي تحاول بنبرة مازحة أن تنقذ الأسود. لقد أثار وصول هؤلاء الشبّان موجة عارمة من الضّحك والعنفوان والبهجة.

- «كم هُمْ مرحون، إنّهم فعلًا مرحون هؤلاء الشبّان، أبناء كنور»، قهقه الرّجل الأسود طويلا، بينما كانت اللّعبة متواصلة، لعبة السّود مع الكو كلوكس كلان.

حمل الرّجال المقنّعون ماكس خارج المطعم، ثمّ رموْا به في السيّارة المكشوفة. وفي اللّحظة الّتي أُلْقِيَ فيها على الكرسيّ الخلفيّ للسيّارة، ضربه أحدهم على رأسه ضربة جعلته يصرخ:

- «توقّفوا، إنّني أختنق».

وضع أحد الأخوين كنور يده المقفّزة على فم ماكس أومبيلينت الّذي لم يعد قادرا على الصّراخ. فأفلت من قبضتهم وصاح:

- «إنّكم تؤلمونني، توقّفوا...».

نجح شقيق بلانش كنور في تكميمه مرّة ثانية بقفّازه الجلديّ البنّي اللّون. شعر ماكس بضربة أخرى تهوي على مؤخّرة عنقه، ورغم تلوّيه من الألم واصل الشّباب اللّعبة.

- «أيّها المتوحّشون، ستحطّمون رأسي»، قال ماكس أومبيلينت.

نجح في الإفلات منهم مرّة ثانية، ثمّ قاومهم في مؤخّرة السيّارة، وهو ملقى على ظهره بينما تتخبّط ساقاه في الأعلى.

لكن حين كمّمته اليد المقفّزة من جديد، غضب الرّجل الأسود. فهو عملاق ضخم، وقوّته تساوي ضعف قوّة كلّ فرد من الشبّان الأربعة.

لقد ألقوه في السيّارة لأنّه لم يُبد أيّة مقاومة، إذْ بإمكانه أن يصارع أربعة بيض، فأومبيلينت شمبانزي حقيقي. وهذا الشّمبانزي فقد صوابه الآن، عندما ضاق ذرعا بهذه المزحة. فقد تحوّلت إلى مزحة عنيفة جدًا. ولكن ما إن بدأ في المقاومة حتّى باغتته ضربة أخرى، تشبه ضربة بعقب مسدّس. فأفقدته وعيه.

بعد مرور وقت قصير، أشعّ أمامه ضوءٌ ساطعٌ، ضوءُ برقٍ، ضوءٌ مفاجئٌ مثل وميض آلة تصويرٍ فوتوغرافيّة، ضوء نيون بانعكاسات خضراء. وتراءت له ملايين وملايين النّجوم الخضراء. ثمّ انتبه، فجأة، إلى أنّه عارٍ تمامًا، بينما كان جسده ممدَّدٌ على إسفلت الطّريق، ورائحة القطران تملأ منخاريه.

في الوقت نفسه، شعر ببرقٍ أخضرَ يخترق عينيه، وبسكّين يُغرس في أحشائه مثل وميض آخر أخضر اللّون. فأحسّ بألم فظيع، ثمّ اختفى الوجع، وغادر جسدَ ماكس مثل تيّار كهربائيّ، ليتركّز بأكمله في قضيبه بشكل لا يحتمل، لكنّه لم يلبثْ إلّا قليلًا، حتّى انطفأ، فجأة، كما ينطفئ النّور. لقد انتهى كلّ شيء.

* * *

كان أحد المارّة قد أبلغ الشّرطة عن رجل أسود ملقى وسط الطّريق، ويبدو أنّه تعرّض إلى عمليّة ضرب تعسفيّة.

- «بدا لي ميتًا»، قال السّائق. «أرسلوا عربة الموتى بدلًا من سيّارة الإسعاف».

أُرسِلتْ سيّارة الإسعاف وعربة الموتى معا، يرافقهما عدد كبير

من السيّارات المكتظّة برجال الشّرطة المتلاصقين كسمك السّردين المعلَّب.

عثرت الشّرطة، في البداية، على سيّارة المليونير الأسود ماكس أومبيلينت، وهي منقلبة ومحترقة على طريق فرعيَّة.

على بعد مائة متر من السيّارة المحترقة، كان الرّجل الأسود مُلْقًى عاريًا، على وجهه وسط الطّريق، وهو فاقدٌ للوعي. قامت الشّرطة بقيس المسافة بين جسد الأسود وسيّارة السّباق، والتقطوا صورًا للسيّارة المتفحِّمة، ولماكس الملقى على الأسفلت بجسده العاري.

كان الرّجل الأسود مشَّوهًا، ولم تعثر الشّرطة في جسده على أيّ أثر آخر للعنف. إنّه مخصيّ فقط.

ظلّ رجال الشّرطة مشدوهين، ليس من أجل عمليّة الضّرب التعسفيّة، فالتعسّف على رجل أسود يعدّ حادثة تافهة. وإنّما هم مشدوهون لأنّ الرّجل الأسود لم يمت.

- «هذا غير معقول»، قال قائد الشّرطة. «أيبقى حيّا بعد عمليّة بتر كهذه، وفي مثل هذه الظّروف؟».

انحنى قائد الشّرطة على الجسد الأسود.

- «إنّه يتنفّس، هذا غير منطقيٍّ!».

رجل الشّرطة هو شخص لا يؤمن إلّا بالمنطق. في الأزمنة الغابرة، كان المنطق فرعًا من فروع الفلسفة، أمّا اليوم، فقد أصبح فرعا من فروع الشّرطة في البلدان المتحضّرة فعلًا. في المجتمعات

غير المتحضّرة قديمًا، احتكر الفلاسفة المنطق، بينما يحتكره في العالم المتقدّم، اليوم، رجال الشّرطة فقط.

إنّ الشّرطيّ هو الفرد الوحيد الّذي يحقّ له اليوم أن يطبّق المنطق، في المجتمع، بشكل رسميٍّ. ومن لم يكن شرطيّا أو من لا يفكّر مثل رجل شرطة، لا يُعَدُّ شخصًا منطقيًّا. لقد قال ديكارت: «أنا أفكّر، إذًا أنا موجود». ويقول قائد الشّرطة: «أنا شرطيّ، إذا أنا منطقيّ». فلا منطق خارج إطار الشّرطة.

نظر رجال الشّرطة إلى الجسد المشوّه نظرة المُتظلّعين في المنطق. ثمّ قال قائدهم:

- «من المستحيل أن يكون حيًّا حتّى وهو يتنفّس. إنّ عضوه مبتور، وليس بإمكانه العيش بعد عمليّة تشويهٍ كهذه».
- «إنّه لا يتنفّس فحسب، بل إنّ قلبه ينبض أيضا»، قال الطّبيب الشّرطيّ.
- «قلبه ينبض؟»، سأل قائد الشّرطة. «هذا غير معقول يا دكتور».

كان، من بين المحقّقين، شقيق بلانش كنور الّذي بدا مضطربًا بفعل هذا الحادث. لقد قام برفقة شقيقه وصديقيْه بعمليّة تؤدّي منطقيّا - أيْ حتمًا - إلى الموت. وحسب الخطّة الّتي وضعها الأخوان كنور وشريكاهما، يفترض أن يكون الرّجل الأسود قد مات منذ وقت طويل. فلشدّة وثوقهم بالنّتيجة، عدلوا عن توجيه الضّربة القاضية له. ولذلك، يشعر الشّرطيّ كنور، الآن، بندمٍ شديدٍ على تهوّره.

بإمكان شخص على قيد الحياة أن يتكلّم. ورغم أنّه لا أحد يصدّق هراء رجل أسود، إذا ما أفصح عن أسماء الّذين شوَّهوه، فإنّه سيكون من الأفضل أن لا يتكلّم. فلو مات الأسود، لأصبح الأمر بسيطا جدّا. أخذ كنور في تعزية نفسه بتحليل منطقيّ: فهو يعتقد أنّ الأسود سيموت قبل أن يستعيد قدرته على الكلام.

خلال هذا الوقت، كان ماكس أومبيلينت يتنفّس، فغطّى بخار نَفَسِهِ المرايا الّتي وضعها رجال الشّرطة أمام شفتيه البنفسجيّتين. في مجتمعات الغد المتحضّرة، ستتصرّف الشّرطة بطريقة مغايرة. وفي حالة مشابهة، سيطبّقون المنطق والنّظام بإغلاق هذا الفم الأسود الّذي مازال يتنفّس، بطلقة من مسدّس. لكنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، لم تصل بعد إلى هذه الدّرجة من التّحضّر.

تحلَّق رجال الشّرطة حول الرّجل الأسود المشوَّه، وهُمْ ذاهلون.

على الشّرطة في الدّول المتقدّمة والمتحضّرة فعلًا، أن تبتدع طرائق أخرى لقتل رجل أسود. لكنّ وضعيّة ماكس أومبيلينت بليغة. ولا يمكن قتل أسود بطريقة أسهل من هذه.

* * *

في حالات القتل التعسّفي، لا تتوصّل الشّرطة عادة إلى منفّذيها. لكن الأمر مختلف في حالة ماكس أومبيلينت. فالأسود قد أبلغ عن الّذين شوَّهوه بتقديم أسماء المجرمين الثّلاثيّة وعناوينهم. إنّ بلاغات رجل أسود لا يُعتدّ بها عادة، ومع ذلك فقد فُتح، بحث في الغرض. من الواضح أنّ شقيقيْ بلانش كنور قاطِعا طريقٍ، وقد حاولا قتل

الرّجل الأسود كي يستحوذا على المجوهرات والمال والأشياء الثّمينة الّتي أهداها ماكس لشقيقتهما.

أمّا الخطوبة ومشروع الزّواج، فَلَيْسَا سوى مسرحيّة أعدَّها هذان الوغدان. لكنّ التّحقيق لم يهتمّ بقضيّة السّرقة، فعندما يُشوّه رجل أسود من قبل أفراد الكو كلوكس كلان، كما هو الحال الآن، لا تبحث الشّرطة عن أسباب أخرى.

فلون البشرة كافٍ وحده للقتل دون محاكمة. إنّ الحكومة لا تحتاج إلى دوافع أخرى كي تفعل ذلك. ولَوْ وُجد دافع مثل المجوهرات والمال والأشياء الثّمينة، فلن يتمّ الاعتراض عليه في وضعيّة أومبيلينت. لكنّها تبقى مجرّد دوافع ثانويّة. فالشّرطة لا تهتمّ إلّا بالأمور الأساسيّة.

بقي الأخوان كنور ينتظران إعلان وفاة الرّجل الأسود. فلقد حسم الأطبّاء أمرهم: «بعد عمليّة بتر كهذه، لا يمكن للأسود أن يعيش». ولكنّه لمْ يَمُتْ.

عندما بدأ التّحقيق، ذهب ماكس بنفسه إلى قاضي التّحقيق، مرفوقًا بالعديد من المحامين السّود واليهود والكاثوليكيّين (المحامون اليهود والمحامون الكاثوليكيّون هم البيض الوحيدون الّذين يترافعون في مثل تلك القضايا القذرة: الدّفاع عن أسود يتّهم أبيض).

طالب محامو ماكس أومبيلينت بإيقاف المجرمين ومحاكمتهم.

- «إنّها ليست جريمة»، ردَّ محامي الشّرطيّيْن. «فبَتْرُ عضو رجل

أسود، وحرمانه من بضع سنتيمترات من اللّحم ليس جريمة قتل».

- «هذا معقول»، قال القاضي.

لكنّ قاضي التّحقيق رجل أبيض فاسد، والكلّ يعلم ذلك في تلك الولاية من جنوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة. إنّه رجل مديد القامة، نحيل، معتلٌّ، ومهووس برذيلة العدل. وهو ينوي تحويل مرتكبي عمليّة البتر إلى المحكمة، ويؤيّد فكرة عقابهم رغم لون بشرتهم البيضاء. إنّه يؤيّد فكرة أن تحظى الضّحيّة بحكم عادل رغم لون بشرتها السّوداء. ومثل هذا التّفكير، لا يمكن أن يصدر إلّا عن شخص مهووس بتطبيق العدالة. فالعدالة والحقيقة والفضيلة إذا كانت سويَّة، يجب أن تُقدّم بجرعات قليلة. إنّ العدالة والحقيقة تشبهان الخمرة. وفي هذه المدينة الغنيّة، يعاقر الجميع الخمرة، لكنّ الفاسقين والسكّيرين وحدهم، يفرطون في شربها. في هذه المدينة، يحبّ الجميع العدالة والحقيقة والفضيلة، لكن بجرعات قليلة. ووحده قاضي التّحقيق يعشق العدالة، ويطبّقها بكميّات مبالغ فيها. إنّه فاسد، والفاسدون يفرطون في كلّ شيء.

لا أحد يحبّ قاضي التّحقيق، لأنّه فاسد. وفي هذه المدينة، لا أحد يحبّ الفاسدين. فهي مدينة صارمة.

فَقَدَ ماكس أومبيلينت الكثير من وزنه، لكنّه ما يزال عملاقا. إنّه أنيق على الدّوام. وقد مَثَلَ أمام قاضي التّحقيق وهو يرتدي قميصا من الحرير الأبيض وبدلة رماديّة تميل إلى الزّرقة.

- «تعرَّفتُ على شقيقيْ بلانش عندما دخلا مقنّعيْن إلى المطعم»، قال. «ضحكتُ، شاركني الجميع الضّحك، ثمّ واصلتُ الرّقص. إلاّ أنّ ذلك لم يكُنْ مزحة».

استدعت المحكمة صاحب الفندق الّذي أكّد أنّه لا يعرف ماكس أومبيلينت، ولم يره في حياته قطّ. فطلب القاضي منه أن ينظر مليًّا إلى الرّجل الأسود.

حدَّق صاحب الفندق في عينيْ ماكس دون أن يرمش جفناه، وقال:

- «لم أرَ هذا الرّجل في حياتي قطّ. ومن المستحيل أنْ أكون مخطئًا».

- «لقد تناول ماكس أومبيلينت طعامه أكثر من مرّة في فندقكم. حاولْ أن تتذكّر»، قال القاضي.

- «أبدا»، قال صاحب الفندق.

أقسم صاحب الفندق أن يقول الحقيقة، ولا شيء غيرها. كان القاضي يعلم أنّه يكذب، لكنّه لا يملك أدلَّة على ذلك.

فالقضاة لا يحقّقون العدالة انطلاقا ممّا يعرفونه، وإنّما بالاستناد إلى الأدلّة الّتي يملكونها. الله وحده هو العليم، فالقضاة الّذين ليسوا إلّا بشرا لا يعلمون شيئا. وبالتّالي، فإنّ تقديرهم للحقيقة يستوجب توفّر أدلّة.

انصرف صاحب الفندق. فاستدعت المحكمة الطبّاخ الّذي اعتاد إعداد طبق الشّنيتزل لماكس أومبيلينت وبلانش كنور على الطّريقة النّمساويّة.

أدّى الطبّاخ القسم، ثمّ نظر إلى الرّجل الأسود طويلًا بلا تذمُّر، وقال بصوت واضح ورخيم:

- «لم أر هذا الرّجل من قبل».

قال أحد محامي أومبيلينت (المحامي اليهودي أو الكاثوليكي):

- «ربّما نسي الشّاهد. حاولْ أنْ تتذكّرْ، فالضّحية زار المطعم عدّة مرات، مصحوبا على الدّوام ببلانش كنور. وقد طلبا منك إعداد طبق الشّنيتزل على الطّريقة النّمساويّة، ونال إعجابهما الشّديد».

- «كلّ الحرفاء يحبّون الشّنيتزل الّتي أُعدّها»، قال الطبّاخ. «ولكنّني لم أر هذا الرّجل، ولو مرّة، في حياتي».

انصرف الطبّاخ، إذ لا يوجد أيّ دليل على أنّه كاذب. فلو كان يتوفّر دليل واحد على كذبه، لأمر القاضي بإيقافه. ورغم ذلك، فإنّ القاضي يعلم جيّدا أنّ الطبّاخ لا يقول الحقيقة. لكنّ يقينه ذاك لا يفيده في شيء لغياب الأدلّة.

الآن، جاء دور شقيق بلانش كنور الّذي كان يقود سيّارة القتلة، فقال للقاضي بثقة رجل الشّرطة:

- «في ذلك اليوم، كنت أقوم بمناوبتي في مركز الشّرطة، وقد أكّد رئيسي في العمل عبر تقرير كتابيٍّ أنّني لمْ أغادرْ مكان عملي كامل اليوم».

- «هذا يكفي»، قال القاضي. «أَدْخِلوا رئيس قسم الشّرطة».

كان القاضي رجلًا نحيلًا، يُقرأُ الفساد على وجهه ذي العظام

النّاتئة. إنّ سلالة البيض أنجبت عديد الفاسدين مثل هذا القاضي. وفي الواقع، كلّ ما يوجد من تطوّر وعلم وثقافة هو من صنيع هؤلاء الفاسدين، هؤلاء النّاس الّذين أضناهم هوس الحقيقة القاسي. فهُمْ يُفَضِّلون أنْ يُحْرَقوا أحياءً بدلا من الإقرار بأنّ اثنين مع ثلاثة يساوي خمسة. إنّهم على استعداد للتّضحية بحياتهم في سبيل هذا الشّيء التّافه. فالهوس بالحقيقة أمر مرعب.

إنّ الهوس بالحقيقة والعدالة، يُسبّب النّحافة: فقاضي التّحقيق هذا لمْ يبقَ منه إلّا الجلد على العظم. و هذا المرض الّذي يشكو منه، ينهشه مثل سرطان المعدة أو السلّ الرّئويّ. ولذلك، كان وجهه نحيلًا، شبيهًا بوجوه أكبر المهووسين بالحقيقة وبالعدالة.

- «كان الضّابط كنور تحت إمرتي»، قال وكيل الشّرطة. «إنّه لم يغادر مكتبه طيلة اليوم. من المستحيل أن يوجد شخص في مكانيْن مختلفيْن، يبعد أحدهما عن الآخر ثمانين كيلومترًا. كلّ الاتّهامات الموجّهة إليه غامضة. ووَحْدَها هذه الزّمرة، قادرةٌ على تأكيد أمورٍ مثل هذه».

كان يقصد بالزّمرة كلّ المحامين اليهود والكاثوليكيّين والسّود. وهو على حقٍّ. فهؤلاء الأشخاص يرفضون المنطق، والقبول بإفادات الشّرطة على أنّها الحقيقة الخالصة كما يفعل المواطنون المتحضّرون. إنّهم عناصر خطرة.

تفحَّص القاضي سجلَّ الشّرطة.

- «بعد التمعّن في هذا الدّفتر، يبدو جليًّا أنّ الضّابط كنور لم يغادرْ مكتبه أبدًا»، قال القاضي. «أشكرك على شهادتك».

أنْ يكذبَ سِجِلُّ الشّرطة، فهو أمر مستحيل. لأنّه إنجيل الدّولة الحديثة.

الآن، جاء دور أحد أصدقاء الضّابط كنور، أحد المشاركين في عمليّة السّحل التعسّفي. تعرَّف عليه ماكس أومبيلينت، وتذكّر أنّه شاهده يدخل المطعم رفقة الثّلاثة الآخرين.

- «في ذلك اليوم، كنت في قاعة الرّياضة أتمرَّن استعدادًا لإحدى المباريات. فأنا ملاكم محترف، وزميلي في التّدريب يمكنه أن يثبت ذلك».

- «هذا غير ضروريٍّ»، قال القاضي. «لقد أكّد أقوالك المعالجون والمدلِّكون وكلّ العملة في قاعة الجمباز».

لا يستطيع القاضي اتّهام الملاكم بالكذب. فهذا الأخير رياضيّ، والجميع يعلم أنّ الرّياضيَّ إنسانٌ صادقٌ ومستقيمٌ. وفي البلدان المتحضّرة، يُقال: «كُنْ رياضيًّا» والقصد منها «كُنْ صادقًا».

- «نادوا على بلانش كنور»، قال القاضي.

خيَّم الصّمت على فضاء المحكمة. كانت بلانش كنور ترتدي فستانًا ورديًّا، بتوليًّا، وتضع قبَّعة من الحرير الأبيض بحوافَّ واسعةٍ، مُوشَّاة بالورود مثل ثوبها. إنّها فتاة في الرّابعة والعشرين من عمرها، أيْ أصغر من ماكس أومبيلينت بسنتيْن. وهْيَ تمشي مثل بطلة أوبيريت نمساويّة تختالُ فوق خشبة المسرح.

- «أنا لا أذكر أبدا أنّني تحدّثتُ إلى ماكس أومبيلينت»، قالت بلانش كنور. «بلغني أنّ طالبًا يُدعى ماكس أومبيلينت كان

يتردّد على نفس الكليَّة الّتي أدرس بها، ولكنْ لم يسبق أنْ تحدّثت إليه أبدا».

- «لقد تردَّدتِ كثيرًا على منزل عائلة أومبيلينت»، قال القاضي بنبرة رصينة.

- «أنا لا أعرف حتّى موقع المنزل الّذي تتحدّثون عنه»، أجابت بلانش كنور ببراءة. «أنا لست عنصريَّة، ولكن لم تُتَحْ لي الفرصة لدخول منزل رجل أسود على الإطلاق».

- «إنّ السيّدة أفريكا أومبيلينت، والدة الضّحيّة، تؤكّد أنّك زرتها، بانتظام، في منزلها».

- «من المفروض، في هذه الحالة، أنْ يكون الجيران قد شاهدوني أدخل البيت»، قالت بلانش بصوتها الحنون والعذريّ. «فهل شاهدني أَحَدهُمْ، وأنا أدخل هذا البيت أو أخرج منه؟».

- «لم يشهدْ أحد على ذلك»، قال القاضي.

ما من مواطن، في هذه المدينة، يجرؤُ على قول الحقيقة. فمواطنو هذه المدينة -كلّهم تقريبًا- شاهدوها تدخُل إلى منزل عائلة أومبيلينت. ومع ذلك، يلزمون الصّمت، لأنّهم جبناء، ويخشون الاعتراف.

خيّم الصّمت على المحكمة، لكنّ بلانش كنور واصلت الابتسام. كانت شبيهة بالصّبايا العذارى المرسومات على أغطية علب الحلوى.

- «سؤال آخر»، قال القاضي. «هل تتذكّرين أنّك كنت خطيبة ماكس أومبيلينت، وكنتِ ستسافرين إلى أوروبا لإحياء حفل

زفافك هناك؟».

- «هذا مستحيل يا سيّدي القاضي»، قالت بلانش كنور. «كيف يمكن أن أكون خطيبة شخص لم أره في حياتي قطّ؟».

- «أَلَمْ تكوني معه في الفندق ساعة وقوع الجريمة؟»، سأل القاضي.

- «لقد أكّد الشّهود أنّ قدميّ لمْ تطآ الفندق»، قالت بلانش كنور، وابتسامتها الغضّة مثل برعم وردة لا تغادر وجهها.

أخذ وجه القاضي النّحيف ذو العظام النّاتئة يتمدَّد ألًما كوجوه الشّهداء المرسومة على أيقونة بيزنطيّة. كانت نحافته لا تصدَّق، وتزداد بروزًا أمام أعين الحاضرين في قاعة المحكمة. إنّه يفقد بعض الغرامات من وزنه بعد كلّ شهادة زور. وهو أسير الهوس المضني بالعدالة وبالحقيقة.

- «هذا يعني أنّكِ لم تذهبي أبدا إلى ذلك الفندق؟»، سأل القاضي.

- «في ظهيرة ذلك اليوم، حضرت حفلًا مفاجئًا»، قالت بلانش كنور. «كنت رفقة حوالي عشرين صديقة وصديقًا».

- «هذا صحيح»، قال القاضي. «أكّد عشرون من شباب هذه المدينة على أنّك شاركتِهِمْ الرّقص في تلك الظهيرة، ولمْ تغادريهِمْ للحظة، وأنّكم رقصتم حتّى منتصف اللّيل».

ثمّ طرح القاضي سؤالا آخر:

- «هناك قائمة بأسماء بائعي المجوهرات والأحذية ومصمّمي القبّعات والملابس الّذين اقتنى منهم ماكس هدايا لا تُقدَّر

بثمن. ألم تكنْ هذه الهدايا من أجلك؟».

- «لا، يا سيّدي»، أجابت بلانش كنور، وقد أخذ وجهها في الاحمرار، ثمّ أضافت: «من المؤكّد أنّه أهداها إلى زنجيَّة ما».

- «أَلَمْ تقطعا تذاكر الباخرة سويًّا؟»، قال القاضي.

- «لا، مُطلقًا». ردَّت بلانش كنور، «هذا افتراء».

انصرفت بلانش كنور بخطًى متواضعة، وهي تمشي تلك المشية الشبيهة، حقًّا، بالرّسوم على علب الحلوى الذّائبة.

وقع استدعاء مدير وكالة الأسفار الّذي باع لماكس وبلانش كنور تذاكر السّفر إلى أوروبا.

- «حسب ما هو مسجَّلٌ في دفاتر الشّركة، يتبيَّن أنّنا لمْ نبعْ تذاكر سفرٍ نحو أوروبا لهذين الشّخصيْن على الإطلاق. والتّذاكر أمر شخصيّ محض. فلا اسم الآنسة كنور ولا السيّد ماكس أومبيلينت يظهران على قائمة حرفائنا. وعلاوة على ذلك، كلّ التّذاكر نحو أوروبا قد بيعتْ منذ فترة طويلة. فهذا الموسم، هو موسم السّفر إلى أوروبا».

- «هل أنت واثق من أنّك لم تبعْ تذاكر سفر إلى بلانش كنور وماكس أومبيلينت؟»، سأل القاضي.

- «كل الثّقة»، أجاب مدير وكالة الأسفار.

أعلن القاضي غلق التّحقيق. وتمَّ إسقاط الدّعوى عن المتّهمين لعدم توفّر الأدلَّة.

- «قوانين بلادنا رائعة»، قال القاضي. «إنّها توفّر الحماية لكلّ

المواطنين على حدّ سواء، ودون تمييز عرقيٍّ».

لو اتّفق جميع مواطني المدينة على اختراق القانون، لاختُرِق القانون. ولم يعد باستطاعة القاضي فعل أيّ شيء، ولا القانون أيضا. لكأنّه لا وجود لقانون أبدا.

(5)

العزلة السّوداء

بعد غلق التّحقيق في قضيّة ماكس أومبيلينت، غرق سكّان المدينة من السّود في حزن قاتل. ولم يظهر أسود واحد في الشّارع. فقط تحصَّنوا بمنازلهم، والتصقوا ببعضهم البعض، أسود إلى جانب أسود.

كان فندق العائلة الخاصّ مضاءً، إلّا أنّ ستائر النّوافذ أُسدلت جميعها. واجتمع، في المنزل، الأمّ أفريكا وأومبيلينت الأب وماكس، إضافة إلى الأقارب والمعارف والمحامين السّود والرّهبان السّود والوعَّاظ السّود.

- «إنّ الأمر في غاية الخطورة!»، قال أحد المحامين السّود.

فردَّدَ السّود المجتمعون في قاعة الجلوس بصوت واحد:

- «إنّ الأمر خطير!».

كان الخدم السّود يقدّمون عصير اللّيمون ومشروبات أخرى مختلفة إلى الضّيوف على أطباق من الفضّة، لكن لم يلمسها أحد. ظلّت الكؤوس ملآى على الأطباق الفضّية، بينما اكتفى السّود بترديد جملة واحدة: «إنّ هذا خطير!».

لقد شارك السّود إلى جانب البيض في الحرب العالميّة الثّانية.

وتلقَّوا وعودا بالمساواة في الحقوق مع البيض. وقع الوفاء بالعهود، والقوانين موجودة، لكن لا قيمة تُذكر للشَّرعيّة إذا كانت فقط حبرا على ورق.

لقد تعرَّض ماكس أومبيلينت إلى الضّرب التّعسّفي، وشُوِّه بشكل بغيض. ومع ذلك، فقد أكّد جميع الشّهود بأنّ ذلك لم يحصلْ. وحُفظ التّحقيق لغياب الأدلَّة.

فتح الرّجل الأسود زجاجة من الرّوم، وشرب منها مباشرة. إنّها أوّل قنِّينة روم في حياته. شربها كلّها. كان يشرب لينسى أين هو، مثل رجل أسدل مصاريع النّوافذ حتّى لا يعرف ما إذا كان الصّباح مشرقًا أمْ هو اللّيل يخيّم في الخارج، كي لا يعلم بما يحدث هناك، وليقطع جسور التّواصل مع العالم الخارجيّ. شرب ماكس كمن يقطع خطّ الهاتف حتّى لا يسمع أيّ صوت قادم من مكان بعيد. إنّه، الآن، وحيد. وكلّ بيض المدينة يقفون ضدّه. فقد تعرَّض لحكم جائر، واستُبعد ظلما لأنّ لون بشرته أسود.

لا أحد من أسلاف ماكس أومبيلينت، ولا من أشقّائه ذوي البشرة السّوداء، ولا من مئات الملايين من السّود الّذين ما يزالون على قيد الحياة الآن، لا أحد منهم وجد الحلّ للحدّ من ظاهرة الإقصاء خارج المدينة والنّفي المتجسّد في الظّلم والعزلة والاحتقار. هذا المنفى، هو أسوأ شيء في الوجود. فقط عليك أن تكون رجلا أسود، كي تعرفه.

ناضل السّود من أجل الحصول على قوانين لصالحهم. وهذه القوانين موجودة فعلًا، لكنّها لا تنفعهم في شيء، شأنها شأن النّوايا الحسنة ومجهودات القضاة الّذين ينهشهم الهوس بالعدالة. تُظهر

وضعيّة أومبيلينت، مرّة أخرى، أنّ القوانين بإمكانها أن تكون ممتازة (وقوانين الولايات المتّحدة ممتازة بطبعها)، لكن يظلّ السّود منعزلين ومنفيّين خارج العالم وخارج العدالة. ولا ذنب لهم سوى لون بشرتهم.

فالفتاة الشّقراء الّتي أحبّها ماكس وقبّلها وغمرها بالهدايا، قالت: «لمْ أر هذا الرّجل في حياتي» بسبب بشرته، وأقسم صاحب الفندق أنّه لم ير ماكس على الإطلاق. وهذا أيضا، لأنّ بشرة ماكس بلون فحم الأنتراسيت.

لكن للسّود قدرة عجيبة على الصّبر، وعندهم مناعة ضدّ الوجع.

في الحجرة الملاصقة للصّالون، يوجد جهاز راديو ينبعث منه صوت يخنقه التأثّر، وصل صداه إلى الصّالون. إنّه صوت مذيع يصرخ من أعماق رئتيه أنّ ماكس على حقّ.

وقفت الأمّ أفريكا، وأدارت زرّ الجهاز لترفع صوت المذياع.

- «إنّها لمعجزة!»، قالت الأمّ أفريكا. «كنت على يقين من أنّ في السّماء إلها يحبّ جميع النّاس، حتّى ولوْ كانوا سودًا. إنّها لمعجزة!».

رفض سكّان المدينة أن يعترفوا بأنّ ماكس أومبيلينت على حقّ، ولكن ها هو صوت يرتفع، الآن، عبر الرّاديو كي يؤكّد أنّه فعلًا على حقّ.

أدير زرّ المذياع حتّى أقصاه، فتسمَّر الخدم السّود والأثرياء السّود والقساوسة السّود والمحامون السّود في أمكنتهم.

كانت الشّفاه الّتي ما فتئت تردّد، طيلة سهرة كاملة، جملة واحدة: «إنّ هذا خطير»، تصرخ الآن في صوت واحد:

- «يا لَلمعجزة!».

- «إنّ ماكس أومبيلينت على حقّ»، صرخ الصّوت المنبعث من المذياع. «كلّنا مع ماكس أومبيلينت!».

وقف السّود، وتوجّهوا نحو الجهاز، ثمّ تحلَّقوا حوله. كانوا يرغبون في أن يجثوا أمامه ويقبّلوا قدميْ السّيد الّذي اعترف بأنّ ماكس أومبيلينت على حقّ.

أجهشت الأمّ أفريكا بالبكاء، وهي تركع أمام جهاز الرّاديو. ثمّ خلعت عقد اللؤلؤ من حول رقبتها، وكذلك الأقراط والخواتم الماسيّة، وقدّمتها - وهي جاثية على ركبتيها - إلى الرّجل الّذي يدافع عن ابنها في الرّاديو، وهي تردّد:

- «يا لَلمعجزة!».

ردَّد السّود المتحلِّقون حولها: «يا لَلمعجزة!». كما حَذَتْ الزّنجيّات الثّريّات حذو الأمّ أفريكا، وخلعن مجوهراتهنّ لإهدائها إلى الرّجل الّذي أعلن الحقيقة في وقت حرج للغاية، في وقت لا أحد يريد أنْ يعترف فيه بالحقيقة.

مدّ الرّجال أياديهم إلى جيوبهم. لقد كانوا يرغبون في تسليم محفظاتهم ودفاتر شيكاتهم إلى الرّجل الّذي قال الحقيقة.

واصل الصّوت المنبعث من المذياع حديثه. فلاذ السّود بالصّمت، وأنصتوا ممسكين بأيدي بعضهم البعض.

قال الصّوت إنّ الشّهود البيض كذبوا، وإنّ المجرمين طلقاء لأنّهم ينتمون إلى رجال الشّرطة. كما قال أيضًا إنّ ماكس أومبيلينت ضحيَّة، وإنّ كلّ السّود ليسوا سوى ضحايا.

- «يجب أنْ يتغيّر هذا الوضع»، صاح الصّوت المدافع عن السّود. «يجب أنْ يحصل كلّ رجل أسود على نصيبه من العدل. إنّ السّود بشر، ويجب أن ندافع كلّنا عنهم! معا دفاعًا عن أومبيلينت!».

استمع جميع السّود الحاضرين في الصّالون إلى هذا الصّوت، وقد أجهشوا بالبكاء.

- «يجب أن تنتهي مأساة السّود»، قال الصّوت المنبعث من المذياع. «يجب أنْ لا تتكرّر الجريمة الّتي اُرتُكِبَتْ ضدّ ماكس أومبيلينت. فلَمْ يعدْ السّود وحدهم بعد اليوم. إنّ موسكو معهم».

أصبح الصّوت ثابتًا وصافيًا:

- «هنا صوت موسكو، يا إخوتي السّود في كلّ مكان على وجه الأرض، أنتم تستمعون إلى صوت موسكو!».

إنّ عائلة ماكس أومبيلينت عائلة ثريَّة. وكلّ السّود الموجودين في هذا الصّالون همْ أصحاب ملايين، عدا القساوسة والمحامين والخدم. لكنّهم يعلمون أنّ موسكو تقول الحقيقة، وأجهشوا بالبكاء.

منذ آلاف السّنين، لم يجرؤ أحد على قول الحقيقة. فالنّاس لا يعترفون بها إلّا داخل الكنيسة، وفي بعض الأحيان فقط، لكنّ موسكو تجرّأت على فعل ذلك. بكى السّود فرحًا لأنّهم لم يعودوا

وحدهم. فموسكو تدعوهم إلى الخروج من سراديب التّاريخ والمجتمع، وإلى أن يهجروا أنفاق العزلة وظلمات المنفى.

في اللّحظة الّتي لم ينطق فيها السّود إلّا بكلمة واحدة: «هذا أمر خطير»، وفي السّاعة الّتي وقف فيها كلّ سكّان المدينة وكلّ الصّحف ضدّ ماكس أومبيلينت، وحدها موسكو صدحت بالحقيقة. لمْ تقفْ بلدان الموروث الثّقافي الأوروبّي القديم في صفّ ماكس أومبيلينت، ولا في صفّ السّود، لأنّها بلدان فقيرة. فهي تتسوّل الدّولارات من الأمريكان، ولا تستطيع التّضحية بهذه الدّولارات من أجل الدّفاع عن السّود. ولا يوجد، الآن، سوى صوت واحد يدافع عنهم: إنّه صوت موسكو.

لكن هذا ليس كلّ شيء.

فخلال ليلة بأكملها، دافعت موسكو عن ماكس أومبيلينت بكلّ اللّغات، وعلى جميع التّردّدات.

لليلة كاملة، ظلّت المئات والمئات من محطّات الإرسال تُرافع في قضيّة ماكس أومبيلينت العادلة، حتّى تنفذ الحقيقة إلى كلّ الآذان، وتخترق ذبذبات العدالة الحجر والأرض والجدران ولحاء الأشجار وأسفلت الأرصفة. أُذيعت الحقيقة في كلّ مكان حتّى تعلق بآذان من كانوا في البحر أو في الجوّ، ومن يوجدون في منازلهم، ومن يوجدون في الحانات والجبال والسّهول.

- «لقد حان وقت التّغيير. إنّ ماكس أومبيلينت على حقّ، ويجب أن يحصل السّود على نصيبهم من العدل والاحترام، لأنّهم بشر مثلهم مثل البيض».

في هذه الأثناء، غادر السّود منازلهم، وتجمَّعوا في الشّوارع في مجموعات متفرّقة. فقد زال الشّعور بأنّهم منبوذون من المجتمع. وفي شوارع هذا المنتجع الغنيّ، تكوّنت مواكب السّود، واتّجهت نحو الكنائس والمعابد.

نزل جميع سود المدينة إلى الشّوارع وتجمَّعوا في الكنائس، تجمّعوا كلّهم بأثريائهم وفقرائهم، بأصحاب الملايين وبالشحَّاذين، جنبا إلى جنب، واندفعوا نحو الكنيسة ليخرّوا راكعين.

صلّى السّود للسيّدة العذراء وليسوع من أجل النّصر وسعادة موسكو.

أمّا ماكس أومبيلينت، فقد كان ثملًا. ومع ذلك، خرج إلى الشّارع، وتبع الموكب حتّى وصل إلى الكنيسة. ثمّ جثا المليونير على ركبتيه، يصلّي للسيّدة العذراء ولولدها يسوع من أجل نصر موسكو، رغم أنّه يدرك جيّدا أنّ موسكو تقتل أصحاب الملايين.

- «أنا رجل أسود قبل أنْ أكون مليونيرًا»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه. «والسّود عرق كادح، حتّى وإنْ كانوا أصحاب ملايين».

لقد صلّى الرّجل الأسود إذنْ من أجل نصر أولئك الّذين يقتلون أصحاب الملايين.

وفي اليوم التّالي، أرسل برقيّة شكر إلى موسكو.

(6)

رجل أسود في موسكو

مرّ أسبوعان منذ كتابة ماكس أومبيلينت رسالة الشّكر إلى موسكو.

ووصله الردّ أخيرا. إنّه مدعوّ إلى موسكو، إلى البلد الّذي يتساوى فيه البيض والسّود أمام العدالة.

- «لا تذهب، يا ماكس»، قالت الأمّ أفريكا متوسّلة. «أنا واثقة بأنّ ذهابك إلى هناك ليس في صالحك».

- «هل هناك أسوأ ممّا تعرضّت إليه؟».

كان ماكس ثملا. فمنذ نهاية التّحقيق، وهو يشرب بلا هوادة. ومنذ تعرّضه إلى عمليّة التّشويه، قلَّ حديثه وأصبح فظًّا.

- «ابق في وطنك»، تضرَّعت الأمّ أفريكا. «ابق بيننا».

- «وطني؟»، تساءل ماكس أومبيلينت. «عن أيّ وطن تتحدّثين؟ أين يوجد وطن السّود؟».

- «أمريكا هي وطننا»، قالت الأمّ أفريكا. «في البداية، كانت نسبة السّود في الولايات المتّحدة لا تتعدّى الواحد بالمائة».

- «سيِّد أبيض ومائة عبد أَسْود!»، قال ماكس.

- «هذا صحيح»، أجابت الأمّ أفريكا. «كان يوجد أبيض واحد ومائة أسود. أمريكا هي وطننا».

لكنّ ماكس لمْ يعدْ يصغي إليها.

حضر كلّ السّود في يوم رحيله. ليس أولئك القاطنون بالمدينة فقط، وإنّما سود كامل المنطقة.

كان كلّ أسود يشعر بأنّه هو الّذي يغادر إلى موسكو، لأنّ رجلا أسود مثله سيذهب إلى هناك. فهُمْ يؤمنون بأنّه إذا حجّ فرد من معتنقي أيّ طائفة دينيّة إلى أورشليم، فإنّ كلّ المؤمنين الّذين لمْ يرافقوه سيُخيّل إليهم أنّهم جاثون إلى جانب هذا الحاجّ في الأماكن المقدّسة.

قدم السّفير السّوفياتي لتوديع ماكس. أوقف سيّارة اللّيموزين السّوداء أمام منزل عائلة أومبيلينت، وانتظر ماكس الّذي نزل الدّرج مترنّحا، ثمّ ركب السيّارة إلى جانب السّفير. كان الأسود جالسا إلى يمين السّفير. وخلف اللّيموزين، تكوَّن موكب من المئات والمئات من السيّارات الّتي يستقلّها سود. رافق السّود ماكس حتّى المطار، وحظي السّفير الرّوسي بهتافات مثل تلك الّتي كان سيُغمر بها المسيح لو عاد إلى الأرض.

اقتربت نسوة سود من اللّيموزين حيث يجلس ماكس والسّفير. وبحركات ورعة لامسن بأطراف أصابعهنّ ملابس السّفير، كما لو كان قدّيسًا صاحب معجزات.

كانت الطّائرة الّتي تزيّنها نجمة حمراء، تنتظر على مهبط الطّائرات. وسرت موجة جنون في حشد السّود مثل تيّار كهربائيٍّ.

فطفقوا يغنّون، وهُمْ يتمايلون على ألحان التّراتيل والمزامير الدّينيّة.

أقلعت الطّائرة.

لم يعدْ السّود يفكّرون إلاّ في السيّدة مريم العذراء، وهم يتطلّعون إلى السّماء. إنّهم لا يفكّرون في ماكس ولا في الطّائرة، بل في يسوع.

ارتفعتْ الطّائرة ذات النّجمة الحمراء في السّماء.

اتّخذ ماكس أومبيلينت مكانه في داخلها. وكان قد اقتنى، قبْلَها بيومٍ، جرابًا صغيرًا من الجلد كي يضع فيه قنّينة الرّوم الممتلئة. هذا الجراب الّذي يتدلَّى على صدره، كما تتدلّى آلات التّصوير على صدور السيّاح.

صار ماكس يشرب كمن يقطع أسلاك هاتفه. فهو لم يعدْ يرغب في أنْ يظلَّ صاحيًا، ولم يعدْ ينتظر سماع أيّ خبر عن العالم الخارجيّ. إنّ السُّكْر هو وسيلته في قطع الصّلة بهذا العالم نهائيًا.

* * *

عندما وصل ماكس أومبيلينت إلى موسكو، استقبلوه بالزّهور والأعلام. وحضرت في المطار وفود من العمّال وتلاميذ المدارس، وهُمْ يحملون لافتات. كان حشدًا غفيرًا يتألّف أغلبه من الشّباب الذّين تنقّلوا جميعهم: لاستقبال الرّجل الأسود، للاحتفاء بماكس، للتّرحيب بماكس، للتّرحيب به في موسكو، ليصفّقوا له، له هو، الشّهيد الأسود، ضحيَّة البورجوازيّين والرّأسماليّين.

قرأ ماكس أومبيلينت لافتة كتبت بالإنجليزيّة.

- «هذا غير صحيح»، قال الرّجل الأسود. «أنا لست ضحيّة

الرّأسماليّة، بل أنا هو الرّأسمالي. أنا هو المليونير، وليس أولئك الّذين اعتدوا عليّ، سوى أفراد من الشّرطة ينتمون إلى الطّبقة الوسطى. يجب أن يُكتَبَ على اللّافتة: «مليونير عذّبه أفراد من صغار الموظّفين».

- «تحيَّة لرفيقنا البروليتاري!».

اعترض ماكس. فَلَمْ يَسْبِقْ لفرد من عائلة أومبيلينت الأثرياء أنْ نُودِيَ «بالبروليتاري».

- «لست بروليتاريّا»، قال ماكس.

- «إنّ كلّ أسود هو بروليتاريّ بالضّرورة»، قال المترجم.

- «هذا صحيح»، قال ماكس. «لا بُدّ من توسيع مفهوم البروليتاري: نحن أصحاب الملايين نُعَدُّ من البروليتاريا أيضا، في حال كنّا سودًا. في صحّتك».

تناول ماكس أومبيلينت الرّوم مباشرة من الزّجاجة المتدلِّية على صدره. إنّه مسرور لاقتنائه هذا الجراب. فهو سيحتاج إلى الشّرب باستمرار.

أُقيم حفل استقبال على شرف ماكس، نظَّمته الشرطة. وقدم تلاميذ المدارس إلى المطار حسب التّرتيب. وكتبت الصّحف عن قضيّة أومبيلينت.

في موسكو، الجميع يعرف ماكس. فهرع النّاس إلى المطار، لأنّه لم يسبق لهم أنْ شاهدوا أسود عن قرب.

- «لِمَ يبكي هؤلاء الأطفال؟»، سأل ماكس أومبيلينت المترجِمَ.

كان مارًّا من بين صفّيْن لتلميذاتٍ صغيراتٍ يحملن لافتاتٍ وباقاتِ زهورٍ لأجله. وبعض الفتيات كنَّ يَبكين، وهنَّ محدِّقات في الأرض.

- «إنّهنَّ يبكين بسبب معاناة السّود»، قال المترجم.

لكنّ أطفال موسكو لا يبكون بسبب وضعيّة السّود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ولا لأنّ ماكس أومبيلينت قد شوّهته عصابة «الكو كلوكس كلان». فأطفال موسكو يسمعون يوميًّا عن التّعذيب والمجازر وعمليّات التّشويه الوحشيّة. إنّهم يذرفون دموعًا غزيرةً، لأنّ ماكس أومبيلينت أسود. وحتّى الجنود الّذين جرفتهُمْ دوّامة التّعاطف تلك، اغرورقت عيونهم بالدّموع عندما شاهدوا ماكس عن قرب. كلّ الحاضرين في المطار متضامنون مع الرّجل الأسود. إنّهم يشفقون عليه فقط لأنّ بشرته شديدة السّواد، شديدة السّواد إلى حدّ كبير.

فالجمال، في روسيا، مرادف للبياض. أن تكون جميلًا يعني أن تكون وجنتاك بيضاويْن. ونساء موسكو لا يستعملن إلّا البودرة البيضاء، إذْ كلّما زاد بياض الوجه ازدادت المرأة جمالًا. وأن تكون أسودَ، فهذا يعني أنّك قبيح. فلون البشرة السّوداء ليس سوى رديف للقبح.

بكى سكّان موسكو شفقة على ماكس أومبيلينت القبيح الشّكل، أي الشّديد السّواد. وتحوّلت شفقتهم إلى تعاطف معه.

ومن أوّل وهلة، أصبح الرّجل الأسود محبوبًا تمامًا، كما يحبّ المرء من لمْ يحالفهم الحظّ في الحياة، أولئك الّذين فقدوا أنوفهم أو سيقانهم أو أعينهم. وقد كان هو بشعًا.

عبّر غرباء عن محبّتهم الصّادقة والدّافئة له وعن تضامنهم معه، تضامنهم الإنسانيّ الرّائع مع منْ لمْ تنصفه الطّبيعة.

لم يتخيّل ماكس، أبدًا، أنّ البيض قادرون على حبّ رجل أسود إلى هذا الحدّ. ويحبّونه فقط لأنّه أسود. في موسكو، كلّ شيء مخالف لما يحدث في مكان آخر. في موسكو، يُخيَّل إليك أنّك على كوكب آخر.

تتمثّل مأساة ماكس أومبيلينت في أنّه وُلد أسود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. فلوْ نشأ في بلد آخر لَمَا خُصِيَ. لكنّ الأمريكان لا يطيقون اللّون الأسود، كما لا تحتمل الثّيران اللّون الأحمر.

في موسكو، يختلف الأمر، فتصبح بشرة ماكس أومبيلينت السّوداء باعثة على الحبّ. كان سكّان موسكو يستوقفونه في الشّارع قائلين:

- «نحن نتعاطف معك بشدّة».

- «لكنّكم لا تعرفونني»، يقول ماكس.

- «نحن نحبّك لأنّ لون بشرتك أسود»، ردّ الرّوسي.

وهو لا يكذب. إنّه إحساس غريب بالنّسبة إلى رجل أسود من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أنْ يسمع رجلا أبيض ينطق بمثل هذه الكلمات. ففي موسكو، لا يثير اللّون الأسود الرّغبة في الجريمة عند الأبيض.

يشارك سكّان موسكو ماكس أومبيلينت نفس مائدة الطّعام، وينامون معه في نفس الفندق. إنّهم لا يستيقظون، ليلًا، تنهشهم الرّغبة في قتل الرّجل الأسود. كان ماكس يُعامل بالودّ الّذي نُوليه للأطفال المعوقين.

لو كان ماكس يملك أربعة آذان أو فميْن، لتمتَّع بالمعاملة الوديّة ذاتها، لأنّ صفة السّواد هي شقاءٌ يتقاسمه مع من خلق بأربع آذان أو فميْن.

ومع ذلك، فإنّ حياة الرّجل الأسود، في موسكو، قد تعقَّدت لأسباب أخرى ذات طابع سياسيٍّ. كان ماكس يشعر بمودّة خاصّة للشّيوعيّين، ولكن رغم ذلك أصبح يشكّل قلقا بالنّسبة إلى الشّرطة.

كلّما خرج ماكس للتّنزه في الشّارع، يستوقفه رجال ونساء غرباء ليعبِّروا له عن تعاطفهم إزاء السّود، فيشكرهم ماكس. إنّه يتحاور مع البيض في موسكو، فالرّوس يطرحون أسئلة بلطف ليجيب عنها ماكس باللّطف ذاته. ولكن هذه المحادثات أصبحت خطرة.

سأل الرّوس ماكس:

- «الظّلم الّذي يعاني منه السّود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة فظيع. أليس كذلك؟».

- «أجل. إنّه فظيع»، أجاب ماكس.

- «نحن السّوفيات شعب متحضِّر. نحن نحبّ السّود، ولسنا عنصريّين. وستشعر بالارتياح بيننا».

شكرهم ماكس أومبيلينت، واستمع إلى السّؤال الموالي، وهو سؤال يمكن طرحه بين الأصدقاء:

- «هل راتب السّود أقلّ بكثير من راتب البيض في الولايات المتّحدة الأمريكيّة؟».

- «هو أدنى بكثير»، أجاب ماكس. «وتسند إلى السّود أعمال

مقزّزة، بأجور منخفضة، أعمال يأنف أيّ أبيض من القيام بها».

اغتاظ الرّوس بسبب الأمريكان الّذين يكلّفون السّود بتنظيف المراحيض والبالوعات.

- «ما هو الأجر الّذي كنت تتقاضاه في الولايات المتّحدة الأمريكيّة؟»، سأل أحد الرّوس.

- «شخصيّا، كان أجري مرتفعًا».

- «كم كنت تتقاضى يوميًّا؟»، ألحّ الرّوسي.

إنّ الرّوسيّ يرغب في معرفة كلّ شيء عن هذا الرّجل الأسود الّذي كان يشعر بالمودّة نحوه. فطرح السّؤال بطريقة أكثر واقعيّة:

- «كم فردة حذاء بإمكانك شراؤها بأجرة سنة كاملة؟».

- «إنّ وضعيّتي استثنائيّة نوعًا ما»، قال ماكس أومبيلينت. «باستطاعتي اقتناء قطارات بأكملها من الأحذية، كلّ شهر، بالمال الّذي أجنيه. فأنا سليل عائلة ثريّة جدًّا».

- «أَليستْ عائلتك من السّود؟»، تساءل الرّوسيّ. «أليس والداك أسودَيْن؟».

- «بلى، إنّ أمّي وأبي أسودان»، أجاب ماكس.

- «هل هذا يعني أنّ هناك سودًا أصحاب ملايين بالولايات المتّحدة الأمريكيّة؟».

- «أجل. أنا، مثلا، مليونير أسود».

- «وماذا عن الشّرطة. ألا تصادر ملايينك؟ ألا تصادر الشّرطة ملايين السّود؟».

- «كلّا. فالشّرطة لا تصادر ملايين السّود».

- «هل هذا يعني أنّ السّود ليسوا مضطهدين في الولايات المتّحدة الأمريكيّة؟»، تساءل الرّوسي.

أصبحتْ المحادثات خَطِرَةً بوصولها إلى هذا الحدّ. فماكس أومبيلينت يحبّ الرّوس، والرّوس يحبّونه. ومع ذلك، لا يمكن لأحدهما أن يفهم الآخر. فالرّوسيّ لا يستطيع أن يفهم أنّ شخصًا بإمكانه أن يكون مليونيرا ومضطهدا في الوقت نفسه. في حال كان مضطهدًا، تبدأ الدّولة في مصادرة أمواله ومنزله وأثاثه وملابسه. هذا ما يحدث في روسيا. فمصادرة الأملاك هي أوّل دليل على الاضطهاد والاعتقال، أمّا المؤشّر الثّاني فهو النّفي في سيبيريا أو منشوريا أو جبال الأورال. وإذا بلغ الاضطهاد أقصاه يُقتل الشخص رميا بالرّصاص. في غياب هذه المؤشّرات الثّلاثة: مصادرة الأموال والاعتقال وطبعا الموت لا يمكن الحديث عن الاضطهاد. فلا يستطيع الرّوسيّ تخيّل أنّ باستطاعة شخص أنْ يتعرَّض للاضطهاد دون أن يُعتقل.

- «هل يُمنع عليكم الإقامة بالفنادق؟»، سأل الرّوسي. «لو فرضنا أنّ رجلًا أسود وصل ليلًا إلى مدينة ما، فهل هو مضطرّ إلى النّوم في الشّارع حتّى لوْ كان الفصل شتاءً قارسًا؟».

(يمنع على السّود النّزول بفنادق البيض: هذا ما تقوله الموسوعة السّوفياتيّة).

- «نعم هذا صحيح»، أجاب ماكس أومبيلينت. «يُحجَّر على السّود الدّخول إلى فنادق البيض، وهذا مهين جدًّا، ولكن تُوجد فنادق مخصَّصة للسّود».

- «مؤكّد أنّ فنادق السّود بائسة، تفتقد إلى النّوافذ والتّدفئة والنّور. أليس كذلك؟».

- «توجد أنواع متعدّدة من الفنادق الخاصّة بالسّود»، قال ماكس أومبيلينت. «منها المقرفة، ولكن هناك فنادق فخمة لا تقلّ جمالا عن أجمل فندق من فنادق البيض».

إنّ الرّوس لا يفهمون ذلك. بما أنّ السّود يمتلكون فنادق فاخرة، فهذا يعني أنّهم غير مضطَهدين.

- «الأطفال السّود مجبرون على أنْ يظلوا أُمِيِّينَ، بما أنّه ليس من حقّهم الذّهاب إلى المدرسة»، قال الرّوسي.

- «هناك مدارس مخصّصة للسود». قال ماكس أومبيلينت. «مدارس مخصّصة لكلّ المستويات التّعليميّة. وأنا نفسي درست في هذه المدارس».

- «لكنّ القوانين في الولايات المتّحدة الأمريكيّة تضطهد السّود؟ وهو اضطهاد دمويّ. أليس كذلك؟»، قال الرّوسي.

-«القوانين الأمريكيّة تفرض المساواة بين البيض والسّود»، أجاب الرّجل الأسود. «القوانين الأمريكيّة لا تضطهد السّود. فالبيض هم من يفرضون قواعد التّفرقة العنصريّة، ويضطهدون السّود. إنّها ليست القوانين الّتي تسلّط الظّلم، بل النّاس».

سكت الرّوس، فليس بمقدورهم أنْ يستوعبوا إمكانيّة خرق مواطنٍ للقانون. وحين يقرّر القانون والشّرطة ماهيّة شيء ما، فإنّه

يكون كذلك. لا أحد باستطاعته أنْ يخالف إرادة الشّرطة. فكلّ ما يحصل في روسيا، هو ما تريده الشّرطة. وأن يكون باستطاعة مواطنين التّفكير أو فعل أمر آخر غير الّذي تُقِرُّه الشّرطة، فهذا أمر لا يُمكن تصوّره. وهذه الأشياء الغريبة الّتي يتحدّث عنها ماكس أومبيلينت، لا يمكن أن يتخيَّلها أيّ روسيٍّ. كما يتحدَّث الرّوس، في المقابل، عن أشياء لا يمكن أنْ يتصوَّرها أمريكيٌّ. هم يرغبون بشدّة في أنْ يفهم أحدهما الآخر، لكنّ هذا مستحيل. فالشّيء الوحيد الّذي يمكنهم القيام به هو الافتراق والصمت.

انفصل ماكس أومبيلينت عن مجموعة البيض الّذين أصبحوا ينظرون إليه بشيء من الرّيبة. وعبر الشّارع وحيدا من جديد. ثمّ طفق يشرب، بينما الجراب الجلديّ معلّق في عنقه مثل آلة تصوير فوتوغرافيّة. فمنذ اللّحظة الّتي قطع فيها ماكس صلته بسكّان موسكو، لم يعدْ يُجدي نفعًا أنْ يظلّ صاحيًا. لذلك، أصبح يشرب دون هوادة.

* * *

- «ربّما هو قدر السّود أنْ يظلّوا وحيدين»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه، وهو يداعب الجراب الجلديّ الّذي يحوي قنّينة الرّوم. لقد كان وحيدًا، حقًّا.

لكن بعيدا عن هذه الوحدة، هناك شيء آخر يزعجه: وهو بتر عضوه الذّكريِّ. لا يتعلَّق الأمر بالنّدبة، فالجرح التأم ولم يعدْ يؤلمه. لكنّ ما يقضّ مضجعه هو أمر آخر أخطر. فبعد أنْ بُترت قطعة اللّحم تلك، غرق ماكس أومبيلينت في الحزن على الفور.

بإمكان الإنسان أنْ يعيش برئة واحدة أو بكلية واحدة أو بعين واحدة أو حتّى دون عينيْن، لكنّ البتر الّذي تعرّض إليه ماكس أومبيلينت يخلّف ألمًا في الرّوح. فقد حُرم، في الوقت نفسه، من أحلامه ومن حماسه ومن تعطّشه إلى الحياة ومن نزواته.

كلّ هذه الإثارة الّتي نسمّيها «الحياة»، تستقي جذورها من هذا العضو الحيويّ.

- «القتلة»، قال ماكس أومبيلينت. «كان الأجدر بهم قتلي».

أضحتْ حياة ماكس رماديّة، وعجز الأطبّاء عن مساعدته. يُوجد، في موسكو، عديد الأطبّاء الكبار، وقد فحصوه جميعهم. وهؤلاء يمكنهم أنْ يوفّروا عيونًا بديلةً وأقدامًا بديلةً، لكن ما فقده ماكس لا يمكن أنْ يُعوَّض.

واصلَ ماكس احتساء الرّوم بمعدّل لتر يوميًّا. كان يشرب كما لو أنّه يغلق مصاريع نوافذ منزله، كي يبقى وحيدًا في العتمة.

(7)
دائرة شؤون السود

تفاقمت وحدة ماكس أومبيلينت وتعاسته، يوما بعد يوم. وأصبحت موسكو، أيضًا، مكانًا موجعًا بالنّسبة إليه.

- «أنت تعيس لأنّك لا تفعل شيئا»، قال مدير شؤون السّود في موسكو. «لِمَ لا تبحث عن وظيفة؟».

- «لست في حاجة إلى المال»، ردَّ ماكس أومبيلينت. «فلماذا أعمل؟».

- «أنت أسود، ولابدّ أن تعمل»، قال المدير. «وفرة المال لا تكفي لتستمتع بالحياة. ها أنت تملك الملايين، لكنّك لمْ تستطعْ العيش، وتعرّضت إلى محاولة القتل التّعسفيّ والإخصاء. فعلاوة على المال، يحتاج السّود أيضًا إلى الحريّة والمساواة. وملايين الدّولارات لا تُعتق السّود من قانون لانش، ولا من الإهانات أو الإخصاء».

- «هذا صحيح»، قال ماكس أومبيلينت. «لكنّني لست قادرًا على تغيير العالم، كما لست قادرًا على جعل البيض يحبّون السّود، ولا أستطيع أنْ أجبرهُمْ على تناول الطّعام على مائدة واحدة مع السّود دون أنْ يشعروا بالغثيان، ولا أنْ يستقبلوا

السّود في فنادقهم دون أنْ يُصابوا بالأرق، ودون أنْ تنتابهم حمَّى القتل. لا يسعني فعل أيّ شيء. فلست إلّا رجلًا أسود، أسود وحيدًا، مخصيًّا ومدمن كحول».

- «توقَّفْ عن العيش وحيدًا»، قال مدير دائرة شؤون السّود. «فرجل وحيد هو رجل مهزومٌ سلَفًا، ويجب على السّود أنْ يُدمِّروا الوحدة وإلّا فإنّهم سيَضيعون إلى الأبد».
- «إنّ الوحدة هي قدر السّود»، قال ماكس أومبيلينت. «فكيف باستطاعتي أنْ أدمِّر وحدتي».
- «يجب أنْ تلتزم بالعمل. توجد دائرة خاصّة بشؤون السّود، ستتبنّاك وستوظّفك، ثمّ سيقع إدماجك».

تساءل ماكس عن الأعمال الّتي يُمكن للسّوفيات عرضها على رجل أسود.

لو طلب ماكس أومبيلينت الحصول على وظيفة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، لعُرِض عليه عمل مضنٍ ومهين، عمل سيرفض رجل أبيض أنْ يقوم به. لكن قد يختلف الأمر في موسكو. فمن يدري.

- «دائرة شؤون السّود في حاجة إلى وكلاء»، قال المدير. «لقد بدأت التّحضيرات لتحرير السّود. ويجب أنْ تعمل. فالتّقاعس بهذا الشّكل أمر مشين. وإنّ رجلًا وحيدًا، هو رجل مختلُّ الشّعور. فلا يمكن أن نعيش حياة طبيعيّة إلّا داخل مجموعة».

رغب ماكس في الضّحك. تحرير العرق الأسود؟ لو أنّ أحدا في

أمريكا نطق بمثل هذا الكلام، لأصبح مدعاةً للسّخرية. لكنّ الأمر مختلف في موسكو. فالسّود يعملون، لساعات محدَّدة، في المكاتب وورشات البناء كي ينفّذوا مخطّطات تُعتبر من اختصاص المعتوهين ومؤلّفي الرّوايات في العالم الحرّ.

- «لقد قمنا مؤخّرا بتحرير عديد القبائل البدائيّة الّتي تعيش على الحدود الآسيويّة»، قال المدير. «طبعًا، كانت الخسائر البشريّة أكبر من تلك الّتي حصلت خلال عمليّات التّرحيل، ولكنْ نحن نتمنّى أنْ يصمد الفرد أكثر في المستقبل».

بعد ذلك بأيّام، استُدْعِيَ ماكس أومبيلينت إلى مكتب مدير الفرع الاستوائي لدى قسم شؤون السّود. كان الأمر مسلّيًا بالنسبة إليه، ومثيرًا للفضول. فهو لا يستطيع أنْ يتخيّل أيّ مهمّة ستُوكَلُ إليه في إطار مخطّط كهذا.

- «ما هي الأداة الّتي سأحتاج إليها في العمل؟».

منذ غلق ملفّ التّحقيق، هذه هي المرّة الأولى الّتي بدا فيها ماكس مرحًا، متشوّقًا لشيء ما ومهتمًّا به.

دخل ماكس أومبيلينت مكتب مدير الفرع المداريّ في دائرة شؤون السّود المدعوّ بستانيسلاس كريتزا، وهو في غاية التأثّر. كما لو أنّه كان يقرأ كتابا لجيل فيرن أو ينزل على كوكب آخر. لكنّ المدير تحدَّث في الموضوع مباشرة.

- «إنّ عمليّات التّرحيل في المكان أمر معلومٌ على مَرِّ التّاريخ. فعديد الشّعوب والجماعات البشريّة وقع ترحيلها من مكان إلى مكان آخر. لكنّ عمليّات ترحيل كهذه، تُعتبر عملًا تافهًا

مقارنة بمخطّطنا الّذي يهتمّ بالتّرحيل في الزّمن. أحيانًا نجد أفرادًا وُلدوا في حقبة البرونز، يهجرون زمنهم ويحرقون جميع المراحل كي يلتحقوا بالمجتمعات المعاصرة، فيرتادوا المدارس والجامعات، ويتعلّموا كلّ التّقنيات الحديثة، ويسيروا على نفس إيقاع الإنسان المعاصر. وهؤلاء الأفراد يقطعون مسافة ثلاثة آلاف سنة من التّاريخ خلال حياة واحدة، لكنّهم يصلون إلى هدفهم وقد خارتْ قُواهم. نحن نريد أنْ ننقل جماعات وشعوبا بأكملها آليّا، ونريد أنْ نجنِّبهم كلّ الأمراض المرتبطة بهذا التنقّل في الزّمن. فالتّاريخ يشبه الجوّ، واختلافات الضّغط الجوّيّ لها تأثير على الجسد البشريّ وعلى الفكر. لقد درسنا الموضوع، ونحن الآن في أعلى مرحلة من مراحل التّطبيق في ترحيل النّاس عبر الزّمن. لقد نجحت التّجارب، ونقلنا قبائل بدائيّة من الحدود الآسيويّة، ثمّ وضعناهم بشيوخهم وأطفالهم وكلّ ما يملكون، في غمرة الحداثة. إنّه لمشروع مثير. أصبح لدينا أناس بدائيّون ينصتون إلى موسيقى بروكوفياف، ويركبون درّاجات ناريّة، ويقرؤون الأعمال الكاملة لستالين. ولقد تفوّقوا على الأمريكان في وول ستريت. هذا مثير خاصّة بالنّسبة إليك، أنت الرّجل الأسود. فستعمل في التّحضير لترحيل السّود من ترويبيك إلى الحداثة».

كان ستانيسلاس كريتزا يلعب بالبطاقة الّتي تتضمّن السّيرة الذّاتيّة لماكس أومبيلينت.

- «نحن في حاجة إلى وكلاء سود و«حداثيّين» في ترويبيك»، قال

ستانيسلاس كريتزا. «يسرّني أنّك أبديت الرّغبة في السّفر إلى تروبيك».

- «لم أُبْدِ أيّ رغبة في الذّهاب إلى تروبيك»، قال ماكس أومبيلينت. «لقد وافقت على العمل فقط. ولم يُطرحْ عليَّ اسم تروبيك مُطلقًا».

- «طالما أُرْسِلْتَ إليّ، فهذا يعني أنّك تصلح للمهمّة في تروبيك. فالسّود الحداثيّون الّذين نحتاجهم لهذا المخطّط، ننتدبهم فقط من الولايات المتّحدة الأمريكيّة ومن أوروبا، لأنّ إفريقيا ليس فيها سود حداثيّون. ستسافر خلال بضعة أسابيع».

كان ماكس أومبيلينت يعاني من التهاب في الكبد، ويفضّل عدم الذّهاب إلى إفريقيا لأنّه لا يطيق الحرارة. وعلاوة على ذلك، فهو ضيف في موسكو، وليس باستطاعة أحد أنْ يجبره على الذّهاب إلى تروبيك.

- «لستُ رجلًا ميدانيًّا»، قال ماكس أومبيلينت. «لقد أخطأتم الاختيار. وفي تروبيك، سأموت بضربة شمس. فأنا لست أسود استوائيًّا. أنا أمريكي».

- «أنا رجل من الشّمال»، قال ستانيسلاس كريتزا. «والدايَ من مدينة ريغا[1]. وقد نشأت في كونيغسبرغ مسقط رأس كانط[2]، ومع ذلك فإنّ عملي يقتصر على تروبيك. فلا يوجد تعارض جغرافيّ عندما يتعلّق الأمر بالعمل الإنسانيّ. إنّ

(1) عاصمة لاتفيا تقع على بحر البلطيق. (المترجمة).

(2) فيلسوف ألماني من القرن الثّامن عشر 1724 / 1804، عاش في كونيغسبرغ. هو آخر الفلاسفة المتأثّرين بالثّقافة الأوروبيّة الحديثة، وأهمّ من كتب في نظريّة المعرفة الكلاسيكيّة. أكثر أعماله شهرة هو «نقد العقل المحض» 1871. (المترجمة).

الصّعوبة تكمن في جانب آخر. فعملنا شبيه بعمل المجوهراتي والسّاعاتي. إنّه عمل دقيق، إنّه عمل صائغ!».

أفرغ ماكس قنّينة الرّوم، ثمّ قال:

- «أنا لا أؤمن بالنظريّات. أنا لا أؤمن بشيء. ولقد أخطأتم عندما وقع اختياركم عليّ. فأنا لست مقاتلًا. والأمريكان السّود لا يقاتلون إلاّ وسط الحلبة. فإنْ كان بإمكاني مساعدتكم، فأنا تحت تصرّفكم. لكنّني أرفض السّفر إلى تروبيك. أنا أشدّ كآبة من أنْ أذهب إلى هناك. وإضافة إلى ذلك، أنا أشعر بالعطش. ففي هذه اللّحظة، ما يهمّني أكثر، هو أنّي أشعر بعطش رهيب».

ضغط ستانيسلاس كريتزا على الجرس. فدخل رجل في زيّ شرطيّ، يحمل طبقا عليه زجاجة فودكا وكأسيْن. كريتزا لا يتناول الكحول. فسكب الفودكا في كأس ماكس أومبيلينت دون أن يسكب لنفسه.

- «الآن، بإمكانك الحديث»، قال ماكس بعد أنْ احتسى كوبًا.

- «إنّ تحرير الشّعوب البدائيّة لا يمكن أنْ يتمّ إلّا بعد ترحيلها نحو الحداثة»، قال ستانيسلاس كريتزا. «نحن نناضل من أجل أنْ يُصبحوا أحرارا. وقبل تحريرهم، يجب أنْ نعيدهم إلى التّاريخ. ففي الوقت الرّاهن، يُعتبر السّود الاستوائيّون خارج القانون. لا نستطيع أنْ نحثّهم على المطالبة بحريّتهم، ولا أنْ يقوموا بالثّورة من أجل كسر أغلالهم. إنّهم منظّمون في جمعيّات سريّة وإجراميّة. وحين نطالب باستقلالهم وتحريرهم من نَير الاستعمار، سنجد أنفسنا نطالب بالاعتراف بمنظّمة

خارجة عن القانون. والقانون العالمي لا يسمح بهذا. فلا يمكننا استحداث دول مستقلَّة خارجة عن القانون. هل يمكن أنْ تتخيّل حصول آكلي لحوم البشر على دولة مستقلّة؟ إنّ هذا مستحيل طبعًا. يجب، أوّلًا، أنْ نعيدهُمْ إلى التّاريخ، وأنْ نجعلهم يعيشون السّاعة نفسها الّتي يعيشها السّويسريّون والهولانديّون. فالحضارة تُكتسب كما يتعلَّم أحدهم قيادة السيّارة. وقوانين الحياة في نطاق المجموعة هي أسهل بكثير من قانون الطّريق. بعد أن نصل بالبدائيّين إلى بلوغ نفس المستوى الحضاري للسّويسريّين أو الهولانديّين، يمكننا أنْ نطالب، عندها، بالاستقلال وبالمساواة لأجلهم أو نحثَّهم على ذلك. وأوّل أمرٍ يجب فعله هو ترحيلهم عبر الزّمن. فكيْ تُرحّل مجموعة من النّاس في المكان لا يحتاج الأمر إلّا إلى الشّرطة وإلى العربات المصفَّحة، في حين أنّ التّرحيل عبر الزّمن هو عمل شاقّ، خاصّة عندما تكون مسافة الرّحلة بضعة آلاف من السّنوات. يجب أنْ نسعى إلى إقناع مواطنينا حيث يوجدون، أيْ في عصور ما قبل التّاريخ. وهذا يعني أنّنا سننقلهمْ أحياءً إلى الحاضر، إلى الحقبة الذّريَّة. إنّه عمل محترفين. فالصّعوبة تكمن في أنّ هؤلاء البدائيّين موجودون في مستعمرات. ويجب على القوى الاستعماريّة أنْ تُطرد من تروبيك حتّى لا تُزعجنا أثناء عملنا. بعد بضعة أسابيع، ستسافر إذنْ إلى تروبيك. وسأرافقك شخصيّا إلى هناك. فأنا في حاجة إلى رجل أسود «حداثيّ» من أجل عمل مهمّ عند آكلي لحوم البشر.

- «سيكون من الأفضل لو تُوظّف رجلاً أَسْوَدَ آخر»، قال ماكس أومبيلينت. «أنا رجل منتهٍ، ولا يمكن الاعتماد عليّ».

وقف الرّجل الأسود وتوجّه إلى الباب، لكنّ ستانيسلاس كريتزا أوقفه.

- «سأغتنم فرصة وجودك بيننا، وأدعوك إلى زيارة متحف العِرق الأسود. إنّه المتحف الوحيد في العالم».

- «المتاحف لا تغريني»، قال ماكس أومبيلينت. «لكنْ لا مانع من زيارتها».

وقف ستانيسلاس كريتزا وتبِعه الرّجل الأسود. لكنّ هذا الأخير، شعر بالملل منذ بداية الجولة في المتحف.

يحتوي المتحف على المئات من المكاتب والأعمدة وقاعات العرض والمصاعد الكهربائيّة. إنّه ناطحة سحاب يعمل بها آلاف من البشر، كأنّهم نمل. ويُودَع، هنا، كلّ ما له علاقة بوجود العرق الأسود على الأرض، ويُصنَّف. وأحيانًا يُعرَض في هذه العمارة المتكوّنة من اثنيْ عشر طابقا، مزهريّات إغريقيّة ورومانيّة عليها رسومات تُظهر رجالًا سودًا مكبَّلين بالأغلال، ورسومات فرعونيّة ونقوش فارسيّة تصوّر نفس المشهد أيضا. في دائرة السّود يُقْبَل كل شيء له علاقة بالسّود منذ أقدم العصور حتّى آخر البرقيّات الّتي تروي مجزرة الماو ماو في كينيا.

- «تاريخ السّود يختلف تمامًا عن تاريخ الشّعوب الأخرى»، قال ستانيسلاس كريتزا. «إنّ تاريخ السّود لمْ تَصْنَعْهُ الغزوات

والهزائم والانتصارات، ولا صنعته الوقائع، بل هو مجرّد أرقامٍ».
توجد نقوش ومزهريّات ورسومات جلبها وكلاء دائرة السّود. وعلى هذه القطع الّتي عُثِر عليها في بلاد الإغريق وفي آسيا الصّغرى وفي إيطاليا ومصر، تظهر نفس الرّسومات للسّود المكبّلين بالأغلال.

- «تاريخ السّود سِجِلٌّ تجاريّ كبير»، قال ستانيسلاس كريتزا. «صحيح أنّ الأمر مملّ، ولكن هذه هي الحقيقة: تاريخ السّود بأكمله هو مجموعة أرقام. أَتَعْرِفُ ما هي النّقاط الأساسيّة لحياة أصحاب البشرة السّوداء؟ كمْ تدفع امرأة رومانيّة لتشتري صبيًّا أسود بالغًا، أو غلامًا أسودَ مخصيًّا أو غير مخصيّ؟ كم يبلغ ثمن أسود يجيد القراءة والكتابة عند الفرس؟ كمْ ثمن رجل أسود في البورصة الأوروبيّة، وفي الباب العالي في الدّولة العثمانيّة وفي بلاط القياصرة الروس؟ كم تدفع مدام دي بومبادور لشراء خادم أسود؟ أو كم يدفع العرب؟ هذه هي حكاية السّود كاملة. ومخطّطنا يقوم على إخراج السّود من سجلاَّت التّجارة.

- «لم تعدْ تجارة الرّقيق مشروعة اليوم»، قال ماكس أومبيلينت.

لقد كان غاضبًا. فهذا العرض ليس مُسلّيًا، وخاصّة بالنّسبة إلى أسود.

- «أنت مخطئ»، قال ستانيسلاس كريتزا. «في المجتمع الحديث، اتّخذت تجارة العبيد أشكالا أخرى. وإذَا كان مستهلكو اللّحوم، قديمًا، يشترون العجل كاملا، فهمْ اليوم، يشترونه بالتّجزئة، وينتقون أجزاءً معيّنة منه. فحتّى لوْ غادر السّود سِجلّات التّجارة، فقد دخلوا فورا إلى أقبية المجتمع والتّاريخ.

إنّهم ما يزالون إلى اليوم، منعزلين وضحايا للفصل العنصريّ. هنالك سود آخرون غادروا سجلّات التّجارة، ليتحوَّلوا إلى شحّاذي معجزاتٍ في كلّ شوارع الدّبلوماسيّة العالميّة. فكلّ الأوساط العالميَّة تعجُّ بالشحّاذين السّود المتخلِّفين. إنّهم يشحذون المعجزات، أيْ يتسوّلون المساواة والاستقلال، يشحذون احترامًا، ويشحذون الاستقلاليّة والحريّة. فيا للمهانة. إنّ هذا النوع من المعجزات لا يُطلب، وإنّ التّسوّل لظاهرة غير اجتماعيّة.

توقّف ستانيسلاس كريتزا لأنّ ماكس أومبيلينت يريد الانصراف. وقال إنّه سيعود. ففي تلك اللحظة لم يعُدْ في حاجة إلى الثّقافة.

- «إنّ الثّقافة لا تهمّني. يوجد العديد من الطّلبة السّود الّذين يرغبون في معرفة ماضيهم. وأنت تضيع وقتك معي. فالمتاحف لا تدخل في صلب اهتماماتي».

- «سنغادر في الحال، فانتظرْ لحظة»، قال ستانيسلاس كريتزا.

ثمّ قدّم لماكس أومبيلينت كرسيًّا معدنيًّا، بينما جلس هو على كرسيّ مماثل. كانت هناك شابّة، ترتدي مئزر ممرّضات أبيض اللّون، وتحدِّق في ماكس بنظرة ساخرة، فصرّ ماكس أسنانه من شدّة الغيظ. فمنذ تعرُّضه إلى عمليّة الإخصاء، لم يعدْ يحتمل نظرات النّساء، ويُخيّل إليه أنّهنّ يسخرن منه، لكونه خصيًّا.

- «ما المضحك في الأمر يا رفيقة؟ هل هو لونيَ الأسود أم هو أمرٌ آخر؟».

أوشك ماكس أنْ يتسبّب في فضيحة. أمّا الفتاة فقد عمدتْ إلى تشغيل آلة التّسجيل.

في زوايا السّقف الأربع، وقع تثبيت أربعة مضخّمات صوت، ينبعث منها في الوقت نفسه صوت احتكاك شريط التّسجيل.

وفجأة، سُمع صوتٌ ارتعدت له فرائص ماكس، فوقف. إنّه صوت بلانش كنور:

- «أنا لا أذكر البتّة أنّي تحدثّت إلى ماكس أومبيلينت من قبل».

هاهو صوت بلانش كنور الّتي باحتْ بحبّها لماكس في مناسبات كثيرة، يقول الآن عبر مكبّرات الصّوت الأربعة في دائرة السّود:

- «تناهى إلى سمعي أنّ ماكس أومبيلينت يتردّد على نفس الجامعة الّتي أدرس بها، لكنّني لمْ أتحدّثْ إليه أبدًا. أبدًا».

- «بلانش كنور، لقد زرت منزل عائلة أومبيلينت مرّات عديدة».

تعرَّف ماكس إلى صوت القاضي، صوت الرّجل الأبيض الجافّ الّذي ينهشه الهوس الرّهيب بالحقيقة. الصّوت الّذي يجد ماكس متعة في الاستماع إليه، الصّوت القاطع مثل شفرة حلاقة. إنّه صوت القاضي الفاسد وقد انطفأ الآن.

- «لا أدري حتّى أين يقع المنزل الّذي تتحدّثون عنه. أنا لست عنصريّة، ورغم ذلك، لم يحدثْ مطلقًا أنْ زرت منزل سودٍ. أبدًا».

- «لقد أكّدتْ والدة الضحيّة السيّدة أفريكا أومبيلينت بعد أدائها اليمين، أنّك تتردّدين على منزلها يوميًّا»، قال القاضي، ثمّ

سكت وتكلّمت بلانش كنور من جديد.

- «لو كنتُ قد تردّدتُ على منزل هؤلاء السّود كما أكّدتُمْ على ذلك، فيجب أنْ يكون الجيران قد لمحوني وأنا أدخل إلى هناك. فهل يوجد في هذه المدينة رجل شاهدني وأنا أدخل إلى منزل السّود أو أخرج منه؟».

أمسك ماكس أومبيلينت برأسه بين يديه. وصمَّ أذنيه. فهو لَمْ يعدْ يرغب في سماع صوت بلانش كنور. لقد استمع إلى تصريحاتها من قبل، وهذا كافٍ.

كان ستانيسلاس كريتزا يجلس دون حراك على كرسيّه المعدنيّ حين انبثق من مضخّمات الصّوت صوت امرأة تنتحب.

- «أمّي!»، صرخ ماكس أومبيلينت. «الأمّ أفريكا! ماما أفريكا».

كان نحيب والدة الرّجل الأسود يملأ مضخّمات الصّوت الأربعة:

- «إنّه خطئي. أنا من تسبّب في إخصائه. إنّه خطئي أنا، أنا والدته، أنا الّتي أنجبته أسود اللّون. فلوْ لمْ أُنجبْه أسود اللّون لَمَا وقع الاعتداء عليه بشكل تعسّفيٍّ».

اتّكأ ماكس أومبيلينت على خزانة الملفّات، ووضع يديه السّوداويْن الكبيرتين كَيَدَيْ الغوريلّا على وجهه. بدأ ينتحب كما لمْ ينتحبْ في حياته من قبل، حتّى عندما كان طفلًا. إنّه يبكي مثل طفل أسود. فتبدَّدت سُحب سُكره.

- «إنّها لمأساة أنْ تكون أسود!»، قالت الفتاة الّتي ترتدي مئزر الممرّضات.

إنّها تتكلّم بصوت عالٍ، وهي تربّت على كتف أومبيلينت العظيمة، بينما كانت لهجتها باردة وتتحدَّث بحدّة كأنّها في ثكنة.

- «إنّها لمأساة أنْ تكون أسودا!»، قالتْ. «لكن لو كنت أنا زنجيَّة، لَمَا تألّمت مثل والدتك. فأنتم السّود جبناء. إنّ السّود الأمريكان لا يتقنون الصّراع، وهُمْ لا يصارعون إلّا في الحلبة مثل جو لويس وشوغر روبنسن. أمّا الآخرون، فيشحذون في أروقة الدّبلوماسيّة العالميّة».

استقام ماكس أومبيلينت، وبدا أطول من ذي قبل. فقد كان طوله ضعف طول ستانيسلاس كريتزا وضعف طول الفتاة الّتي ترتدي المئزر الأبيض، أمّا كتفاه فأعرض من خزانات الملفّات، وقبضتاه شبيهتان بمطرقتين كبيرتين. كان ستانيسلاس كريتزا يبدو مثل قزمٍ أمام الرّجل الأسود الّذي توقّف عن البكاء.

- «ماذا في وسعي أن أفعل؟»، تساءل ماكس. «أيّ شيء بنَّاء يمكنني فعله حتّى أُغيّر هذا الوضع؟».

- «الكثير»، أجاب ستانيسلاس كريتزا. «في وسع الإنسان فعل الكثير شرط أنْ يعمل ضمن فريق».

- «لا تنْسَ أنّني مريض»، قال الرّجل الأسود. «سأكون مريضًا، ولوْ عملتُ ضمن فريق. فأنا أسود، حتّى لوْ كنت وسط مجموعة. وأنا مدمن كحول، وسأكون مدمن كحول، حتّى لوْ كنتُ ضمن فريقٍ. أنا خصيٌّ وأعصابي مرهقة. وسأكون كذلك، حتّى لوْ كنت وسط مجموعة».

وضغط على فكيّه من شدَّة الغيظ.

- «كلّ هذا لا معنى له»، قال. «أنا رجل مُنتهٍ! هيّا بنا».

خرج ماكس يتبعه ستانيسلاس كريتزا، ودخل إلى مكتب آخر، لا تُوجد فيه مضخّمات صوت. لكنّه لاحظ وجود قنّينة الفودكا الموضوعة على الطّاولة، فسكب منها كأسًا. ولمْ يعترضْ ستانيلاس كريتزا أبدًا، عندما بدأ ماكس يشربُ.

- «هل تعتقدُ حقًّا أنّه بمقدوري القيام بشيء ما إيجابيّ؟»، تساءل ماكس أومبيلينت. «أشكّ في قدرتي على أنْ أكون مفيدا في شيء ما».

- «بإمكانك أنْ تكون مفيدًا»، قال ستانيسلاس كريتزا. «فنحن نستغلّ كافَّة البشر على اختلافهم. ونعمل مع منْ يتوفّرون لدينا. نستغلّ كلّ ما نجده أمامنا، حتّى الحطام. فكلّ الّذين شيَّدوا الكون، استعملوا الحطام والبقايا. ونحن نستغلّ حتّى أعداءنا. في فلاشيا، نحن نستعمل مَلِكًا من أجل إرساء مبادئ الاشتراكيّة، وهو يراقب تطبيق مذهب ماركس ولينين هناك. فنحن نستعمل كلّ النّفايات، كلَّها.

- «ما الّذي يجب عليّ فعله؟»، سأل ماكس أومبيلينت. «أريد أنْ أعرف ما إذا كنتُ قادرًا على القيام به. وسأجيبك بصراحة سواءً وافقتُ أَمْ لمْ أوافقْ».

- «مهمّتك بسيطة للغاية»، قال ستانيسلاس كريتزا. «ستقوم بأشياء بسيطة في بادئ الأمر، وبعد ذلك سنرى. فنحن نرغب في استرجاعك وإعادة تأطيرك، كيْ تستردّ ثقتك».

- «ألا يمكنني معرفة ما هو هذا العمل في الحال؟».

- «كلّا». قال ستانيسلاس كريتزا. «أعلمك أنّه عمل بسيط للغاية، وهو يدخل ضمن الأعمال التّمهيديّة للمخطّط. إنّه عمل بسيط للغاية، أبسط عمل يمكن للإنسان أنْ يقوم به. هو عمل لا يتطلّب أيّ تحضير، وهو في متناول أيٍّ كان».

(8)
قاتلٌ بغير أَجْر

منذ أن التقى ماكس أومبيلينت بستانيسلاس كريتزا قبل ستّة أيّام، لمْ يستلمْ أيّ وظيفة. وقد حاول تخيّل طبيعة العمل الّذي سيكون عليه إنجازه. وهو يتذكَّر ما قاله كريتزا: «إنّه عمل بسيط للغاية... بمقدور أيٍّ كان القيام به... إنّه لا يتطلّب تحضيراتٍ خاصّةً».

تردَّد ماكس أومبيلينت على دائرة شؤون السّود بانتظام. فقد أصبح، الآن، مهتمًّا بالأمر. تعتبر هذه المؤسّسة بالنّسبة إلى أسود، أشدّ أهميّة من متحف اللّوفر أو متحف برادو أو المتحف البريطاني. فكلّ شيء فيه، له علاقة بلون بشرة ماكس أومبيلينت، بالبشرة السّوداء..

في كلّ مرّة يدخل فيها البناية، كان ماكس أومبيلينت يسأل البوّاب الّذي يرتدي لباس الشّرطة:

- «أَلَمْ يُوجّه إليّ ستانيسلاس كريتزا استدعاءً؟».

فيجيبه البوّاب:

- «كلَّا، يا سيّد أومبيلينت».

ذات ظهيرة دُعي الرّجل الأسود إلى حفل استقبال حضره موظّفو دائرة شؤون السّود احتفاءً بالوكلاء العائدين من أمريكا الوسطى. لقد أصبح يملك، الآن، ترخيصًا بالدّخول إلى دائرة السّود رغم أنّه

لمْ يُكلَّفْ بأيّ مهمّة بعد.

تسمّر أحد الصّحفيّين الّذي كان يجلس إلى جانب ماكس أثناء حفل الاستقبال في مكانه، ثمّ صرخ وهو ممسك بشطيرته:

- «إنّه ستانيسلاس كريتزا بشحمه ولحمه! هذا لا يصدَّق!».

نظر ماكس إلى كريتزا، ثمّ تأمّل الصّحفيّ الّذي كان يُدير جريدةً موجّهة للأجانب.

- «ما هو الأمرُ الّذي لا يصَدَّق؟».

- «أنْ يكون ستانيسلاس كريتزا على قيد الحياة»، قال الصِّحفي. «يجب أنْ يكون قد نُفِّذَ فيه حكم الإعدام منذ ثلاثة أشهر، حتّى أنّني حذفت اسمه من قائمة المشتركين. أريد رؤيته عن قرب».

- «إنّه هو بعينه»، قال ماكس أومبيلينت. «أؤكّد لك أنّه ستانيسلاس كريتزا. فأنا أعرفه، وأعمل معه أيضًا».

- «هل تعمل معه حقًّا؟»، قال الصّحفيّ، وقد أشرق وجهه. «أهنّئك».

- «تُهنّئني على ماذا؟»، تساءل ماكس.

- «لأنّك تعمل مع إنسان رائع»، أجاب الصّحفي. «إنّه من النّخبة. ومن حسن حظّك أنّك تعمل تحت إمرة رجل مثله».

- «أنت تحدّثني عن فرضيّة أنْ يكون ستانيسلاس كريتزا قد أُعْدِمَ رميا بالرّصاص منذ ثلاثة أشهر، ثمّ تهنّئني على عملي معه. وتؤكّد على أنّه رجل رائع. فهل هو رجل من النّخبة أَمْ رجل محكوم بالإعدام؟ أم أنّه رجل محكوم بالإعدام لأنّه رجل من النّخبة؟».

كان ماكس أومبيلينت يتحدَّث بلهجة ساخرة. فقدْ بات يعرف منطق الرّوس الآن. إنّهمْ يفكّرون كما لو أنّهم يمارسون الألعاب البهلوانيّة.

- «أنتم البورجوازيّين لا تفهمون أيّ شيء»، قال الصّحفيّ. «لا شيء على الإطلاق. فتفكير النّاس، في البلدان البورجوازيَّة، يفتقر إلى المنطق. لقد قاد ستانيسلاس كريتزا ثورة السّود «هيري روم» أو «النّائمون في الدّغل»، في إفريقيا. لكنّ الثّورة فشلتْ، فأُبيد «النّائمون في الدّغل» على يد الأوروبيّين. وحكم على كريتزا بالإعدام من قبل رؤسائه. واستُدْعِيَ إلى موسكو كي يُنفَّذ فيه الحكم رميا بالرَّصاص كما هو مقرَّرٌ».

- «رميا بالرَّصاص؟ وما السّبب وراء ذلك؟»، تساءل الرّجل الأسود.

- «لأنّ الثّورة فشلتْ. وبما أنّه كان القائد، فقد حُمِّل مسؤوليّة ذلك. إنّ الثورة آلة، وعندما لا تعمل الآلة جيّدا، فإنّ الخطأ يقع على عاتق قائدها. أُعدم قائد الآلة، ومع ذلك، فإنّ كريتزا على قيد الحياة. وهذا يعني أنّه تمَّ العفو عنه. فالرّجل الّذي يُعفى عنه بعد أنْ صدر في حقّه حكم بالإعدام، هو رجل استثنائيٌّ لمْ تُنجبْ البشريّة مثله. حتّى الإنجيل وعد كبار المذنبين التّائبين بالجنّة. وكبار المذنبين التّائبين، هُمْ حقًّا أفضل من أنجبتهم البشريّة. فمنزلتهمْ في الجنّة ليست منّة، بلْ همْ جديرون بها».

- «إذا كانت هذه وصفتكم لإنتاج النّخبة، فلماذا لا تعفون عن المزيد من المحكومين بالإعدام؟».

- «التّائبون الحقيقيّون هُمْ أشدُّ نُدْرَةً من الفيلة البيض»، قال الصّحفيّ. «فأغلب المحكومين بالإعدام عندنا، يتوسَّلون إلينا أنْ نُنفّذ فيهم الحكم. ونحن نُلبّي طلبهم دائما، لأنّ أغلبهُمْ مخادعون في مناشدتهم الموت. وقع استدعاء ستانيسلاس كريتزا الموجود على بُعد عشرة آلاف كيلومترات من موسكو لينفَّذ فيه حكم الإعدام، فعاد في أوّل طائرة. وأُعْفِيَ عنه لأنّه لمْ يكنْ مخادعًا. إنّه غير مخادع دون شكّ، فهذا طبع النُّخبويّين. وأنا أهنّئك على العمل معه. لكن كيف لمْ تُدرك ذلك منذ الوهلة الأولى، في حين أنّ الأحداث كانتْ تبدو منطقيّة للغاية؟ سأجيبك: إنّكمْ لا تملكون ذرَّة منطق واحدة، في بلدانكم البورجوازيّة».

- «صباح الخير يا ماكس أومبيلينت»، قال الصّوت.

إنّه ستانيسلاس كريتزا. وقد أمسك بذراع ماكس وخرجا معًا من الصّالون، ثمّ عبرا الرّواق، ودخلا إلى المكتب.

- «تفضَّلْ بالجلوس»، قال كريتزا.

ثمّ جلس بدوره.

كان ماكس أومبيلينت ما يزال تحت تأثير الحديث الّذي جرى بينه وبين الصّحفي. فتغيَّرتْ نظرته إلى ستانيسلاس كريتزا. هذا الرّجل الّذي يُوجد على بعد عشرة آلاف كيلومتر من موسكو حين تلقّى برقيّة تأمره بالرّجوع إلى وطنه كيْ يُنفّذ فيه حكم الإعدام رميا بالرَّصاص، فيستقلّ أوّل طائرة ويعود إلى بلده حتّى يُعدم.

- «ما كنت لأستطيع فعل هذا»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه.

«ولن يكون باستطاعة أغلب النّاس القيام بما فعله كريتزا. إنّ هذا أمر مؤكّد».

- «كنت مرهقا جدّا، في آخر محادثة دارتْ بيننا»، قال الرّجل الأسود. «لقد رفضت العمل معك حتّى لا أُسبّب لك المتاعب. كنت أعرف أنّني لا أصلح لشيء».
- «هل أنت أحسن حالًا الآن؟»، سأل كريتزا.
- «كَلَّا»، ردَّ ماكس. «فأنا لمْ أزل مثلما كنت في الماضي تمامًا، لكن هناك تغيير طفيف للغاية: أنا قادر، الآن، على تنفيذ العمل المطلوب، دون أنْ أُعلِّق عليه آمالًا أوْ أتحمَّس له، كمنْ تمّ تنويمه مغناطيسيًّا. لكنّني قادر على تنفيذه على أكمل وجه. أنا عاجز عن تقديم المزيد، فهذا أقصى ما أستطيع فعله».

كان ستانيسلاس كريتزا يستمع إليه في هدوء، ثمّ قال:

- «ليس هناك داعٍ لأنْ تشعر بالحماس. فأنا وعدتك بعمل بسيط في بادئ الأمر، عمل بمقدور أيٍّ كانَ القيام به دون أيِّ تحضيرٍ مسبقٍ».
- «أشكرك»، قال الرجل الأسود.
- «سأَشرح لك الأمر»، واصل ستانيسلاس كريتزا. «ستُسافر إلى تروبيك وسأُرافقكَ إلى هناك حيث يعيش قومٌ من آكلي لحوم البشر، وهم من السّود الّذين سنحرّرهم خلال السّنوات القادمة. ففي غضون النّصف الأوّل من شهر نوفمبر، قدمتْ من ضفاف نهر الرّاين مجموعة من الشبّان الإنجيليّين، سأطلعكَ على صورهِمْ. هُمْ شبّان في العشرينات من العمر، شُبّان

تنقصهم الخبرة والتّحضيرات. ويجب علينا قتلهم أربعتهم قبل حلول عيد الميلاد، فلا بدّ من قتلهم بطريقة مسرحيَّة تثير الرّأي العامّ. ثمّ سنعرض خبر عمليّة قتل المبشّرين في الصّحف البورجوازيّة، في الأعداد الخاصّة بعيد الميلاد تحديدًا. وهذا تمامًا ما يجب أنْ تزخر به طبعات الصّحف البورجوازيّة الخاصّة بعيد الميلاد: آكلو لحوم البشر، إيمان، شباب، شهداء، تروبيك، قسوة، غرائبيّة...».

تناول ستانيسلاس كريتزا مفكّرته، ثمّ واصل حديثه:

- «ليس لدينا متَّسع من الوقت. غدًا هو السّادس من ديسمبر، ويجب أنْ تتمَّ عمليّة القتل قبل خمسة أيّام من عيد الميلاد، في مساء يوم السّبت الموافق للعشرين من ديسمبر، كيْ يتسنّى نشر الخبر في الأعداد الصّحفيّة الخاصّة بعيد الميلاد. لقد تمّ اختيارك بعناية لهذه المهمة، يا ماكس أومبيلينت. فالرّجل الأبيض سيترك أثرا بين السّود، لكن من الصّعب اقتفاء أثر رجل أسود، في إفريقيا. لذلك، فهذه العمليَّة تناسبك تمامًا. فقط لمْ يتبقَّ سوى أنْ تذهب وتنفّذ خطّتي. إنّ الأمر في غاية السّهولة».

- «أعدْ عليَّ مُجدّدًا ما قُلتَه»، قال ماكس أومبيلينت. «فيمَ تتمثّل مهمّتي بالضّبط ؟ فأنا لمْ أفهم شيئًا على الإطلاق».

- «يجب أنْ تقتل المبشّرين الأربعة، وسيساعدك في ذلك آكلو لحوم البشر»، قال ستانيسلاس كريتزا. «إنّهم ينوُون تنصير هؤلاء. وأهمّ شيء هو أنْ يتمّ قتلهم في التّاريخ المحدَّد حتّى يتسنَّى للمخبرين الصِّحفيّين والسّينمائيّين والعاملين

بالمحطّات التّلفزيّة المجيء إلى تروبيك. ستستقلّ الطّائرة غدًا، ومِنْ ثمَّ ستسافر عبر الباخرة. لقد أُعِدَّ مسارك بالكامل سلفًا. وسنلتقي في عاصمة تروبيك».

راجع ستانيسلاس رزنامته بدقّة.

- «سنذيع أنّ المبشّرين افترسهم آكلو لحوم البشر. وبذلك سيهرع جميع المخبرين الصحفيّين إلى تروبيك».

نهض ماكس أومبيلينت، ووقف منتصبًا. ثمّ قال:

- «هلْ أنت جادٌّ في ما تقوله؟».

- «بالتّأكيد»، قال كريتزا. «كلّ شيء وقع ضبطه، بما في ذلك أدقّ التّفاصيل».

أحسّ الرّجل الأسود بنفورٍ لا حدود له، فقد بدا له كريتزا شخصًا مقزّزًا، وكذلك دائرة شؤون السّود بأكملها. وشعُر بأنّ غباءه كرجل أسود، مثير للاشمئزاز هو الآخر، فاتّجه نحو الباب.

- «ابحثْ عن شخص آخر»، قال أومبيلينت. «أنت تضيع وقتك معي».

أصبح ماكس يتحدّث بجفاء. ولأوّل مرَّة في حياته، شعُر بانعكاسات بيضاء على بشرته، بشرته السّوداء واللّامعة دائمًا كفحم الإنتراسيت، ها هي شاحبة الآن.

- «يُقال إنّك رجل ذكيّ»، قال الرّجِل الأسود. «لكنّك لستَ كذلك يا ستانيسلاس كريتزا، وإذَا كُنتَ تعتقد في أنّني قادر على قتل أربعة أشخاص، فالوداع».

كان ماكس يرتجف من شدّة التأثّر، وارتخت ساقاه. فظلَّ، للحظةٍ، منتصبًا في محاولة لاستعادة وعيه، وهو يضع يده على مقبض الباب.

- «ماكس أومبيلينت قاتلٌ؟»، قال الرّجل الأسود.

كان يشعر بالدّوار.

- «ماكس أومبيلينت ليس قاتلًا. ماكس أومبيلينت رجل أسود مخصيّ ومدمن كحول، لكنّه ليس قاتلًا».

- «لِمَ لا؟»، قال ستانيسلاس كريتزا. «سترى كَمْ أنّ الأمر بسيط. سأرتّب كلّ شيء، وستكون سفرتكَ مريحة للغاية».

ابتسم ستانيسلاس كريتزا، لأنّه وجد ما كان يبحث عنه في رونامته. فقال:

- «تُدعى القرية إيسيبوليا، وهي تقع على خطّ الاستواء تمامًا. إنّها قرية آكلي لحوم البشر السّود، وهناك يقيم المبشّرون الأربعة».

- «لَمْ أَقتلْ في حياتي قطّ»، قال ماكس أومبيلينت. «ولنْ أقتل أبدًا. أبدًا».

كانت كلمة «أبدًا» تؤلم ماكس، فقد سمع بلانش كونور وهي تقول: «لمْ أرَ هذا الرّجل أبدًا، كما سمع صاحب الفندق وهو يقول «أبدًا»، وسمع الخادمة الّتي قالت وهي تحدِّق فيهِ: «لمْ أرَ هذا الرّجل أبدًا». فأخذ ماكس أومبيلينت يردّد:

- «لمْ أَقتلْ في حياتي أبدًا. أبدًا».

- «لا تَكُنْ غبيًّا»، قال ستانيسلاس كريتزا.

ثمّ وقف، وأمسك ماكس أومبيلينت من ذراعيه، وأجلسه على

كرسيّ معدنيّ، بنّي اللّون. فارتختْ ذراع الرّجل الأسود.

تاه ماكس أومبيلينت في أفكاره مثلما يرتبك الملاكمون في الحلبة بعد تلقّيهم وابلًا من اللّكمات. فينسون عندها أنّهم في الحلبة، تمامًا كما نسي ماكس أومبيلينت أنّه موجود في دائرة شؤون السّود. يصبح الملاكمون عاجزين عن معرفة ما يجب فعله، وهُمْ يسمعون صراخ الجمهور ويرون الحكم وقد ثارت ثائرته. لكنّهم قد نسوْا بعدُ ما يجب أنْ يفعلوه، تمامًا كما هي حال ماكس أومبيلينت الّذي انهار على كرسيّه، لكنّه يدرك ما يتوجّب عليه فعله.

- «قُلتَ لي إنّك تُريد توظيفي لتنفيذ مخطّط ترحيل الجنس الأسود إلى الحداثة»، قال ماكس.
- «في الأعمال التّمهيديّة»، قال ستانيسلاس كريتزا. «في الوقت الحاضر مهمّتك متوقّفة على الأعمال التّمهيديَّة».
- «حسنًا، هي أعمال تمهيديَّة»، قال ماكس. «لكنّك، الآن، تطلب منّي قتل الإنجيليّين. وهذا أمر مختلف تمامًا».

جفَّف ماكس جبينه المتصبِّب عرقًا، وقال:

- «أنا أرفض. أرفض ارتكاب جريمة قتل، فأنا لست قاتلًا. لقد عرضت عليّ العمل في إطار مخطّط. فأيّ علاقة بين تحرير الجنس الأسود وقتل الإنجيليّين؟».

ابتسم ستانيسلاس كريتزا. بينما دخل رجل بزيّ شرطيّ حاملًا زجاجة فودكا، في حين واصل ستانيسلاس كريتزا شرحه الّذي بات واضحًا للغاية.

وبعد مرور نصف ساعة، اهتدى ماكس أومبيلينت واقتنع بأنّ المبشّرين الأربعة يجب أنْ يُقتلوا، وأنّ ذلك سيتمّ على يديه شخصيًّا، تمامًا كما قرَّر ستانيسلاس كريتزا. فجريمة القتل الرّباعيّة هذه، هي عمل ضروريّ، يتوقّف عليه تحرير الجنس الأسود.

- «الآن، بات الأمر جليًّا للغاية»، قال ماكس أومبيلينت. «إنّه واضح وضوح الشّمس».

شعر الرّجل الأسود بالإحراج، فهناك أمور شديدة الوضوح حتّى أنّها لا تحتاج إلى برهان. فقتل المبشّرين ضروريّ للغاية، حتّى أنّ هذا الأمر لا يحتاج إلى شرح مسبّباته. فهو واضح جدًّا.

- «سنقوم إذنْ بجريمة قتل مُدهشة، وستتحدّث عنها الصّحف البورجوازيّة الّتي ستصدر في عيد الميلاد. فيعُمُّ القلق والذّهول، ويصبح الجميع في انتظار التّفاصيل حول أحداث تروبيك. لكنْ، في إيسيبوليا، لن تعثر الصّحافة على أيّ أثر للمبشّرين، ولن يجدوا أيّ مادَّة للتّصوير، لأنّهم لن يروا شيئا ولن يكون بمقدورهم الحديث عن شيء. لا شيء. إيسيبوليا ستكون بالضّبط انعكاسا للمعنى الّذي يحمله اسمها في لغة آكلي لحوم البشر: جوزة فارغة أو صدَفة خاوية.

- «وما الغاية من وراء إرسال صحفيّين إلى تروبيك إذا لم يكنْ هناك أيّ مادّة للتّصوير السّينمائيّ أو التّلفزيّ أو الفوتوغرافيّ؟»، قال ماكس أومبيلينت.

- «سيصوّرون شيئًا آخر»، قال ستانيسلاس كريتزا. «سيصوّرون عمليّات الثّأر وجريمة آكلي لحوم البشر وعمليّة قتل المبشّرين

الّتي ستنجرّ عنها عمليّات ثأر دامية. سيكون الصّحفيّون هناك وسيصوّرون الجنود الأوروبيّين وهُمْ بصدد إطلاق النّار على السّود. ثمّ سيبثّ كلّ هذا على كامل شاشات العالم. ولن تتحدّث الصّحافة أبدًا عن المجازر الّتي ارتكبها الأوروبيّون في المستعمرات. فعدسات الكاميرا الّتي لا تتنقل أبدًا لتصوير مجزرة في حقّ السكّان الأصليّين، ستفعل ذلك هذه المرّة، وسيأتون جميعًا لتصوير عمليّات الثّأر».

- «هذا عمل في منتهى البراعة!»، قال ماكس أومبيلينت.

- «صُوَرُ الجنود الأوروبيّين وهُمْ يُطلقون النّار من مروحيّاتهم على السّود المساكين العراة والعاجزين ستُعرَض أمام العالم بأسره. وسيرى العالم الأوروبيّين وهُمْ بصدد مطاردة السّود، تمامًا كما تُطارَدُ الأرانب البريّة أو الوحوش. ستُعرض مشاهد مرعبة، وسيلحق العار بأوروبا. فأوروبا قارّة تقتات من هيبتها كمهدٍ للحضارة والعدالة والإنسانيّة. ولا أعتقد، شخصيًّا، أنّ الأوروبيّين جنسٌ سَامٍ. فموهبتهم لا تتعدّى المجال الاقتصادي. إنّ أوروبا تعُدّ مائتيْ مليون ساكن. إذنْ، يعمل عشرة رجال في المستعمرات لخدمة أوروبيٍّ واحدٍ. فمن سنة 1945 إلى سنة 1957، وخلال اثنتيْ عشرة سنة، فقدت أوروبا أربعة وعشرين شعبًا، أيْ بمعدّل ثمانمائة مليون خادم. بقي أنْ نرى ما إذا كانت أوروبا، ستحافظ على هيبتها دون ثمانمائة مليون خادم. في الوقت الحاضر، ما يزال لديها ستّمائة مليون، أيْ بمعدّل ثلاثة خدم لأوروبيٍّ واحدٍ. وهذا

لا يُعَدُّ شيئًا. فالأوروبيّون يعيشون من هيبتهم كأفراد عادلين ومثقّفين. وعمليّات الثّأر الّتي ستُعرض على جميع الشّاشات، وستُنشر في جميع الصّحف مُدعَّمةً بالصُور، ستضع هذه الإنسانويَّة وروح العدالة موضع الشكّ. فلوْ أنّ أوروبا تخسر هيبتها، فلن يتبقّى لها أيّ شيء. ستغدو شبيهة بإيسيبوليا، أيْ «بصدفة خاوية». ونحن من سيأخذ مكانها في تروبيك. لهذا بدأنا في تطبيق مخطّطنا، مخطّطنا الّذي يتمثّل في تحرير الأعراق السّوداء. وستقوم إذنْ بتنفيذ عمل تمهيديٍّ، وضروريٍّ للغاية».

– «هذا واضح»، صاح ماكس أومبيلينت. «هذا واضح، وفي منتهى الرّوعة».

لقد استوعب مهمّته أخيرا. ولم يكن ذهنه أشدّ صفاءً كما هو الآن. إنّها لمعجزة حقيقيَّة. لكأنّه كان مخدَّرًا. فما يرويه ستانيسلاس كريتزا نافذٌ وواضح ومنطقيٌّ، لكنّ الأمر شبيه بما يحصل في مختبرات الكيمياء: النّتائج واضحة جدّا ومنطقيّة جدّا. ففي العالم الحرّ، لا يفكّر النّاس ولا يتكلّمون على هذا النّحو. وموسكو ما هي إلّا مدينة تابعة لكوكب آخر. ففيها، نفكّر ونقوم بأشياء لا يفكّر فيها سائر سكّان العالم، ولا يفعلونها لأنّها «غير ممكنة»، لا يقومون بها فقط لهذا السّبب. فالأشياء الّتي عرضها كريتزا، مثلًا، «غير ممكنة». إنّه يقول إنّ قتل هؤلاء المبشّرين الأربعة، سيوفّر الحياة لربع مليون من مقاتلي حرب العصابات. وتخمين كريتزا صحيح، لكن في بقيّة بلدان العالم لا يُمارس هذا النّوع من التّوفير. ففي العالم الحرّ، لا يُقتل أربعة مبشّرين، حتّى وإنْ كان قتلهم سيُوفّر حيوات أخرى. إنّ هذا «غير ممكن».

- «هذه صور المبشّرين»، قال كريتزا. «بإمكانك الاحتفاظ بها، لوْ أردت ذلك».

ثمّ ناول الرّجل الأسود أربع صور. فأشاح ماكس أومبيلينت بوجهه، لأنّه لا يستطيع رؤية الصّور، وصدَّها بيده، وهو يقول:

- «لا داعي لذلك».

أعاد كريتزا صور الشبّان الأربعة إلى الدّرج، وقال:

- «معك حقّ، لا داعي لذلك».

غادر ماكس أومبيلينت دائرة شؤون السّود مقتنعًا تمامًا. فكلّ شيء منطقيٌّ.

ولكن منذ ذلك اليوم، زاد من جرعة الكحول الّتي يتناولها يوميًّا. فقد أصبح، الآن، لا يشرب إلّا الرّوم الأبيض، الأبيض والقويّ مثل منطق البيض.

بعد تلك المقابلة، صار من الصّعب على ماكس التخلُّص من صورة المبشّرين الأربعة الّتي كانت تطارده آناء اللّيل وأطراف النّهار. إنّه عاجزٌ عن الهرب منهم. هو لمْ يُشاهد الصّور، لكن طُبِعتْ في ذهنه، رغم ذلك، صور رؤوس الفتيان الثّلاثة الشّقر بعيونهم الزّرقاء، ورأس لفتاة شبيهة بلوريلي في كتب الحكايات. حتّى وهو مغمض العينين، كانت تتراءى له الرّؤوس الأربعة للفتيان الشّقر.

سينفّذ مهمته، و«حملة الإنجيل» الأربعة سيقتلون ليلة العشرين من ديسمبر، في يوم السّبت. فماكس يدرك جيّدًا أنَّ موتهم ضروريٌّ من أجل تحرير العرق الأسود. ولوْ عدل عن قتلهم، سيظلّ هناك دائمًا

سود مشوّهون ومسحولون مثله، سود يشحذون معجزة الاستقلال والحريّة. لكن عندما يفكّر في كلّ هذه الأشياء، يُخيّل لماكس أنّه يرى أمام عينيه -رغم أنّه لمْ يَرَهُمْ قطُّ- رؤوس المبشّرين الشّقر، أصحاب العيون الزّرقاء: مارك، ماتيي، لوقا وبيانكا.

هام ماكس أومبيلينت في الطّرقات وحيدًا، لكنّ رؤوس الفتيان الأربعة الشّقر ما تزال ماثلة أمام عينيه.

عندها، طفق الأسود يشرب بلا هوادة.

(9)

يَا مُو

- «إنّ المبشِّرين هنا»، قال زينو الفَلاشي. «أُنظرْ يا سّيد أومبيلينت. لقد قدم المبشّرون لتحيَّتك».

فتح الرّجل الأسود عينيه. كانت الشّاحنة قد توقّفتْ أمام منزل غريب، صُنع من قصب الخيزران، وما تزال جدرانه غير مكتملة البناء. لقد وصل ماكس أومبيلينت إلى إيسيبوليا.

طوَّق الشّاحنةَ أربعة شبّانٍ شُقرٍ يضعون خوذات عسكريّة، ويرتدون سراويل جديدة، قصيرة، صفراء اللّون، وينتعلون أحذية من الخيش. توسَّط زينو الفلاشي مجموعة الإنجيليّين، وكأنّه فرد منهم وسط ذهول الرّجل الأسود.

- «هذا لوقا»، قال زينو الفلاشي. ووضع يده على كتف أطول شابٍّ بينهم، وأشدّهم نحافة. فتقدّم لوقا نحو الرّجل الأسود، وقال:

- «عِمت صباحًا، يا سيّد أومبيلينت»، قال لوقا، وهو يصافح الأسود صاحب اليد الضّخمة.

- «وهذه بيانكا»، قال زينو. «بيانكا شقيقة لوقا».

- «فليباركك الربّ، يا سيّد أومبيلينت». قالت بيانكا.

كان شعرها المجدول أشقر كخيوط الذّهب، وبشرتها بيضاء وشفتاها ورديَّتيْن. حدَّق ماكس أومبيلينت في عينيها، وقال لها:

- «كيف حالك؟».

- «وهذانِ هما التّوأمان، مارك وماتيي»، قال زينو.

سحب الرّجل الأسود يده من يد بيانكا، تلك اليد الأثيريَّة.

- «كيف حالك؟»، قال ماكس أومبيلينت.

كان التّوأمان متشابهيْن تمامًا. لهما وجنتان حمراوان ممتلئتان وشعر أشقر وابتسامة ورعة كما الأيقونات. لقد تعرَّف إليهم ماكس أومبيلينت، مع أنّه لم يسبق له أنْ شاهد صورهم، لكنّه تمثَّلهم في ذهنه تمامًا، كما هُمْ في الواقع. وقال في نفسه: «هؤلاء هُم الأربعة الّذين يتوجَّب عليَّ قتلهم».

- «فليباركك الربّ»، قال المبشّران التّوأمان.

- «كيف حالكما؟»، قال الرّجل الأسود.

كان حملة الإنجيل يبلغون من العمر عشرين سنة، ما عدا لوقا الّذي يبلغ واحدًا وعشرين سنة، صاحب السّاقيْن الطّويلتيْن والنّحيفتيْن، اللّتيْن لم تتحوّلا بعدُ إلى ساقَيْ رجل كهل. أمّا بيانكا، فلا هي صبيّة ولا شابّة. إنّها بين بين، وتبدو كما لو كانت في الرّابعة عشرة من عمرها.

نظر ماكس أومبيلينت إلى أقدام المبشّرين، فقط إلى أقدامهم كيْ يتفادى النّظر في عيونهم.

- «لقد وصلنا منذ حواليْ ساعتيْن، ياسيّدي»، قال زينو الفلاشي.

إنّه يشعر، وهو مع الإنجيليّين كما لوْ كان بين أفراد عائلته، أو كمنْ التقى للتوّ بأشقّائه. فواصل حديثه:

- «لمْ نُردْ إيقاظكم. اعتقدنا أنّه من الأفضل أنْ تستريحوا».

لمْ يعدْ أومبيلينت ينظر إلى سيقان المبشّرين النّحيفة والطّويلة والبيضاء، بلْ تحوّلت نظراته إلى آكلي لحم البشر الّذين تجمّعوا حول بيت الإنجيل. ومن بينهم، نحو دزّينتيْن أو ثلاث من آكلي لحم البشر عراة تمامًا، وقد تلاصقوا. وكان يتوسّط المجموعة أيضا ناكاسونسوا وكسوا -غوا- كزوب، خادمَا ماكس أومبيلينت. وهما بين ذويهما الآن، فقد تعرّف عليهما ماكس من سرواليْهما الأصفريْن القصيريْن.

قال كزوب شيئا ما إلى آكلي لحم البشر الّذين كانوا يصغون إليه، وهُمْ ينظرون شزرًا إلى ماكس أومبيلينت. أمّا المبشّرون، فقد ابتعدوا عن الشّاحنة، وذهبوا برفقة زينو الفلاشي، وهُمْ ينظرون إلى ماكس أيضًا.

شَعُرَ ماكس، الرّجل الأسود، فجأة، بوحدة لا مثيل لها. لقد ذهب زينو الفلاشي برفقة البيض، بينما انضمَّ كزوب وناكاسونسوا إلى آكلي لحم البشر. وبقي ماكس وحيدًا، وحيدًا مثلما كان في أمريكا وموسكو، فأحسَّ بطعم المرارة في فمه. وتجرَّع الرّوم تحت النّظرات الصّامتة للمبشّرين وآكلي لحم البشر.

أدركتْ بيانكا أنّ الرّجل الأسود ليس على ما يرام. فاقتربت من الشّاحنة وقالت:

- «نحن نرجوك أنْ تعتبر نفسك في بيتك. لقد أخبرنا زينو أنّك هنا لتصوير الحيوانات البريّة».

- «عرفتُمْ سريعًا أنّه يُدعى زينو؟»، قال ماكس.

إنّه يشعر بالغيرة. فقد كان مارك وماتيي يمسكان زينو من يده كأنّه شقيق لهما. إنّ البيض إخوة فيما بينهم.

- «نحن هنا، لأنّنا نحبّ السّود»، قالت بيانكا. «لقد قرّرنا أنْ نُمضي بقيّة حياتنا بينهم».

- «دعوا المواعظ إلى حين»، قال ماكس أومبيلينت. «لا تُتعبوا أنفسكم، فقد تمّ تعميدي».

كان ماكس منزعجًا. فبيانكا كانت تقول: «لأنّنا نحبّ السّود»، تمامًا كما كانت بلانش كنور تقول «أحبّ السّود». إنّها الكلمات نفسها. قفز الرّجل الأسود في الشّاحنة، وكان سرواله الجميل قد تجعّد.

- «هيّا بنا»، أمر ماكس، ثمّ اتّجه نحو المنزل المبنيّ من الخيزران والأوراق والقشّ، المنزل الّذي أُطلق عليه اسم «بيت الإنجيل»، وتبعه المبشّرون الأربعة وهُمْ ممسكون بزينو الفلاشي من يديه. ولم يكن ماكس يرى ذلك، بل كان يشعر به.

داخل بيت الإنجيل، تحلّق آكلو لحم البشر، وهُمْ متلاصقون، في الجهة اليمنى، حول كزوب الّذي كان يحدّثهم بشيء مَا أثار ضحكهم.

- «ماذا تقول يا كزوب؟»، سأل ماكس.

واتّجه نحو آكلي لحوم البشر، فقد كان في حاجة إلى أنْ يصبّ غضبه على أحدهم.

لاذ آكلو لحوم البشر بالصّمت، وحدَّقوا جميعهم في ماكس أومبيلينت في خوف. أمّا المبشّرون الممسكون بذراع زينو، فتوقّفوا

وأخذوا ينظرون بدورهم إلى ماكس.

- «تعال إلى هنا، يا كزوب، وأخبرني بِمَ كُنْتَ تُحدّث المتوحّشين»، قال ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة.

نظر كزوب إلى الرّجل الأسود، ثمّ استدار وحاول الهرب، إلاّ أنّ ماكس قفز، وأمسك به من رقبته. ثمّ شدَّد عليه الخناق، فأخذ الخادم المراهق يتلوَّى بين قدميْ الرّجل الأسود من شدّة الألم.

- «ماذا كنت تقصُّ على المتوحّشين؟»، سأل ماكس أومبيلينت.

- «كزوب قال إنّك صرختَ كثيرًا أثناء السّفر»، قال عجوز أسود مخاطبًا ماكس. «هو يقول إنّكَ صرخت مثل «يا مو»».

احتقن وجه ماكس من شدَّة الغضب، وأحكم قبضته على رقبة كزوب.

- «إنّهم يسخرون منّي»، فكَّر ماكس. «على الأرجح أنّ « يا مو« تعني المخصيّ أو السكّير».

فماكس أومبيلينت يجهل معنى كلمة «يا مو»، لكنّه خمّن أنّها شيء بغيض.

- «على الأرجح أنّ «يا مو» تعني المريض. إنّهم يسخرون منّي لأنّني أشرب الرّوم، لأنّني مخصيّ أو لأنّني مريض».

كان كزوب يبكي تحت قبضة الرّجل الأسود، ويتلوّى في شكل كرة تحت قدميه.

- «لا تغضب منه»، قالت بيانكا. «أُترُكْ كزوب وشأنه، يا سيّد أومبيلينت».

ثمّ وضعت فتاة الإنجيل يديها على ذراع ماكس في محاولة لتخليص كزوب من قبضته.

- «كزوب لمْ يفعل أيّ شيء خاطئ، يا سيّدي»، قال لوقا.

لكنّ ماكس يرفض ترك رقبة كزوب الّتي أحكم قبضته عليها. كان كزوب يبكي، وآكلو لحوم البشر العراة ملتصقون ببعضهم البعض، وهُمْ ينظرون إلى ماكس يمعن في تعذيبه، فهؤلاء المتوحّشون هُمْ متفرّجون بالفطرة، ولمْ يكونوا فاعلين أبدًا، فدورهم الوحيد في هذا الكون يتلخّص في المشاهدة.

تدخّل الإنجيليّون، وحاولوا تخليص كزوب من قبضة ماكس.

- «إنّه يموت، يا سيّدي»، قال زينو الفلاشي.

كسر آكلو لحوم البشر جدار الصّمت فجأة، وطفقوا يصرخون بصوت واحد، محدِّقين في ماكس أومبيلينت:

- «يا مو، يا مو، يا مو مبيلينت».

وغطّى الصّراخ المتواتر لآكلي لحم البشر على صياح كزوب الّذي لا ينقطع:

- «يا مو مبيلينت، يا مو مبيلينت».

تسمّر آكلو لحم البشر مكانهم دون حراك، وهُمْ يصرخون بكلّ ما أُوتوا من قوّة:

- «يا مو! يا مو!».

ترك ماكس أومبيلينت رقبة كزوب الّذي سارع باللّجوء إلى آكلي لحوم البشر. وتوارى وراءهم ليشاركهم الصّياح:

- «يا مو، يا مو».

- «لقد أبهرتهم، يا سيّدي»، قال مارك.

أمسك المبشّرون ماكس من ذراعه، ودخل الجميع بيت الصّلاة، بينما تعالى صراخ آكلي لحوم البشر في الخارج، وهُمْ يردِّدون:

- «يا مو، يا مو مبيلينت».

- «إنّهم ينادونك «يا مو»، يا سيّدي. فلا تَلُمْهُمْ على ذلك».

- «ماذا يقصدون بهذه الكلمة؟»، سأل ماكس.

- ««يا مو» تعني الرّضيع»، قال لوقا.

فتح ماكس زجاجة الرّوم وشرب، ثمّ قال:

- «وفيمَ يشبهني الرّضيع؟ باستطاعتي أنْ أُسكت أفواههم القذرة بطلقتيْن من رشّاش».

- «يا مو، هي أعلى مرتبة في مراتب الشّرف، ويمكن أنْ يسندها آكلو لحوم البشر إلى شخص ما. لقد أبهرتهم. إنّهم يحترمونك»، قال لوقا.

شرح المبشّرون لماكس أومبيلينت أيضًا أنّ «يا مو» هي المقابل «لجلالتك» و«القدير» و«القائد الحربيّ» و«الفوهرر».

- «إنّها أعلى درجة من مراتب الشّرف، يا سيّدي»، قالت بيانكا. «ونحن أيضا سنناديك يا مو».

انفجر المبشِّرون ضاحكين، ضحكوا كما لوْ أنّهم مازالوا في المدرسة. كانوا يبدون أصغر سنًّا. وشاركهم زينو الفلاشي الضّحك، وفي النّهاية حذا ماكس حذوهم. واصل الإنجيليّون شرحهم، قائلين

إنّ الحاكم المستبدّ في نظر آكلي لحوم البشر هو رضيع. فالقائد يساعده الخدم في ارتداء ملابسه ويطعمونه ويلاعبونه مثل مولود جديد.

- «يجتمع المواطنون كلّهم حول القائد الأعلى، وهُمْ متأهّبون لخدمته، تمامًا كما يتحلّق الكهول حول الرّضيع. فإذا استفاق القائد ليلًا، وصرخ كالرّضيع يستيقظ الجميع ويهرعون إليه. فنزوات القائد كنزوات الرّضيع لا بدّ من تلبيتها. لا أحد يعارض رضيعا أو قائدا. ولا أحد يبحث عن المنطق لدى طاغية أو رضيع. فالكلّ يسعى إلى تلبية رغباته. هذا كلّ ما في الأمر».

- «يجب أنْ تكون مسرورًا لهذا، يا سيّدي»، قال الفلاشي. «فلقد حظيت بأعلى درجات الهيبة في نظر آكلي لحوم البشر».

فكّر زينو في أنّ الأسود سيعدل عن ضربه، فقد أصبحت له هيبة في نظر آكلي لحوم البشر. ولمْ يعدْ الفلاشي مُجبرًا على تلقّي الصّفعات حتّى تكون لماكس أومبيلينت هيبة بين المتوحّشين. في الخارج، ما يزال آكلو لحوم البشر يصرخون مردِّدين:

- «يا مو مبيلينت، يا مو مبيلينت».

تناول المبشّرون وزينو الشّاي، واحتسى ماكس أومبيلينت الرّوم. فشعر بثقل في رأسه وتذكّر أنّه قدم إلى هنا من أجل قتل هؤلاء المراهقين الأربعة. «الأمر سيّان بالنّسبة إليّ»، قال الرّجل الأسود في نفسه. «لقد شوّهني البيض، وبعد مكابدتي لكلّ ذلك، بات الأمر عندي سيّان. فلوْ لمْ يُشوّهوني لاختلف الأمر، ولتردّدتُ في قتل المبشّرين. أمّا الآن، فسأقتلهم ولن يؤثّر ذلك فيّ أبدًا».

ثمّ تذكّر ماكس أومبيلينت وهو يشرب الشّاي، كلمات كريتزا: «أنت رسول السّود يا ماكس، والرّسل يملكون الحقّ في القتل. لقد جاء في الأناجيل: «بالنّسبة إلى البعض فإنّنا نحن الحواريّين، ننشر رائحة الموت الّتي تؤدّي إلى الموت. وننشر بالنّسبة إلى البعض الآخر، رائحة الحياة الّتي تؤدّي إلى الحياة». القدّيس بولس 2 (11 - 16)».

- «الأمر عندي سيّان. كلّ شيء عندي سيّان». ثمّ توجّه بالسّؤال إلى زينو الفلاشي:

- «في أيّ يوم نحن، يا فلاشي؟».

- «الأربعاء 17 كانون الأوّل، يا سيّدي»، أجاب زينو.

- «بعد ثلاثة أيّام، أيْ مساءَ يوم السّبت الموافق للعشرين من كانون الأوّل، سيصبح المبشّرون في عداد الموتى. وبالتّالي، فإنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه، فالأمر لديه سواء.

- «أريد أنْ أخلد إلى النّوم»، قال ماكس.

أراد زينو إعداد سرير التّخييم له، إلاّ أنّ المبشّرين أصرّوا على دعوته للنّوم في فراش الواعظ مارك، أحد التّوأمين.

فوافق ماكس، وقبْل أنْ يخلد إلى النّوم، لاحظ وجود بعض الرّوايات البوليسيّة على صندوق خشبيّ يقوم مقام المنضدة. فمارك مبشّرٌ يهوى قراءة الرّوايات البوليسيّة. وهذه جزئيّة لفتت انتباه ماكس أومبيلينت، فقد كان الأسود يفضّل قتل مبشّر لمْ يحبّ يومًا الرّوايات البوليسيّة.

(10)

الحرس الأسود للملازم بلانك

كان ماكس أوميلينت نائمًا في غرفة المبشّر مارك، وهو عارٍ إلّا من تبّانٍ حريريٍّ أزرق، لأنّ الطّقس حارٌّ جدًّا، خاصّة بين جدران المنزل المتكوّنة من خشب الخيزران والقشّ ومن أوراق الشّجر.

فجأة، استوى الرّجل الأسود على السّرير واقفًا حين سُمع صوت صراخ في الخارج، ارتجّت له جدران المنزل.

لقد تدفّق آكلو لحوم البشر إلى غرفة ماكس عبر البابيْن، وهُمْ متلاصقون، ويصيحون، مُحرّكين أيديهم غير عابئين بماكس. فوقف أومبيلينت وأمرهم بالخروج، لكنّ آكلي لحوم البشر استمرُّوا في التّدافع والصّراخ، فامتلأت الغرفة بأجساد المتوحّشين العارية، ليجد ماكس نفسه محصورا في زاويته، بعد أنْ تهشّم السّرير.

لكنّه لمح، عبر النّافذة، شاحنة مركونة أمام بيت الصّلاة، وبقربها توقّفت سيّارة أخرى من نوع الجيب، تحمل علمًا صغيرًا، كذلك الّذي نراه على سيّارات الرّؤساء أيّام الاحتفالات، ونزل منها شابّ يرتدي زيّ لاعب كرة المضرب. إنّه الزيّ الجديد للضبّاط الاستعماريّين، وهو مزدان بشعار ذهبيّ، معلّق على الكنزة، يُشير إلى رتبة ضابط. كان الضّابط شابًّا، لمْ يُتمّ الثّلاثين من عمره مثل زينو الفلاشي تمامًا.

إنّه فتى وسيم، طويل القامة، نحيفٌ، أسمر البشرة. قفز من سيّارة جيب برشاقة، ليتّجه نحو بيت الصّلاة، يتبعه أربعة سُودٍ، حفاةً ومسلَّحين. ويطوِّق هؤلاء السّود العراة إلّا من سراويل قصيرة ذات لون أصفر داكن، أنفسهم بحزام من الخراطيش، بينما يضعون على كتف كلّ واحد منهم بندقيّة طويلة كتلك الّتي كان يحملها جنود نابوليون بونابرت.

هرع المبشّرون لاستقبال الضّابط الّذي ضحك وهو يصافحهم.

يُدعى الملازم بلانك، وقد صافحه زينو الفلاشي بحرارة، كما لو أنّهما صديقان قديمان. بينما اصطفَّ السّود الأربعة، خلف الملازم، في وضعيَّة استعداد. فهُمْ يمثّلون حرس الملازم بلانك الشّخصيّ.

- «ماذا يفعل هؤلاء المتوحّشون في المنزل؟»، تساءل الملازم بلانك.

- «لقد لمحوك، وأنت قادم»، قال لوقا. «لقد دخلوا جميعهم لينبئونا بوصول الملازم بلانك».

كانت جدران البيت على وشك الانهيار، فيما اكتظّت غرفة ماكس أومبيلينت بالمتوحّشين وهُمْ يتدافعون، ويصرخون بشكل هستيريّ: «لقد وصل الملازم بلانك».

- «إنّهم أطفال»، قالت بيانكا.

ثمّ أشارت إلى زينو، وشرحت الأمر للملازم بلانك:

- «لقد حلَّ السيّد زينو ضيفًا علينا. وهو هنا لتصوير الحيوانات البريّة المداريّة».

- «آه، أنت لست واعظًا إذنْ؟»، قال الملازم. «هل أنت سينمائيٌّ؟

لقد سررت بمعرفتك».

صافح الملازم بلانك زينو الفلاشي من جديد. ثمّ استدار نحو السّود الأربعة الحفاة:

- «أَخرجوا السّود من البيت!»، قال الملازم بلهجة آمرة.

- «السّود خارج البيت»، كرَّر الحرّاس الأربعة.

أغمضوا عيونهم واتّجهوا نحو البيت، وهُمْ ملتصقون ببعضهم البعض، ثمّ صرخوا معًا، بكلّ ما أوتوا من قوّة:

- «لِيَخْرُجْ كلّ السّود من البيت! لِيَخْرُجْ كلّ السّود من البيت!».

أمسك الملازم بلانك زينو الفلاشي من كتفيه، وقال ضاحكًا:

- «أستخدم معهم هذا الأسلوب الجديد كي أتأكّد منْ أنّهم لمْ ينسوْا ما أمرتهم به».

ظلّ الحرس يردّدون الأمر بصوت عال حتّى ينُفَّذ على أكمل وجه، إلى أنْ وصلوا إلى عتبة الغرفة وهجموا على المتوحّشين، وهمْ يردّدون:

- «السّود خارج البيت! السّود خارج البيت!».

لَمْ يكنْ أمام آكلي لحوم البشر المتحصِّنين بالمنزل إلّا الفرار من مواجهة البنادق الطّويلة الّتي أشهرها الحرّاس في وجوههم. فتراجعوا إلى غرفة أومبيلينت، وهُمْ يدفعونه. إنّ ماكس عملاق، ويستطيع أنْ يُسقط ثلاثة من آكلي لحوم البشر أرضا بيد واحدة. لكنّهم كثيرو العدد، فكوَّنوا حوله جدارًا من اللّحم الأسود. ولمْ يتنفّسْ ماكس الصّعداء إلّا حين دخل الحرّاس الغرفة وخرج المتوحّشون من بابها

الثّاني، ليظلّ المسلّحون الأربعة الحفاة، الحاملون لبنادق طويلة، واقفين على العتبة، وهُمْ يصرخون:

- «السّود خارج البيت! السّود خارج البيت!».

جلس ماكس أومبيلينت على سرير المبشّر. فاقترب منه الحرّاس السّود شاهرين أسلحتهم في وجهه ومستعدّين للهجوم عليه، ثمّ تحلَّقوا حوله، وحدَّقوا فيه، وهُمْ فزعون، دون أنْ يكفّوا عن الصّراخ:

- «السّود خارج البيت! السّود خارج البيت!»

- «أيّها القردة القذِرة! أيّها القردة القذرون!»، قال ماكس.

وافتكَّ بندقيّة أحد الحرّاس السّود مُحاولًا ضربه بها، لكنّ الأسود تشبَّث بأخمص بندقيّته بكلّ ما أُوتِيَ من قوّة.

- «ابن العاهرة!»، صاح ماكس.

ارتجفِ الحرس السّود خوفًا، وعيونهم جاحظة، فأخذوا يصرخون بأعلى أصواتهم ليتصنّعوا الشّجاعة:

- «السّود خارج البيت! السّود خارج البيت!».

كانت فوّهات البنادق الثّلاث تقترب من جسد ماكس أومبيلينت. وعندما همّ هذا الأخير بتوجيه لكمة إلى أحدهم، شعر بألَمٍ فظيع يُمزّق أحشاءه، أَلَمٍ يلهب النُّدبة الّتي خلَّفتها جريمة الأخوين كنور. فيما تنهال سبطانات بنادق ثلاث عليه ضربًا.

- «قردة قذرون!»، صاح ماكس أومبيلينت.

ثمّ ارتخى جسده، وخارت قواه. فقد ضُرِبَ على نحو جبان ومهين.

كما سقطت من يده البندقيّة الّتي كان يمسكها من أخمصها. لقد هُزم ماكس. وشَعُر بأنّ الحرّاس السّود يجرّونه خارج بيت الإنجيل، وهُمْ يركلونه ويضربونه بفوّهات البنادق.

إنّ ماكس رجل أسود. وقد تلقّى حرّاس الملازم بلانك الأمر بطرد السّود خارج المنزل، فأُلقي جسد أومبيلينت الضّخم، الشّبيه بجذع شجرة بلّوط من قبل الحرّاس وراء بيت الصّلاة. تسلّق النّمل الّذي يغزو المكان رأسه، وهو ينهش جسده الأسود. لكنّه لمْ يشعرْ بلسعات النّمل. لقد هُزم ماكس، وسال من فمه خيط من الدّم، خيط رفيع أحمر. كان دم الأسود يلمع مثل الياقوت في أشعّة الشّمس، لكنّ هذا الخيط الدّمويّ الّذي يسيل من الفم النّيلي سرعان ما كساه النّمل الأحمر.

- «توقّفوا!»، صاح الملازم بلانك، وهو يمسك بزينو الفلاشي من كتفيه، بينما يتحلّق المبشّرون حوله. لمْ تدُمْ عمليَّة إخلاء المنزل سوى بضع دقائق، واستجابة لنداء الملازم بلانك، كفَّ الحرّاس السّود الحفاة، أصحاب البنادق الطّويلة، عن الصّراخ. ثمّ وقفوا في وضعيّة استعداد أمام الملازم والمبشّرين وزينو الفلاشي.

- «على السّود أنْ يتراجعوا خمسين مترًا إلى الوراء!»، أمر الملازم بلانك.

- «على السّود أنْ يتراجعوا خمسين مترا إلى الوراء»، ردَّد الحرّاس السّود في صوت واحد، ثمّ قاموا بأداء التّحيّة العسكريّة وهُمْ يرفعون بنادقهم، ويصرخون مجدّدًا:

- «على السّود أنْ يتراجعوا خمسين مترا إلى الوراء!».

- «غالبًا ما ينفّذون هذه العمليّة»، شرح الملازم بلانك. «عندما أحلّ بمكان ما تابع لإقليمي، يهجم عليّ السّود ويشلّون حركتي، فأضطرّ إلى إبعادهم بهذه الطّريقة: «على السّود أنْ يتراجعوا خمسين مترا إلى الوراء! وها هي النّتيجة كما ترى».

بدأ أحد السّود الحفاة باحتساب خطواته بداية من جدار بيت الصّلاة، متّجهًا نحو الشّمال، وهو يمسك بسلاحه كما لوْ كان يستعدّ للهجوم على قلعة قروسطيَّة.

استعاد ماكس المُلقى عند أسفل الجدار وعيه، وسمع صراخ الحرّاس الحفاة.

-«أبناء العاهرات!»، قال أومبيلينت. «سأقتلكم يا أبناء العاهرات! سأقتلكم أنتم الأربعة الآن. أيّها القردة القذرون!».

اتّكأ ماكس على مرفقه في محاولة للوقوف، وقد غطّى النّمل كامل جسده، فيما كانت النّدبة الّتي خلّفتها جريمة البيض تؤلمه.

لكنّه عجز عن النّهوض، فزحف نحو الشّاحنة. في الحقيبة المعدنيّة الّتي وُضعت داخلها قناني الرّوم الأبيض، يُوجد أيضًا مسدَّسٌ آليٌّ، رشّاش صغير حقيقيّ صُنع في إيطاليا. إنّه أجمل سلاح ناريٍّ على وجه الأرض.

- «سأقتلكم أربعتكم!»، قال ماكس أومبيلينت.

كان يتنفّس بصعوبة، وهو عارٍ إلّا من تبأّن حريريٍّ أزرق، فيما استمرَّ النّمل في نهش جسده. لكنّه لمْ يشعرْ بذلك، فكلّ تفكيره

مركّز على الإمساك بالمسدّس كي يصرع القردة، أصحاب البندقيّات الطّويلة. ومع ذلك، لمْ يتفطّنْ إليه أحد.

شاهد ماكس عجلة الشّاحنة الأماميّة الّتي لا تفصله عنها سوى بضعة أمتار. فأخذ يجرّ جسده الضّخم والعاجز كجذع شجرة. وحين لمست يداه عجلة الشّاحنة الأماميّة، حاول تسلقّها، لكن جسده الضّخم الأسود القذر كان أثقل من اللّازم، فخانته قواه وسقط. إنّ رأسه وصدره الآن تحت الشّاحنة، هذا كلّ ما استطاع تحقيقه. بينما استولى النّمل والذّباب وآلاف الحشرات على جسده من جديد، فأخذ يئنّ بصوت خافت.

أمّا حرّاس الملازم بلانك الأربعة، السّود الحفاة، أصحاب البنادق الطّويلة، فقد كانوا يصرخون بلا مبرّر وعلى نحو آليّ، وهُمْ يُهاجمون الجهات الأربعة. ولمْ يعدْ ماكس يسمع صراخهم، فقدْ أُنهك كليًّا. إنّه مهزوم.

(11)

ممنوع على الشّهداء

لَمْ يَكُنْ المبشّرون الأربعة على علم بكلّ ما حدث للرّجل الأسود.

- «أين ماكس أومبيلينت؟ هل هو نائم؟». سألت بيانكا.

- «أجل»، أجاب مارك. «إنّه نائم في غرفتي. لقد أغلقت الباب حرصًا على راحته».

كان المبشّرون الأربعة والملازم بلانك في بيت الصّلاة، يتكلّمون بصوت خافت حتّى لا يوقظوا ماكس أومبيلينت. فالإنجيليّون وزينو الفلاشي مرحون، ولمْ يخطرْ ببالهم أبدًا أنّ ماكس قد تعرّض إلى الضّرب من طرف الحرّاس السّود، وأنّه، في ذلك الوقت، كان مُلقًى تحت الشّاحنة مغشيًّا عليه، فيما النّمل ينهش جسده.

شارك الملازم بلانك زينو الفلاشي والمبشّرين الأربعة كوبًا من الشّاي. إنّه شابّ في السّادسة والعشرين من العمر، وهو حاصل على الإجازة في الحقوق. كان فتى ذكيًّا ووسيمًا، كما أنّه القائد الأعلى للإقليم الّذي يعيش فيه آكلو لحوم البشر. وهو من يسنُّ القوانين ويسهر على تطبيقها. إنّه القائد الدّينيّ والسّياسيّ والعسكريّ. ولأنّ الإقليم الّذي يسيّره لا يوجد فيه بِيضٌ آخرون غيره، فقدْ شعر الملازم بالسّعادة لمجيء المبشّرين. وقدْ تعرّف إليهم فوْرَ قدومهم، ثمّ بحث

عن ذريعة من أجل زيارتهم. فالملازم بلانك يشعر بالحنين إلى الوجوه البيضاء.

وُضعت أمام البِيض السِّتّة -المبشّرين وبلانك وزينو الفلاشي- ستّة أكواب من الشّاي، بينما بقي يتردّد، في الخارج، صوت الحرّاس الحفاة، وهُمْ يصرخون:

ـ «على السّود أنْ يبتعدوا مسافة خمسين مترًا عن المنزل!».

كان آكلوا لحوم البشر قد أُبعدوا عن المنزل مسافة خمسين مترًا. ولوْ لمْ يحصلْ ذلك، لتشبّثوا بالأبواب وبالنّوافذ، ولَمَا تمكّن الملازم من الحديث إلى الإنجيليّين.

- «أنتم أوّل المبشّرين الّذين ألتقيهم في إقليمي»، قال الملازم. «وقدْ جئت، إلى هنا، لأُسدي لكم بعض النّصائح الأساسيّة الّتي ستساعدكم على تجنّب حوادث طارئة وتفادي مضايقات ممكنة. أوّلا: أنا الملازم بلانك، كائن ذو جوهر إلهي في نظر آكلي لحوم البشر. لا تبتسموا، فأنا أدرك أنّ تأكيدًا كهذا سيكون سخيفًا، لوْ قِيلَ في أيّ مكان آخر من الأرض، لكنّه ضروريّ هنا. وأنا لا أطلب منكم أنْ تُثبتوا لآكلي لحوم البشر أنّني كائن خارق، فأنا أفهم أنّ المبشّر غير قادر على إثبات أنّ الملازم يستمدّ القدسيّة من الله، لكنْ تجنّبوا أيّ نقاش حول هذا الموضوع. وَدَعُوا آكلي لحوم البشر يعتقدون أنّني كائن خارق.

عضّ زينو الفلاشي على شفتيه، حتّى لا ينفجر ضاحكًا، في حين كان العقيد جادًّا للغاية، وقال:

- «بإمكانكم أنْ تُخبروا آكلي لحوم البشر بأنّهم متساوُون، طِبقًا لميثاق الأمم المتّحدة وللإنجيل، في الحقوق والواجبات مع كافّة البشر على سطح الأرض، أمام الله وأمام الأمم المتّحدة. فهذا ما ينصّ عليه القانون. وهو أمر غير قابل للنّقاش، لأنّ كلّ النّاس وكل الشّعوب سواسية في ما بينهم. فآكلو لحوم البشر هؤلاء، هُمْ سواسية مع الهولنديّين والسّويسريّين. وإنّ كلّ متوحّش يحظى بنفس الحقوق الّتي يتمتّع بها أينشتاين وشارلي شابلن، أمام الله وأمام الأمين العامّ لمنظّمة الأمم المتّحدة. وآكلو لحوم البشر، هُمْ سواسية مع أعضاء الأكاديميّة الفرنسيّة والفائزين بجائزة نوبل. فالله ومنظّمة الأمم المتّحدة لا يفرّقون بين البشر، لأنّهم سواسية، سواءً كانوا يعيشون على الأشجار مثل القردة أو يعيشون في ناطحات السّحاب. وهذا مفهوم إنسانيٌّ جميلٌ جدّا. لذلك، يُمكنكم أنْ تُفصحوا عنه لآكلي لحوم البشر. وحينها، سيعرف كلّ متوحّش أنّه متساوٍ مع أيّ إنسان على وجه الأرض، لكنّني أمنعكم -مع احتمال عقوبة الطّرد الفوريّ لمنْ يُخالف الأمر- منْ أنْ تُوحوا إليهم بأنّهم متساوون مع الملازم بلانك. فأنا الرّجل الوحيد على وجه الأرض الّذي لا يتساوى معهم. ومن الضّروريّ أنْ يتقبّلوا هذا الاستثناء الصّغير.

- «وهل تُعتبر مساواتك معهم إهانة إلى هذه الدّرجة؟»، سألت بيانكا ساخرة.

-«أنا لا أقصد ذلك»، قال الملازم. «الأمر متعلّق بضبط النّظام.

فالرّجل المتحضّر ليس مغرورًا، فهو يخضع لمنْ يتساوى معه. لكنّ آكلي لحوم البشر لا يخضعون لشخص مُساوُون له، بلْ يخضعون لِمنْ هُمْ أعلى وأعظم منهم شأنًا. إنّهُمْ أشدّ كبرياءً منْ أنْ يخضعوا لبشر. ومن الضّروري أنْ أَظَلَّ في أعينهم إلاهًا، حتّى أُسمعَ وأُطاع».

ابتسم الملازم، وكان لباسه لائقًا جدًّا.

- «أمّا النّقطة الثّانية، فهي متعلّقة بالأسلحة. لقد جلبت لكُمْ صندوقيْن من الأسلحة والذّخيرة».

وأخبر الملازم زينو الفلاشي أنّ المبشّرين قدموا إلى تروبيك دون قطعة سلاح واحدة.

- «إنّ النّاس لا يحملون أسلحة في أوروبا»، قال زينو. «فحمل السّلاح ممنوع في بلادنا».

- « إنّ حمل السّلاح إجباريّ في تروبيك، ومن واجبي أنْ أتحقّق أنّ البيض الموجودين في إقليمي، مسلّحون بشكل لائق».

- «نحن مبشّرون»، قال مارك. «ولسنا في حاجة إلى الأسلحة، كما لسنا في حاجة إلى الدّفاع عن بضائع أو أموال مثلما يفعل التّجار، ولا وطن لدينا لندافع عنه، كما يفعل الجنود، إضافة إلى أنّنا لا نملك ثروات دنيويّة. ولهذا، فنحن لسنا في حاجة إلى الأسلحة».

- «يجب أنْ تُدافعوا عن حياتكم»، قال الملازم بلانك.

- « إنّ الخطر الأكبر بالنّسبة إلى المسيحيّ ليس الموت، بل الخطيئة.

وإنّ الأسلحة الناريّة لا نفع لها، في حماية أنفسنا من الخطيئة».

- «لا تنسوْا أنّكم تعيشون بين آكلي لحوم البشر».
- «لا يُوجد هناك أيّ دليل على أنّهم آكلو لحوم بشر»، قال مارك. «هل منْ دليل ماديٍّ على أنّ منْ نُريد هدايتهم لاعتناق المسيحيّة، هُمْ فعلًا منْ آكلي لحوم البشر؟».
- «أنا مشغول بأشياء أهمُّ من جمع الأدلّة الماديّة حول أكلهم لحوم البشر»، قال الملازم.
- «في غياب الأدلّة، لن تكون قادرا على إثبات أنّ الأهالي همْ من آكلي لحوم البشر»، قال مارك. «وتهمة أكل لحوم البشر الّتي أُلصقت بالشّعوب البدائيّة، هي في الغالب كذبة اختلقتها الشّرطة لتبرير مجازرها. «لقد قمنا بسفك دمائهم لأنّهم كانوا متوحّشين وآكلي لحوم بشر». إنّها عبارة اُستهلكت على نحو إجراميٍّ. فبعد زيارته لشعب بدائيٍّ يكتب الصّحفيّ: «أنا عائد من زيارة لآكلي لحوم البشر». وهذا عمل غير أخلاقيٍّ».
- «لا توجد أيّ مقبرة على كامل تراب الإقليم، لأنّهم يأكلون موتاهم»، قال الملازم. «فلوْ كان الأمر خلاف ذلك، فأين جثثهم إذنْ؟».
- «هذا ليس دليلًا على أكل لحوم البشر»، قال مارك. «فأنْ تختفي الجثث بعد بضعة أيّام من وفاة أصحابها، فهذا أمر عاديّ، لأنّ كلّ متر مربّع من هذه الأرض، يعجّ بملايين الكائنات الصّغيرة. إنّ هذه الأرض الحيّة لا تترقّب إلّا جثّة

كيْ تبتلعها بأقصى سرعة. فهنا يعيش النّمل والدّود والذّباب، وهذه الدّويبات هي الّتي تقوم بعمليّات التّنظيف في تروبيك. لذلك، من الطبيعيّ أنْ لا يعثر حرّاسك الشّخصيّون على جثث الموتى، لكن هذا ليس دليلًا على أكل لحوم البشر».

- «لقد جلبت لكم الأسلحة»، قال الملازم. «سأقدّمها لكم هديّة. وحتّى لوْ لمْ تستعملوها، سيعرف آكلو لحوم البشر أنّكم تملكون أسلحة، وبالتّالي لن يهاجموكم».
- «لا نريد أسلحة في بيت الإنجيل»، قالت بيانكا.
- «لوْ وقع اغتيالكم، فإنّ الرّأي العامّ سيُشيع أنّكم لستُمْ سوى شبّان متهوّرين، وأنّكم تستحقّون الموت. سيلومكم الجميع».
- «في كلّ الأزمنة، كان الإيمان تهوّرًا، من وجهة نظر الشّرطة»، قالت بيانكا. «ثمّ إنّنا على يقين بأنّ هؤلاء المساكين الّذين أتيْنا لتنصيرهم، ليسوا من آكلي لحوم البشر».
- «حسنا». قال الملازم، «فلْيَكُنْ ذلك، إلاّ أنّ القانون يُحجِّر على البِيض الذّهاب إلى إقليمٍ فيه قبيلة عُرفتْ بأكل لحوم البشر».
- «حوارنا لا جدوى منه، يا سيّدي الملازم»، قال لوقا. «فنحن مسلّحون، ولكلّ جيش أسلحته الخاصّة به، نحن جنود المسيح وسلاحنا هو إيماننا. نحن لمْ نخالفْ القانون، فلم نأت إلى تروبيك دون سلاح».
- «القانون لا يعتبر الإيمان نوعًا من الأسلحة الدّفاعيّة ضدّ آكلي لحوم البشر»، قال الملازم.

- «كلّ صفحة من تاريخ البشريّة تُبيّن لنا أنّ الأسلحة المعنويّة أكثر نجاعة من الأسلحة النّاريّة»، قال مارك.

- «سأقنع نفسي بأنّكم تحملون أسلحة، فقط من أجل إرضائكم»، قال الملازم. «وسأعترف بقيمة الأسلحة المعنويّة الّتي تملكونها، لكن بصفتي حاكم هذا الإقليم أُعلن حاجتكم إلى عُدَّة إضافيّة من الأسلحة الناريّة».

- «نحن نرفض الأسلحة»، قالت بيانكا.

- «أنا ألمس فيكم إصرارًا على الاستشهاد»، قال الملازم. «والقانون يمنعني من السّماح لكم بتحقيق هذا الحلم. فلا يجوز أنْ أسمح لشخص بتسليم نفسه طوعًا لحيوانات بريّة أو لآكلي لحم البشر. إنّها غاية نبيلة، ولكنّها محظورة كليًّا. فإذا أردتم أنْ تصبحوا شهداء، عليكم بالبحث عن إقليم آخر».

* * *

استعاد ماكس أومبيلينت وعيه. وكانت أوّل فكرة راودته هي فكرة الانتقام. إنّه ما يزال ممدّدا تحت الشّاحنة. مسح العرق عن جبينه، وفمه ملطّخ بالوحل والدّم. ثمّ تخلص من النّمل العالق بجسده، وحاول الوقوف، لكنّه فشل في ذلك. فالألم الّذي تغلغل في أحشائه شبيه بمرساة تشدّه إلى الأرض.

- «لا بدّ أنْ أقتلهم»، قال ماكس. «لو عجزت عن النّهوض، سيرحلون ولن يكون باستطاعتي قتلهم، أولاد العاهرة!».

سمع ماكس أومبيلينت أصواتًا تقترب. كان رأسه ونصف

جسمه تحت الشّاحنة. فتح عينيه، وشاهد سيقانًا بيضاء قرب عجلات الشّاحنة. إنّها السّيقان الطّويلة والنّحيفة للمبشّرين وزينو الفلاشي والملازم بلانك.

قال الملازم للمبشّرين:

- « ليس السّود في تروبيك بحيوانات. يُوجد في الإقليم المجاور عالم روسيّ يحاول، منذ عشرين سنة، أنْ يزاوج السّود مع القردة ليُبيّن أنّ الإنسان أصله قرد. ولكنّ هذا مستحيل. فالجنس البشريّ حلقة مغلقة. الإنسان لن يخرج من الحلقة الملكيّة للجنس البشريّ، وسيبقى فيها إلى الأبد. فآكلو لحوم البشر ليسوا حيوانات، وإنّما همْ بشر. لكن، وبعيدًا عن علاقتهم بالجنس البشريّ، فإنّه لا وجود لأيّ رابط قربى يجمعهم بنا. ربّما يمثّلون موضوعا مهمّا بالنّسبة إلى الأطبّاء، أو إلى علماء الأنثروبولوجيا أو إلى مُديري المستعمرات. أمّا أنتم، أيّها المبشّرون فقد بكّرتم بالمجيء إليهم. اذهبوا لزيارة قبيلة أخرى أكثر تحضّرًا. فأنتم تهدرون وقتكم مع آكلي لحوم البشر.

- «آكلو لحوم البشر في حاجة ماسَّة إلى الإنجيل». قال أحد المبشّرين. «إنّهم في حاجة ملحة إلى يسوع. إن خطر الموت يترصَّدهم. إنهم يعيشون في غمرة العصور البدائية، إلى أن جاء الرجل الأبيض إلى أراضيهم. وعندما تلتقي حضارتان وتكونان مجبرتين على العيش في فضاء واحد فإنّ نفس القوانين الصّارمة ستُطبّق عليهم، كما هي الحال بالنّسبة إلى الأواني المستطرقة في مجال الفيزياء، إذْ لا مناص من أن يكون مستوى

السّائل هو نفسه في كلّ منها. وفي وضعيتنا نحن، يجب على هؤلاء السّود أن يبلغوا مستوى الإنسان المتحضّر. وإذا لم يحدث ذلك فإنّ الإنسان البدائيّ سيموت. ففي ظرف عشر سنوات، اختفت مئات المجموعات من على وجه الأرض لأنهم وجدوا أنفسهم في اتصال بحضارة البيض. نحن هنا لمساعدتهم. وحده الإنجيل قادر على مساعدتهم.

الآن الملازم بلانك هو الذي يتكلم. وماكس أومبيلينت يستمع إليه. قال الملازم:

- «قدومكم إلى هنا سابق لأوانه يا أصدقائي. آكلو لحوم البشر السّود لا يفهمون شيئا. أنا لا أنكر أنهم في حاجة إلى الإنجيل. الإنسان في حاجة دائمة إلى الإنجيل. أتعتقدون أن الإنسان الذي كان يعيش قبل ميلاد المسيح لم يكن في حاجة إلى الإنجيل؟ هذا مؤكّد طبعا. ولكنّ المسيح لم يظهرْ على الأرض لا في الحقبة الّتي كان النّاس يعيشون فوق الأشجار، ولا عندما كانوا يعيشون في المغارات أو في كهوف العصر الحجريّ. لقد انتظر ابن الربّ أن يبلغ النّاس درجة معيّنة في سلّم الحضارة، ليظهر في فلسطين، قبل ألفي سنة. أيّامها لمْ يكن البشر يعيشون عراة مثل الدّيدان ولا فوق الأشجار. لماذا تريدون أن تقوموا بعمل يفوق ما فعله الربّ رفعة وتزيدوا عليه؟ لماذا أتيتم إلى آكلي لحوم البشر في حين أن الوقت لم يحن بعد؟».

- «إنّهم في خطر»، قال لوقا. «لهذا السّبب جئنا إليهم. إنّ خطرًا مُميتًا يتهدّدهم. خطرًا وشيكًا».

استمع ماكس أومبيلينت إلى الحوار كاملًا. كانت سيقان البيض قريبة من الشّاحنة الّتي يرقد تحتها. لقد تعرف إلى ساقيْ الملازم بلانك، الشّبيهتيْن بساقيْ لاعب كرة قدم.

- «يسوع لن يأتي اليوم إلى آكلي لحوم البشر كما لم يأتهم في الماضي». قال الملازم. «مازال الوقت مبكّرًا. السّود لا يعرفون إلا النّوم تحت السيّارات، كالخنازير. أُنظروا! أُنظروا إلى جسد هذا الرّجل الأسْود. هل تعتقدون أنّ يسوعًا قَدِم إلى الأرض من أجله؟ هل تعتقدون أنّ يسوعًا تسلَّق تلّة جلجلة من أجل هذا الكمّ من اللّحم الأسود النّائم كالكلب تحت الشّاحنة؟».

أحسّ ماكس أومبيلينت بركلة على وركه. فالملازم لاعب كرة قدم جيّد، وقدْ ضرب ماكس أومبيلينت على كلْيَتَيْهِ.

- «أنا أضربه ومع ذلك لا يحرك ساكنًا»، قال الملازم. «كيف تُريدونه أنْ يتأثّر بما جاء في الإنجيل وهو لمْ يتأثّرْ بركلتي؟ أنتمْ تُهدرون وقتكم معهم».

لمْ يتحرّكْ ماكس أومبيلينت، بلْ تلقّى ركلة الملازم بلانك وقد صرَّ على أسنانه، وتشنّجتْ قبضتا يديْه. ومثل حيوان بريّ، قاس المسافة الّتي تفصله عن الملازم كي ينقضّ على رقبته ويخنقه.

- «يسوع لمْ يأتِ إلى الأرض من أجلي أنا، من أجل الأسود ماكس أومبيلينت. أنا أكثر وحشيّة وأكثر سوادًا من أنْ يكلّف ابن الربّ نفسه عناء النّزول من أجلي. ولكنّني سأُكلّف نفسي عناء مغادرة هذا المكان من أجل الملازم بلانك...».

كان مستعدًّا للقفز، وقدْ توتّرتْ عضلاته مثل قوسٍ حديديٍّ. فوقف مُستعينًا بقبضتيْه وأصبح شبيهًا بسهمٍ مُستعدٍّ للانطلاق. ولكنّ شيئا ما تمزَّق، فجأة، في أحشائه وتدفّق ألمٌ من الدّاخل كأنّه بركان. فَلان الجسد المشدود وارتخت عضلاته وسقط في استسلام تامّ.

ابتعدت سيقان الملازِم بلانك عن الشّاحنة، ثمّ سمع ماكس صوت المحرّك. لقد ركب الملازم سيّارة الجيب. وقبل أن ينطلق ردَّد قوله:

- «حتّى يسوع لن يكلّف نفسه عناء المجيء من أجل السّود. لمْ يحن الوقت بعد. إلى اللّقاء، يا أصدقائي».

ثمّ أشار الملازم إلى جسم ماكس أومبيلينت المُلقى تحت الشّاحنة.

- «حتّى أجمل خلق الله، حتّى يسوع، لن يُكلِّفَ نفسه عناء المجيء من أجلي»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه، ثمّ صرَّ أسنانه وعضَّ التّراب كما لو كان يعضّ على الظّلم. تكسَّر أحد أضراسه فبصقه ماكس وكأنّه لم يكن ينتمي إليه. وسال الدّم من لثّته. ثمّ سمع صوت الفَلاشي يستأذن من المبشّرين كي يذهب ليرى ما إذا كان سيّده قد استيقظ.

- «سأذهب للاطمئنان على السيّد ماكس أومبيلينت، لربّما يحتاجني في شيء ما». وخيّم الصّمت. فشعر الرّجل الأسود بأنّه يقترب من الموت وبكى كمسيح وحيد، ليس على تلّة جلجلة بل تحت شاحنة حارقة.

(12)

صفعات للفَلاشي

ماكس أومبيلينت يحلق ذقنه.

لقد رحل الملازم بلانك وحرّاسه الحفاة حاملو البنادق الطّويلة، منذ عدَّة ساعات. كان زينو الفَلاشي ممسكًا بالمرآة، في وجلٍ، أمام الرّجل الأسود الصّامت، الّذي يضع في كلّ مرّة، الفرشاة وشفرة الحلاقة على الحقيبة المعدنيّة، ثمّ يتناول القنّينة ويشرب، فأصبح نَفَسُهُ متأجّجًا مثل قاذفة اللّهب.

كان ماكس أومبيلينت يجهل الإهانات الّتي يتعرَّض إليها السّود في تروبيك، قال في نفسه:

- «لقد كان في وسع حرّاس الملازم بلانك قتلي، وما بقائي على قيد الحياة إلّا محض صدفة. لو كنت ميتًا، في هذه اللّحظة، لالتهم النّمل والذّباب والدّود جسدي، دون أنْ يحرّك أحد ساكنًا من أجلي، فلن يقول أيٌّ كانَ، شيئًا عندما يموت رجل أسود. لكنّني مازلت حيًّا أرزق لأنّي أسود، والسّود يتمتّعون بالقوّة. إنّهم يقعون دائمًا على أرجلهم، كالقطط تمامًا».

تأثّر ماكس أومبيلينت، أيّما تأثّرٍ، بمعاناة السّود في تروبيك. وندم على مجيئه إلى هنا، فلا ينبغي على رجل أسود الذّهاب إلى تروبيك مطلقًا.

- «من الّذي أمر الحرّاس بإخراجي من بيت الصّلاة؟»، سأل الرّجل الأسْود. «منْ أمرهم بقتلي؟».

- «لا أحد، يا سيّدي»، ردّ زينو الفَلاشي، والمرآة ترتجف بين يديه. «لمْ يتوقّعْ أيّ مِنَّا أنّكَ ستُهاجَم من قِبَل هؤلاء القِرَدة، أصحاب البنادق الطّويلة. فالملازم أَمَرَ بإخراج السّود فقط».

- «وأنا، ألست أسْود؟ ألمْ أكنْ في البيت؟».

- «بلى، يا سيّدي»، قال زينو. «كنّا نظنّ أنّك نائم، ولمْ يعلمْ أحدٌ أنّ هؤلاء الوحوش السّود كانوا سيهاجمونك».

- «اخرسْ!»، قال ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة.

ثمّ خمَّن: «لأنّني أسود وبسبب وجودي هنا في تروبيك، يصبح لأيّ متشرّد بائس، تابعٍ لحرس ملازمٍ أبيض مجهول الحقُّ في قتلي. أيًّا كانَ».

- «لقد كُنتَ برفقة البيض، عندما أمر الملازم بطردي من البيت، أَليْسَ كذلك؟ حينَ صاح الرّجل الأبيض بلهجة آمرة: «السّود خارج البيت! على السّود أن يتراجعوا مسافة خمسين مترًا عن البيت»، كُنتَ معهم. أَليْسَ كذلك؟ أنتم البيض تريدون دوما أنْ تظلّوا مع بعضكُم البعض، وترفضون أنْ يشارككُم السّود نفس المكان. أَليْسَ كذلك؟».

ضرب ماكس المرآة الّتي يُمسك بها الفَلاشي بقبضة يده، فأحالها إلى شظايا. وحين انحنى زينو لجمعها، وكزه ماكس أومبيلينت، ثمّ لطمه بعنف على وجهه حتّى سقط على ركبتيه.

- «السّود خارج البيت»، أليْسَ كذلك؟ «على السّود أنْ يتراجعوا مسافة خمسين مترًا عن البيت». أليْسَ كذلك؟».

وسدَّد له صفعة ثانية على وجهه الشّاحب الّذي يعاني من سوء التّغذية.

- «على السّود أنْ يتراجعوا مسافة خمسين مترًا عن البيت!»، قال ماكس.

ثمّ عاجله بصفعة ثالثة، صفعة جعلتْ أنف الفَلاشي ينزف دمًا.

لمْ يعدْ الرّجل الأسود قادرًا على ضبط نفسه. ورغم أنّ زينو الفَلاشي ليس رياضيًّا، إلّا أنّه يملك قوّة تُخوّل له التّصدّي ليد الرّجل الأسود. فأمسك هذه اليد اليمنى بكلّ ما أُوتي منْ قوّة.

ذات مرّة، هجم دبّ على زينو في جبال الكاربات[1]. وكان الفَلاشي وحيدًا وسط الغابة، فتشبّث بالدبّ حين هاجمه، كما يفعل الآن مع ماكس أومبيلينت. ورغم أنّه لا يمارس أيّ رياضة، فإنّه كان أشدّ من الحيوان القويّ، وهزمه. خارت قوى الرّجل الأسود، فلمْ يعدْ باستطاعته مواصلة الضّرب. لكنّ الفَلاشي تذكّر فجأة، أنّه استُؤجر كيْ يسمح لماكس أومبيلينت بصفعه، فترك يد الرّجل الأسود.

- «معذرة يا سيّدي»، قال زينو. «أرجو أنْ تصفح عنّي».

فانهال وابل من اللّكمات على رأسه. ومع ذلك، لمْ يدافعْ عنْ نفسه، فيما راحتْ يدا ماكس المحرَّرتان تضربان الفَلاشي الّذي اكتفى

(1) جبال في أوروبا الوسطى. (المترجمة).

بمسح الدّم عن ذقنه. ثمّ ما لبث أنْ سقط الرّجل الأسود على ركبتيْه، والدّموع تسيل من عينيه. ومن وراء هذه الدّموع، تعرَّف زينو إلى وجهه الّذي ابيضَّ برغوة صابون الحلاقة. كان ذلك الوجه مُخيفًا.

- «لمَ لمْ تأتِ لنجدتي؟»، صاح ماكس أومبيلينت.

إنّ اليد الّتي أمسك بها الفَلاشي تؤلمه، كما تؤلمه كلّ الأحداث الّتي وقعتْ في ذلك اليوم: الضّربة الّتي سدّدها له الحرّاس أصحاب البنادق الطّويلة وركلة الملازم وضحك آكلي لحم البشر والوحدة.

- «أنتَ خادمي»، صاح ماكس. «أنا لمْ أستأجركَ كيْ تقضي وقتك في الحديث مع البيض».

نهض زينو، وهو ينتظر المزيد من الصّفعات، طبقًا لما تضمّنه عقد العمل.

- «إنّ هذه الضّربات جدِّية، ضربات حقيقيّة»، صاح الأسود. «لمْ تكنْ ضربات شكليَّة، ولمْ أضربك كيْ أُثير إعجاب المتوحّشين، بلْ لأنّك تستحقّ ذلك!».

تحلَّق الإنجيليّون حول الفَلاشي، وأنقذوه منْ ماكس. فمسح زينو الدّموع والدّماء من على وجهه، وقدْ لاحتْ على شفتيه ابتسامة رضا.

- «بداية من هذه اللّحظة، أنا حرّ»، قال زينو في نفسه. «لمْ أعْد مدينًا لأيٍّ كانَ بشيء. فقدْ تلقيّت اللّكمات والضّربات والصّفعات الّتي كُنتُ قدْ تقاضيتُ المال من أجلها. وما هذه اللّحظات العصيبة الّتي مررتُ بها إلّا ضريبة، كي أكون حرًّا الآن».

إنّ الفَلاشي مسرور جدًّا، لأنّه تمكّن من ضبط نفسه، ولمْ يتصدَّ لماكس. فمِنْ أشدّ الأشياء صعوبة أنْ تترك أحدهم يضربك دون مقاومة.

- «لو قمت بضرب الرّجل الأسود، لَما حظي بهيبة في أعين آكلي لحم البشر»، قال زينو في نفسه. «لكنّني قمتُ بواجبي حين منعتُ نفسي من ضربه. وأصبح للأسود هيبة الآن». كان الدّم ينزف من أنف الفَلاشي، ويسيل على شفتيْه وذقنه. فمسحه براحة يده الّتي احمرّتْ بأكملها.

- «سائقك ليس مذنبًا قطّ، يا سيّدي»، قال لوقا. «لقد ظلمتَه حين ضربتَه. فقد كُنَّا على يقينٍ من أنّك نائم في غرفة مارك، لذلك تجنّبْنَا إزعاجك، وتحدّثنا بصوت خافت طيلة الفترة الّتي قضّاها الملازم بيننا».

أعطتْ بيانكا زينو الفَلاشي منديلا أبيض كي يتمكّن من مسح وجهه الّذي غطّاه الدّم.

- «لمْ نكنْ نعلم أنّ أولئك الحرّاس الوحوش قد هاجموك»، قال مارك. «لمْ نكنْ نعلم شيئًا».

- لماذا لمْ تطلب النّجدة يا سيّدي؟ فلوْ فعلتَ ذلك، لكان الملازم بلانك أوّل منْ سارَعَ لنجدتك، هو لنْ يسمح بأنْ يسيؤوا معاملتك. سنراسله اليوم كي يعتذر منك. ونحن على ثقة بأنّه سيتأسّف للحادثة، فهو رجل متحضّر.

- «لماذا ركلني الملازم بينما كنتُ ملقًى تحت الشّاحنة؟»، سَأَلَهُم الأسود.

- «لم يكنْ العقيد يعرف أنّ منْ يركله هو أنت»، قال مارك. «لوْ أنّ الملازم يعلم، لَمَا فعل ذلك».

ألقى الرّجل الأسود بقنّينة الرّوم، وصاح:

- «لقد شاهد كومة من اللّحم الأسود، فضربها! إنّ الأسود يُضرب كما يُضرب الكلب، ويكفي أنْ تكون أسود حتّى يركلوك بأحذيتهم».

أصبح ماكس يرتجف مثل شجرة عظيمة سوداء، شجرة هزّتها جميع عواصف الكراهيّة والانتقام.

- «ملازمكم بلانك كان يضربني، وهو يشرح لكم استحالة نزول المسيح على الأرض من أجل أومبيلينت الأسود، فأنا شديد السّواد. وحتّى يسوع لن يكلّف نفسه عناء المجيء من أجل أسود».

التفت ماكس إلى المبشّرين الأربعة، وهو يتوعّدهم، مُحْكِمًا قبضتيْه وعلى وجهه الأسود بقايا من رغوة الصّابون الأبيض. كان يثير فيهم الخوف حين يصرخ في وجوههم بصوته المبحوح:

- «سيأتي يسوع من أجل السّود! أمّا إذَا كان يُفكّر بنفس الطّريقة الّتي يفكّر بها ملازمكم بلانك، ولا يرغب في أنْ يكلّف نفسه عناء المجيء من أجل ماكس أومبيلينت ومن أجل بقيّة السّود، فسنصعد نحن إلى السّماء، وسنجلبه بالقوّة إلى الأرض. وحينها، سيكون لأجلنا نحن فقط، نحن السّود، وسنقوده عُنوة إلى الجلجلة حتّى يُصلب مرّة أخرى ولكن من أجل الجنس البشريّ غير الأبيض.

سيكون مجبرًا على فعل هذا الأمر. ولن يستطيع الإفلات منه، لأنّه أمرٌ مستعجل! آمين!».

- «كان عليك أنْ تُنبّهنا بأنّك تحت الشّاحنة، يا سيّدي»، قال مارك. «لوْ فعلت ذلك لَمَا ضربك الملازم».

- «لا ينبغي أنْ يُركل أيّ أسود!»، صاح ماكس أومبيلينت. «أبدا! ولا يهمّ من يكون هذا الأسود! فقد تسوَّلنا إلى حدّ هذه اللّحظة الشّفقة، كما تسوَّلنا المساواة والحريَّة. لقد تسوّلنا كافّة أنواع المعجزات، أمّا الآن فسنبعث فيكم الرعب، ولن تضربونا، لن تضربوا السّود مجدّدا. لن تصفعوا أيّ أسود أبدا! أبدا! لأنّكم ستشعرون منذ الآن بالخوف! فوحده الخوف يصنع المعجزات!».

مسح ماكس أومبيلينت الصّابون من على وجهه. وتوقّف عن حلق ذقنه، ثمّ صاح في وجه زينو:

- «سأرحل. أحتاج إلى عشرة حمّالين».

- «ابق معنا، أرجوك يا سيّدي»، قال لوقا. «ستكون على ما يرام هُنا، فَابْقَ معنا أرجوك». لمْ يجبْ ماكس أومبيلينت، فهو يعرف أنّ اليوم هو الأربعاء الموافق للسّابع عشر من كانون الأوّل، وينبغي أنْ تُنفّذ جريمة القتل يوم السّبت الموافق للعشرين من كانون الأوّل. لذلك، فليس هناك وقت يُضيّعه.

(13)

ذهب الجلد

- «ستبقى هنا مع المبشّرين يا زينو»، أمر ماكس أومبيلينت. «احرصْ على أن تكون الشّاحنة مستعدّة للانطلاق في أيّ لحظة. سنرحل مساء السّبت. وسأتّصل بك إنْ احتجت إليك».

كان عشرة من آكلي لحوم البشر يحملون حقائب الصَّفيح في انتظار موعد الرّحيل. سيذهب ماكس أومبيلينت بينما سيظلّ زينو مع المبشّرين.

- «يُؤسفني أنْ لا أرافقك، يا سيّدي»، قال الفَلاشي.

- «ستكون مرتاحًا أكثر هنا»، قال ماكس. «أنت أبيض، وسأتركك مع المبشّرين البيض».

شعر لوقا وماتيي ومارك وبيانكا بالحرج. فقد وصل ماكس في صبيحة هذا اليوم. ولمْ ينمْ سوى بضع ساعات في الشّاحنة، حتّى استيقظ عند وصول بلانك. فوقعتْ حادثة اشتباكه مع حرّاس الملازم الّذي قام بركله في ما بعد، ثمّ حادثة صفعه لزينو الفَلاشي. لقد كان يوما سيّئًا.

- «ابقَ حتّى الغد، يا سيّد أومبيلينت»، ألحّت بيانكا.

- «جئتُ لأجل العمل»، قال ماكس.
- «لا أستطيع أنْ أتركك وحدك مع آكلي لحوم البشر، يا سيّدي»، قال زينو. «إنّ في هذا خطرًا على حياتك».
- «كلَّا»، قال الرّجل الأسود.

كان جميع آكلي لحوم البشر يرغبون في أنْ يعملوا حمَّالين لدى ماكس أومبيلينت، وفي أنْ يذهبوا معه إلى داخل الإقليم، لكنّه اختار عشرة أنفار فقط، يرتدي اثنان منهم سراويل قصيرة ذات لون أصفر داكن، وهما كسنو -غوا- كزوب وناكوسانسوا. أمّا الباقون، فكانوا يضعون لفافة من الخيزران لإخفاء أعضائهم التّناسليّة.

رحل ماكس بمفرده مع آكلي لحوم البشر العشرة، ووضع في جيبه الرشّاش الصّغير الإيطاليّ الصّنع. كما ارتدى قميصًا أحمر، وترك رأسه عاريًا، لأنّه لمْ يكنْ في حاجة إلى ارتداء خوذة. فما بقاؤه حيًّا بعد ساعات من تعنيف الحرس السّود له، إلّا دافع إلى الاعتقاد أنّ لديه مناعة ضدّ الألم. كان يحمل تحت ذراعه سوطًا من الجلد الأحمر، أهداه إيّاه ستانيسلاس كريتزا، وقد أسماه «كنوت». كما ربط حول عنقه الجراب الجلديّ الجميل الّذي يحوي قنّينة الرّوم الأبيض.

سار آكلو لحوم البشر في المقدّمة، وهُمْ يحملون الأمتعة، بينما يتبعهم ماكس وهو يتبختر في مشيته مثل نمر. إنّ الطّقس حارٌّ. ومن حين إلى آخر، كان يشرب جرعات من الرّوم، وهو يقول في نفسه:

- «اليوم هو الأربعاء. وفي مساء السّبت، سيُقتل المبشّرون الأربعة». ثمّ تذكّر ما قاله كريتزا:

- «أنت تُدافع عن العدالة، يا ماكس. فحتّى تنتصر العدالة، يجب أنْ يأتي التّكفير عن الذّنب بعد الجريمة. وأنت بدأت بالتّكفير عن الذّنب، فلمْ يتبقَّ سوى أنْ ترتكب الجريمة. في نظر العدالة أنت مدين بالجريمة الّتي شُوِّهتَ وأُهِنتَ ظلمًا من أجلها».

شرب ماكس، ولم يعدْ يفكّر في شيء. كان قرص الشّمس الأحمر الكبير يغيب في الأفق، بينما السّود يغنّون.

فخاطبهم ماكس بلهجة آمرة:

- «توقّفوا! رتِّبوا الحقائب في شكل دائرة!».

فُتحت الحقائب، ونُصبت الخيمة. ثمّ حُفر حولها خندق. إنّ ماكس يأمر وآكلو لحوم البشر يُطيعون! وحين ابتعدوا عن إيسيوبوليا مسافة ثلاث ساعات سيرًا على الأقدام، أمرهم ماكس أومبيلينت بأنْ يتحلّقوا حوله، وهُمْ جالسون. ثمّ سأل أحدهم، وهو آكاباتبغالو، ساحر آكلي لحم البشر، ما إذا كان الحمّالون العشر قدْ أقسموا على حفظ السرّ والوفاء له. إنّه إجراء أكّد عليه كثيرًا ستانيسلاس كريتزا: «لوْ أقسمَ السّود أمام ساحرهم على حفظ السرّ والوفاء، بإمكاننا الوثوق بهم».

أجاب آكاباتبغالو بلهجة الواثق: «لقد أكل السّود التّراب، وأقسموا أنْ يكونوا صامتين وأوفياء مثل الأرض».

- «لو أمرهم «يا مو» مبيلينت بأنْ يموتوا من أجله فسيموتون. لقد أقسموا على طاعته».

أصبحت الخيمة الّتي سينام تحتها ماكس جاهزةً. وهو يعرف قواعد التّخييم جيّدًا، فقد كان فتى الكشّافة في الولايات المتّحدة

الأمريكيّة. قام كزوب بإحراق بعض الأعشاب داخل الخيمة كيْ يتخلّص من الهوامّ الّتي يُمكن أنْ تتسلّل إليها، فيما وقف ماكس بقميصه الأحمر في لون الشّمس الغاربة، لون أرض إفريقيا الحمراء وأرض تروبيك الحمراء بأكملها.

كان السّاحر آكاباتبغالو نحيفًا قصير القامة، أَشْيَبَ. وكلّما نظر إليه ماكس، تذكّر ما قاله ستانيسلاس كريتزا:

- «عندما يُقسم الأسود على أنْ يكون وفيًّا أمام السّاحر، سيكون كذلك بالفعل. فحين قام الضبّاط الأوروبيّون في كينيا، بسلخ جلود أسْراهم السّود أحياء، وقطْع أنوفهم وآذانهم إضافة إلى بتر أعضائهم التّناسليّة، لمْ يتكلّمْ أيٌّ منهم. فمن المستحيل أنْ يُفشي الأسود سرًّا أقْسمَ على كتمانه».

- «لقد أقسموا، يا يا مو»، أكّد السّاحر آكاباتبغالو.

- «اسمعني جيّدًا»، قال أومبيلينت. «أنا قادرٌ على صنع معجزات لا يقدرُ أيُّ شخصٍ آخر على الإتيان بها في الأرض قاطبةً».

إنّ ماكس لا يكذب. فقد أصبح على يقين الآن، بصفته مشاركًا في المخطّط الخماسيّ لتحرير السّود، من أنّه قادر على صنع المعجزات.

- «ما هي أكبر معجزة في وِسع رجل القيام بها على هذه الأرض؟». قال ماكس.

- «المعجزة الأسمى هي إحياء الموتى»، قال كزوب.

- «إحياء الموتى»، ردَّد آكلو لحم البشر في صوتٍ واحدٍ. «إحياء الموتى!».

- «أغبياء!»، قال ماكس أمبيلنت. «أنتم تعيشون حياة بائسة، أشقى حياة يمكن تخيّلها. أنتم أشدّ بؤسا من الكلاب ومن الذّئاب ومن الضّباع، وتعتبرون العودة إلى هذه الحياة بعد الموت معجزة؟ إنّ إحياء أسود بعد موته مصيبة، لأنّ حياته أصلًا مصيبة».

كان ماكس غاضبا جدًّا.

- «تعجّ إفريقيا بالكوغبادزو، أيْ بِمَنْ بُعثوا بعد موتهم»، قال ماكس أومبيلينت. «فلا تكونوا أغبياء. بإمكان أيّ أبيض أنْ يقتل رجلًا في مستشفيات البيض، كيْ يخلّصه من ألمه، ثمّ يُحْيِيه. فإحياء الموتى معجزة صغيرة. ولا تُوجد إلّا معجزة حقيقيّة واحدة، أنا الوحيد القادر على صنعها. أنا الوحيد، ماكس أومبيلينت».

أخذ السّود يرتجفون عند ذكر اسمه. ففي كل مرَّة، يسمعون هذا الاسم الّذي كانوا ينطقونه مبيلينت، يشعرون بالفزع، ويُبدون احتراما وإجلالا لصاحبه.

- «أنا قادر على جعل السّود بِيضًا!»، قال ماكس أومبيلينت. «باستطاعتي تغيير جلودهم السّوداء إلى بيضاء. هذه هي المعجزة الكبرى!».

كان آكلو لحوم البشر يُصغون إليه دون حراك، وبدأت عيونهم تتّسع فيما كانت قلوبهم تدقّ في صدورهم السّوداء مثل المطارق.

- «بإمكاني تحويل أيّ أسود إلى أبيض»، قال ماكس أومبيلينت.

«باستطاعتي تغيير أيّ بشرة سوداء إلى بشرة بيضاء مثل بشرة المبشّرين. فأنا قادر على خلق العيون الزّرق، وبإمكاني تحويل الشّعر الأسود إلى شعر أشقر في لون الذّهب. إنّه لمن السّهل عليّ أنْ أكسو كلّ أسود بثياب كثياب البيض وأحذية وساعات يدويّة كتلك الّتي يملكها البيض، ومن السّهل عليّ أيضًا أنْ أهب السّود قبّعات ونظّارات كتلك الّتي عند البيض».

بلغت نشوة آكلي لحوم البشر ذروتها، فتركهم ماكس أومبيلينت في لذّة نعيمهم. وهو يُفكّر في حديث ستانيسلاس كريتزا: «إنّ المعجزة الوحيدة الّتي يتمنّاها إنسان أسود، سواءً كان من آكلي لحوم البشر، أو مليارديرًا أو عالمًا كبيرًا أو نجمًا من نجوم الملاهي اللّيليّة هي تغيير جلده. فكلّ أسود يتمنّى أنْ يُصبح أبيض. أمّا بالنّسبة إلى آكلي لحوم البشر، فأنْ تكون أبيض يعني أنْ تملك ساعات وأحذية ونظّارات شمسيّة، وسيّارات وأجهزة راديو كالبيض. وأن تكون أبيض فهو بالنّسبة إلى آكلي لحوم البشر مرادف لركوب القطار ولبس أحذية مطاطيّة. فلا تحدِّثْ السّود عن التّحرر السّياسيّ والاقتصاديّ، ولا تحدِّثْهم عن المساواة والاستقلال والتّطوّر. فقط أخبرهم بأنّهم سيتحوَّلون إلى بيض. فأنْ تكون أبيض يعني أنْ تكون حرًّا، أنْ تكون إنسانًا. وهذا هو الشّيء الوحيد الّذي يتمنّونه: أنْ يكونوا بشرًا، أيْ شبيهين بالرّجال البيض».

- «إذا كُنت قادرًا على ذلك حقًّا، حوِّلنا إلى بيض! لِمَ كلّ هذه الخطابات؟»، قال كزوب.
- «لا تُحوِّل كزوب إلى رجل أبيض»، قال السّاحر آكاباتبغالو.

«حَوِّلْني أنا بدلا منه، فأنا الأجدر بأنْ تُحوِّله إلى أبيض لأنّي الأكبر سنًّا. ويجب أنْ تبدأ بي أوّلًا».

وقف آكاباتبغالو وأمسك كزوب من كتفه، ثمّ دفعه بعيدًا.

- «أنتَ أصغر من أنْ تتحوّل إلى أبيض»، قال السّاحر. «ما يزال أمامك الوقت الكافي لتصبح رجلًا أبيض».

تحرَّكت الأجساد السّوداء العشرة، ثمّ وقفوا جميعًا. إنّهم يرغبون في أنْ يُصبحوا بيضًا كلّهم. أمّا أولئك الّذين لم ينهضوا، فقد أخذوا يسحبون من اندفع منهم في اتّجاه ماكس. فالسّود واثقون من أنّهم لن يصبحوا بيضا، إلّا إذا كانوا واقفين.

- «جلوس!»، أمر ماكس أومبيلينت مُهدّدًا إيّاهم بسوطه الأحمر.

فكريتزا قال إنّ آكلي لحوم البشر يخشون «كنوت» أكثر من المسدّس، لكنّهم ليسوا خائفين هذه المرّة، إنّهم مستعدّون لتحمّل ضربات السّوط في سبيل أنْ يتحوَّلوا إلى بِيضٍ، أيْ إلى بشر. فزحفوا على رُكَبهم أمام ماكس من أجل تحقيق هذه الأمنية.

- «ابدأْ بي أنا، يا يا مو!»، قال آكاباتبغالو متوسِّلًا.

- «حوّلني إلى رجلٍ أبيض»، تضرَّع ناكوسانسوا.

كان آكلو لحم البشر يُقبِّلون أقدام ماكس أومبيلينت الّذي لمْ يعدْ قادرًا على الحراك. وتذكّر ما قاله كريتزا:

- «سيزحف السّود على رُكَبهم، ويتوسّلون إليك كي تحوّلهم إلى بيض. سيتسوَّلون هذا البياض. فَهُمْ يطلبون، في الحقيقة، أصغر حقّ من حقوقهم: أنْ يُعامَلوا كبشر، لأنّهم بشر».

- «بِيضٌ! بِيضٌ! بِيضٌ!»، تضرَّع السّود، فرفع ماكس أومبيلينت السّوط الأحمر، وضرب ظهور الرّجال الّذين يُقبّلون قدميه، الظّهور السّوداء اللّامعة الّتي تدفّق الدّم منها. وبالرّغم من أنّ الجلد الأسود أشدّ صلابة من الجلد الأبيض، إلّا أنّها انفجرت تحت وقع السّياط».

- «انبطحوا!»، صاح ماكس أومبيلينت بلهجة آمرة.

انبطح السّود تحت أقدام ماكس، وقد شكَّلوا بأجسادهم الممدَّدة على هذا النّحو زهرة أقحوان بعشر بتلات سوداء.

احتسى ماكس أومبيلينت الرّوم، ومسح جبينه المتصبِّب عرقًا.

كانت شمس تروبيك تضيء كشارة حمراء، البتلات العشر للأقحوانة السّوداء الّتي تنتظر أنْ تتحوَّل إلى زهرة بيضاء.

- «إنّ صُنعَ معجزة ليس بالأمر الهيّن»، قال ماكس أومبيلينت. «وهذا ما يُفسّر نحافة آكاباتبغالو وشيخوخته ومرضه. أمّا أنتم غير القادرين على صنع المعجزات، فأجسادكم ضخمة كالخنازير، ووحده صانع المعجزات آكا هو النّحيف. إنّ المعجزة لعمل مضنٍ. فكيْ تشفي قدمًا، أو تُخلّص عينًا من ألمها، أو تُحوّل إنسانًا إلى فهد، ينبغي العمل لأيّام عديدة. ويلزمك وقت طويل كيْ تقوم بكلّ المعجزات الصّغيرة الأخرى. أمّا أنا فسأحوِّلكم إلى بيض. سأحوِّلكم كلّكم شرط أنْ تتحلَّوا بالصّبر وتكتموا السرّ. وبعد ذلك، ستصبحون قومًا بيضًا، تجدون دائما ما تأكلونه وتنتعلون أحذية.

لمْ يعدْ ماكس أومبيلينت متأثّرا بمشهد السّود الّذين ظلّوا منبطحين تحت قدميه، وهُمْ يتسوَّلون نعمة التحوّل إلى بيض، نعمة التحوّل إلى بشر. فقبل عمليّة البتر الّتي تعرَّض لها، كان ماكس أومبيلينت حنونًا، عاطفيًّا ومجبولًا على الشّفقة. أمّا الآن، فقدْ جفَّت الدّموع في عينيْه. إنّ الغدد الدّمعيّة تَضْمُرُ عند المخصيّين مثلها مثل الغدد المسؤولة على نموّ شعر اللّحية والشّارب. والشّفقة تَضْمُرُ بضمور الغدد. شرب ماكس جرعات من الرّوم الأبيض، وفي ذهنه تشكَّل منطق قويّ وأبيض مثل الرّوم، المنطق الأبيض لستانيسلاس كريتزا. فقال بحدَّةٍ:

- «منْ يُريد أنْ يتحوَّل إلى أبيض، فعليه أنْ لا ينام بعد الآن حتّى آمره بذلك».

- «لنْ ننام»، قال آكاباتبغالو. «ما دُمتَ ستُحوّلنا إلى بيض، فلن ننام».

- «لنْ ننام بعد الآن»، ردَّد السّود بصوت واحد. «لنْ ننام بعد الآن يا يا مو».

- «عندما تكون المعجزة جاهزة، سأنادي عليكم بالطّبول. يجب أنْ أُحضِر خليطًا من الذّهب والضّوء كي أحقن به جلودكم. فقدْ تجهز المعجزة في الصّباح أو في المساء أو خلال اللّيل. ولذلك يجب أنْ تظلّوا مستيقظِين حتّى تتمكّنوا من سماع صوت الطّبل. فلو نِمتمْ، لنْ تسمعوا هذه الإشارة، وتبقُون على سوادكم».

كان ستانيسلاس كريتزا قد قال لماكس:

- «السّود يُوفُون بوعودهم. ولِكيْ تتأكّد من أنّهم سيقومون بقتل كتبة الإنجيل، يجب، في المقام الأوّل، أنْ تتركهم في حالة تأهّب. فلا تسمح لهم بالنّوم، وأنهِكْ أجسادهم، لأنّه لا تُوجد وسيلة أنجع من رجل منهك. فالرّجل المنهك يتحوَّل إلى رجل آليّ».

- «انهضوا وانصرفوا جميعا»، أمر ماكس أومبيلينت. «عودوا إلى القرية، وكونوا حذرين في أيّ مكان تحلُّون به، ليلًا أو نهارًا».

نهض السّود واختفوا راكضين. إنهم يتعجّلون العودة إلى إيسيبوليا، ويسارعون إلى منازلهم حيث سيتلقّون الرّسالة الّتي ستُعلمهم بموعد تحوّلهم إلى بِيضٍ.

بقي ماكس وحيدًا، بجانب الحقائب المعدنيّة والخيمة، وحيدًا كما هو حال الأسود دائمًا.

(14)
الرّجل الّذي أكل أحشاءه

لمْ يستطعْ زينو الفَلاشي النّوم، فهي ليلته الأولى في إقليم آكلي لحوم البشر. أعدّ له المبشّرون سريرًا في بيت الصّلاة، لكنّه فضّل النّوم في الشّاحنة.

- «أخشى أنْ يُدمّر المتوحّشون الشّاحنة»، قال زينو. «إنّها في عهدتي».

في الشّاحنة، لم يستطع النّوم أيضًا، فقدْ كان خائفًا على السيّد أومبيلينت الّذي ذهب رفقة عشرة من آكلي لحوم البشر. وخلال السّهرة، عاد الحمّالون العشرة الّذين يعملون تحت إمرة ماكس إلى قريتهم، وقالوا إنّ هذا الأخير طلب أنْ يظلّ بمفرده.

- «إنّهم يَبدُونَ غريبي الأطوار»، قال الفَلاشي في نفسه. «لعلّ هؤلاء الوحوش العشرة قد قتلوا السيّد أومبيلينت أو ربّما أكلوه؟ ما كان عليَّ أنْ أتركه بمفرده، كان عليَّ أنْ أرافقه». أشعل زينو أضواء الشّاحنة، فالسّاعة قدْ تجاوزت منتصف اللّيل منذ فترة طويلة، والظّلام حالكٌ. على ضوء مصابيح الشّاحنة، لمح زينو بعض المتوحّشين يحومون حول بيت الصّلاة. كما سمع المبشّرون آكلي لحوم البشر وهُمْ يحومون حول المنزل، فلمْ

يستطيعوا النّوم.

أشعل الفَلاشي أضواء الشّاحنة عدّة مرّات متتالية. فكان يُشاهد، في كلّ مرّة، أجسادا سوداء هاربة، وتواصل ذلك حتّى الفجر. جاهد زينو نفسه كي يبقى مستيقظًا لأنّه يستشعر حدوث أمر مريب.

- «عند الفجر»، قال الفَلاشي لمارك (الواعظ الّذي يقرأ الرّوايات البوليسيَّة):

- «أمرٌ ما مريب بصدد الوقوع. فقدْ حام آكلو لحوم البشر طوال اللّيل حول بيت الصّلاة».

كان زينو يشعر بالإرهاق لأنّه لمْ يتمكّنْ من النّوم.

- «هل تعتقدون أنّهم قتلوا السيّد أومبيلينت؟»، سأل الفَلاشي.

- «هلْ سمعتم قرع الطّبل عند الفجر؟»، سأل مارك بدوره.

ثمّ أخبر زينو بأنّه فور سماعهم قرع الطّبل، غادر كسو -غوا- كزوب وناكوسانسوا وعدد من المتوحّشين جريًا، ثمّ غابوا في لمح البصر. لقد كانوا كثيرين، وهُمْ يدبّرون مؤامرة دون شكٍّ.

- «أنا على يقين من أنّهم قاموا بعمليّة قتل مقدَّسة. فقدْ سهروا اللّيل كلّه، ثمّ رحلوا حين سمعوا صوت الطّبل عند الفجر». قال مارك.

- «لوْ فرضنا أنّ آكلي لحوم البشر هؤلاء، قد افترسوا السيّد أومبيلينت، فسأُحمّل نفسي مسؤوليّة ذلك»، قال زينو. «ولنْ أشعر بالسّلام طيلة حياتي. ما كان عليّ أنْ أتركه يسافر بمفرده».

- «لقد صلَّينا طوال اللّيل»، قال الواعظ مارك. «فمنذ قدومنا إلى

تروبيك، لمْ نشعُرْ بالخوف كما في اللّيلة الماضية. إنّ بيانكا ولوقا وشقيقي ماتيي لا يريدون الاعتراف بشعورهم بالرّعب، لكنّني شاهدتهم يصلّون ولمْ يُكحِّل النّوم أجفانهم. هل تعتقدون أنّ آكلي لحوم البشر قد التهموا السيّد أومبيلينت؟».

وفجأة ظهر أحد السّود بالقرب من الشّاحنة، وهو يلهث ويتصبّب عرقًا. إنّه كزوب.

- «إنّ أومبيلينت يطلبك»، قال كزوب. «إنّه يطلبك لأمر مستعجل».

أشرق وجه الفَلاشي، واستدار نحو الشّرق راسمًا إشارة الصّليب.

- «شكرًا يا الله، شكرًا لأنّك أنقذت حياة السيّد أومبيلينت. ومن الآن فصاعدا لن أتركه بمفرده أبدًا».

- «سأرافقك»، قال مارك، ثمّ ركب الشّاحنة إلى جانب زينو الّذي أدار المحرّك.

- «إنّه يطلبك بمفردك، ودون شاحنة!»، صاح كزوب. «هذا ما أمر به مبيلينت: السّائق فقط، من دون سيّارة».

كان الخادم الأسود مُرهقًا، فهو أيضًا لمْ ينمْ طيلة اللّيل.

- «إنّه كمين»، قال الواعظ مارك، ثمّ انحنى على الفَلاشي وهمس في أذنه:

- «لا تذهبْ، إنّه كمينٌ نصبه لك آكلو لحوم البشر. فربّما قتلوا ماكس، ويريدون قتلك أيضًا».

- «حتّى وإنْ كان كمينًا، فسأذهب»، قال زينو.

ثمّ نزل من الشّاحنة، وطلب من كزوب أن يدلّه على مكان السيّد أومبيلينت. فأشار الخادم الأسود بيده إلى الاتّجاه الّذي سلكه رفقة ماكس اللّيلة الماضية.

- «لقد قتلوا السيّد أومبيلينت»، قال مارك. «فلا تذهبْ!».

- «حياتي هي كلّ ما أملك»، قال الفَلاشي. «من سيسلبني إيّاها لن يربح شيئا، ولنْ أخسر الكثير إذا فقدتها».

- «أتوسّل إليك ألاَّ تذهب»، قال مارك. «وإنْ ذهبت، فسأرافقك».

- «السيّد أومبيلينت أَمَرَ بمجيئي بمفردي»، ردَّ زينو.

غادر الفَلاشي بعدما صافح الواعظ المغرم بقراءة الرّوايات البوليسيّة، وتبعه المبشّرون الآخرون إلى السّاحة، فودّعهم زينو وهو يُدرك أنّه قدْ لا يعود، لكنّه مع ذلك، مضى رفقة كسو -غوا- كزوب.

* * *

كان ماكس ينتظر سائقه قرب قرية آكلي لحوم البشر. ولمّا شاهده زينو من بعيد، ركض نحوه، فهو سعيد لأنّ السيّد أومبيلينت مازال على قيد الحياة. في البداية، لمح الفَلاشي القميص الأحمر، ثمّ شاهد الأسود واقفًا بمفرده، عاري الرَّأس تحت الشّمس الحارقة. لحق كزوب بالسّائق، وركضا معًا في اتّجاه السيّد أومبيلينت.

- «لمْ أعدْ في حاجة إليك»، قال ماكس لكزوب. «عُدْ إلى القرية».

أراد زينو تقبيل الأسْود لشدّة سعادته برؤيته حيًّا.

- «ما هي الأخبار؟»، سأل ماكس.

قام الرّجل الأسود بدعوة السّائق كيْ يتأكّد من مدى تكتّم آكلي لحوم البشر حول السرّ، وما إذا كان المبشّرون يشكّون في شيءٍ ما.

- «لقد بتُّ أرتجفُ طول اللّيل خوفًا عليك، يا سيّدي»، قال الفَلاشي. «لقد حام آكلو لحوم البشر حول بيت الصّلاة، وحول الشّاحنة كالمُنَوَّمين مغناطيسيًّا، ولمْ يخلدْ أيّ واحد منهم إلى النّوم».

- «ماذا عن المبشّرين؟ ماذا فعلوا؟»، سأل ماكس.

- «شعروا بالخوف هُمْ أيضًا، أجاب زينو. «لقدْ صَلُّوا طوال اللّيل، ومن الطّبيعي أنْ يخافوا، فهُمْ بشر في النّهاية. ولقد تركتهم بصدد تزيين بيت الصّلاة استعدادًا لعيد الميلاد».

تأكّد ماكس من كتمان السّود للسرّ.

- «آكلو لحوم البشر لا يتحدَّثون إلّا عنك يا سيّدي»، قال الفَلاشي.

- وماذا يقولون عنّي؟

- أشياء جميلة، لك هيبة كبيرة في عيونهم.

- «هلْ يهابونني لأنّني قمتُ بضربك بالأمس؟»، تساءل أومبيلينت. «أي هيبة لأنّني رجل أسْود أهان رجلًا أبْيض؟».

- كلّا يا سيّدي، لا دخل للعقوبة في الأمر. لقد قال آكلو لحوم البشر للمبشّرين إنّه لا يُوجد رجل مثلك على وجه الأرض.

خشي ماكس منْ أنْ يكون السّود قدْ أفشوْا السرّ.

- «هل أخبر آكلو لحوم البشر المبشّرين بأنّني قادر على صنع المعجزات؟»، سأل الرّجل الأسود.

- كلّا يا سيّدي، هُمْ فقط يحترمونك لأنّك تُدعى أومبيلينت.

أخبر السّائق سيّده بأنّ آكلي لحوم البشر اقتربوا منه حالَ وصولهم إلى إيسيبوليا، كما اقتربوا من المبشّرين كي يُصغوا إليهم، وهُمْ يتحدَّثون عن «السيّد أومبيلينت».

- لقد سألوني ما إذا كُنتَ تُدعى حقًّا أومبيلينت.

-«أوجِزْ!»، قال الأسود بلهجة آمرة. «ما علاقة اسمي بالاحترام؟».

- «إنّهم يحترمونك بسبب اسمك، فبالنّسبة إليهم أنت أعظم من الربّ. وعندما يسمعون هذا الاسم، يفغرون أفواههم من شدّة الإعجاب».

- «إنّ كلّ شخص يحمل الاسم الّذي ورثه عن والديه»، قال ماكس.

هذا ما شرحه المبشّرون لهم. فما إنْ رَحلتَ حتّى قدِم السّود إلى بيت الصّلاة، وتحدَّثنا عنكَ. فبيَّن الإنجيليّون أنّ الإنسان في أوروبا وأمريكا يرث اسم والديه. لكنّ آكلي لحوم البشر لا يقتنعون بشيء، فهُمْ يعتقدون أنّ الإنسان يملك اسمًا كما يملك حياته تمامًا. وبالنّسبة إليهم، فإنّ الاسم سِمَة وبطاقة هويّة.

- «أعلم ذلك»، قال ماكس. «وما هو معنى اسمي في لغتهم؟».

- أومبيلينت في لغتهم، أعذرني يا سيّدي، يعني الرّجل الّذي

أكل أحشاءه.

امتقع لون الرّجل الأسود. فالإخوة كنور وصديقاهما الأبيضان سلبوه بضع غدد فقط وليس أحشاءه. ومع ذلك، أدهشته هذه المصادفة. فلا أحد من آكلي لحوم البشر يعرف أنّه خصيّ.

-«اذهبْ الآن»، أمر ماكس أومبيلينت. «سأطلبك عندما أحتاجك، فابْقَ بين المبشّرين، ولا تنسَ أنّنا سنعود يوم السّبت».

- «حاضر يا سيّدي»، قال زينو، لكنّه بقِيَ مسمّرا في مكانه.

- «لقد أمرتك بأن تذهب»، قال الرّجل الأسود.

وانفجر الغضب الّذي يحمله على البِيضِ في وجه الفَلاشي.

- «أريد أنْ أقول لك شيئًا آخر، يا سيّدي»، قال زينو. «لا هيبةَ لأحدٍ في عيون آكلي لحوم البشر إلّا مبيلينت، أيْ الرّجل الّذي أكل أحشاءه. ولهذا السّبب هُمْ يحترمونك. فالمبشّرون يقولون إنّ هنالك جزءًا من الحقيقة في هذا الاعتقاد الّذي يعتبر رجلًا دون أحشاء، إنْ وُجد فعلًا، هو رجلٌ خارقٌ. إنّ كلّ النّقائص وكلّ خطايا الإنسان مثل النّهم والسُّكر والفسق والمجون مصدرها الأحشاء. ولهذا يحترم آكلو لحوم البشر رجلًا دون أحشاء أكثر من أيّ شيء في العالم».

- «أعرف ذلك»، قال ماكس. «والآن، فلْتذهبْ».

- «هذه المرّة أيضًا، لقدْ ضُرِبتُ بلا جدوى، يا سيّدي»، قال زينو. «لمْ يكنْ من الضّروري أنْ تضربني. لكنّ نجمي الفَلاشي

هو من أراد ذلك، فنجم الفَلاشيّين يُشبه نجم السّود تمامًا. أنا في انتظار أوامرك، يا سيّدي».

ابتعد السّائق بخطًى بطيئة، وبقي ماكس بمفرده على أرض عائلته. إنّه في وطن أجداده.

(15)

أسنان آكلي لحوم البشر

في ظهيرة يوم الخميس، أيْ قبل يوميْن من جريمة القتل، أَرْسَلَ الرّجل الأسود كزوب كي يُحضر زينو.

كان ماكس مخمورًا كليًّا. إنّه لا يفكّر في قتل المبشّرين، بلْ هو مندهش لكونه من سلالة آكلي لحوم البشر، ويشترك معهم في أشياء عديدة: لون بشرته ودمه واسمه. طفق يشرب، وبدأت حاجته إلى أنْ يحادث شخصًا ما، تتعاظم. حاول التّحدث إلى آكلي لحوم البشر، ولكنّ هذا مستحيل.

- «لا أستطيع التحدّث إليكم»، قال ماكس غاضبًا. «يسري في عروقنا نفس الدّم ونحمل نفس لون البشرة ونشترك في نفس الأصول، واسمي يثبت ذلك. لكن تفصلنا مسافة ثلاثة آلاف سنة، ويستحيل علينا أنْ نتواصل».

سبق ماكس زينو حتّى لا يكشف الفَلاشي مكان تخييمه.

«إنّ السّود في أمريكا، هُمْ سود معاصرون»، قال الرّجل الأسود في نفسه. «أستطيع أنْ أتّفق مع أبناء جلدتي في أمريكا، فقدْ استفدنا من العبوديّة. ولو لمْ يُستعبَدْ أسلافي، لكُنتُ اليوم رجلًا أسود من آكلي لحوم البشر في تروبيك، ولتألّمْتُ عاريًا مثل حيوان، هنا في

تروبيك، فحتّى اليهود لمْ يكونوا لِيَهْتَدوا إلى الإله الأوحد، لوْ لمْ يعيشوا العبوديّة والمنفى».

أتى الفلاشي راكضًا.

- «لقد وقعت جريمة في منزل الإنجيل، يا سيّد أومبيلينت!»، قال. «لقد أحكمنا وثاق آكاباتبغالو، وحبسناه. كما يريد المبشرون استدعاء الملازم بلانك كي يسلّموه السّجين».

- «هل قتل آكاباتبغالو شخصا ما؟»، سأل ماكس وهو محتارٌ من قدوم الملازم بلانك: «إنّ آكاباتبغالو لنْ يكشف السرّ، لكن من الأفضل أنْ لا يتمّ القبض عليه».

- أجبني. من هو الشّخص الّذي قتله آكاباتبغالو؟ لماذا قيَّده المبشّرون وحبسوه؟

- لقد قام باقتلاع أسنان ناكوسانسوا.

بدا زينو مذهولًا ممّا حدث:

- «كان الأمر فظيعًا، يا سيّدي»، واصل الفَلاشي قائلًا. «عندما شاهد المبشّرون وحشيَّةً كتلك، شعروا بالخوف. وربّما يرحلون عن آكلي لحوم البشر، فقد ارتعبوا حقًّا!».

رافق الرّجل الأسود زينو إلى بيت الصّلاة، وقدِم المبشّرون لاستقباله.

- «ما الّذي فعله آكاباتبغالو؟»، سأل ماكس.

- «فلْيُباركك الربّ، يا سيّد أومبيلينت»، قال لوقا.

- «دعني وشأني، فقدْ سئمتُ تحيّتك السّخيفة!»، قال ماكس.

«أين آكاباتبغالو؟ وماذا فعل؟».

- «لقد حبسناه»، قال أحد التّوأميْن. «وسنقوم بدعوة الملازم بلانك».

- «قذرون!»، قال الرّجل الأسود. «كيف تتحدَّثون عن الإنجيل، ثمّ تقومون باستدعاء الشّرطة لإيقاف السّود؟ أين آكا؟».

اعتبر ماكس نفسه فجأة أسْود، ينتمي إلى قبيلة آكلي لحوم البشر. ووقف في صفّ أبناء قبيلته ضدّ البيض.

- «نحن ندرك جيّدًا أنّ الألم يُشفى بفضل الإنجيل، يا سيّدي»، قال لوقا. «لكن هذه المرَّة، اضطررنا إلى استعمال القوّة. فقدْ وجدنا ناكوسانسوا هذا الصّباح، وجميع أسنانه مجتثّة فيما تورّمت لثّته ووجنتاه. وبعد بضع دقائق، ظهر مراهق آخر بوجنتيْن متورّمتيْن أيضًا. فقدْ اقتُلعت أسنانه هو الآخر، أسنانه الأماميّة. اجتُثّتْ اثنتان من فكّه العلويّ واثنتان من فكّه السّفليّ. وبعد مرور ربع ساعة، اكتشفنا صبيًّا ثالثًا اقتلع آكاباتبغالو أسنانه أيضا، وعلى الأرجح هناك آخرون غيرهم. في الأثناء جاء العجوز آكاباتبغالو إلى بيت الصّلاة بحثًا عن مراهقين آخرين، كان يرغب في اجتثاث أسنانهم. ولمَّا سألناه عن السّبب، أجاب: «لمْ يفعلوا شيئًا، لكنْ حان الوقت لاقتلاع أسنانهم».

- «وكيْ تمنعوه من ذلك، قمتم بحبسه؟»، تساءل ماكس. «ولأنّه هدّد بمواصلة ذلك عندما يصبح حرًّا، قرَّرتم استدعاء الملازم

بلانك؟».

- «بالضّبط، يا سيّدي»، قال لوقا. «هذا عمل همجيّ، وبفضل الإنجيل ستختفي هذه العادة المتوحّشة مع مرور الوقت، رغم أنّنا لمْ نتمكّنْ إلى حدّ الآن من إنقاذ أسنان الشبّان، وباءت كلّ صلواتنا وكلّ وعودنا بالفشل».

- «أنا أيضًا توسّلت إلى آكا»، قال زينو. «شرحتُ له بأنّه حتّى الوحوش نفسها لا تقوم بقلع أسنان صغارها. لكنّه رفض الإنصات إليّ، وربّما تنجح أنت يا سيّدي، فهُمْ يُصغون إليك لأنّك تُدعى أومبيلينت».

* * *

قام زينو رفقة المبشّرين بشدّ وثاق آكاباتبغالو. إنّ الوحش السّاحر يقبع الآن في إحدى غرف بيت الصّلاة.

- «مرحبا آكا»، قال ماكس.

وقدْ أصبح يشعر بألفة مع آكلي لحوم البشر منذ عرف أنّه يحمل اسمًا ينتمي إلى القبيلة.

- «مبيلينت، يا مو»، قال آكاباتبغالو.

فرح آكا لرؤية ماكس. إنّه عجوز نحيل جدًّا، فمهنته كصانع معجزات تنهك جسده. كان والد آكاباتبغالو صانع معجزات هو الآخر. وفي أحد الأيّام، وصل الملازم الأبيض المكلّف بحكم الإقليم إلى إيسيبوليا، مصحوبًا بحرّاسه السّود الحفاة، وسأل عن جثّة امرأة تُوُفيّتْ قبل بضعة أيّام.

- «لقدْ التهم النّمل الجثَّة، كما يحدث مع كلّ الجثث»، أجاب والد آكاباتبغالو.

- «بلْ أنتُمْ من التهم جثّتها وليس النّمل»، قال الملازم الأبيض. «أنتمْ تأكلون لحم البشر».

ثمّ أمر حرّاسه السّود بتكبيل والد آكا بالأغلال. وسِيقَ صانع المعجزات إلى المدينة تحت الحراسة حيث حُبس هناك بمفرده في حجرة خالية، من إحدى زنازين السّجن، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت. فأُطلق على ابنه اسم «الرجل المسجون في حجرة خالية» أو آكاباتبغالو، إحياءً لذكرى والده وللمأساة الّتي عاشها.

- «اجلبوا ناكوسانسوا والصّبية الآخرين الّذين اقتُلعت أسنانهم»، قال ماكس بلهجة آمرة.

ذهب المبشّرون لجلب المراهقين الّذين اجتُثّتْ أسنانهم، ثمّ لحقوا بأومبيلينت وآكاباتبغالو في الغرفة.

- «افتحوا أفواهكم»، أمر ماكس.

امتثل الشبّان للأمر. وتبيَّن أنّه قد وقع اقتلاع نفس الأسنان للمراهقين الثّلاثة، أيْ الأسنان الأماميّة. فسَرت في جسد أومبيليت رعشة من الغضب.

- «أغلقوا أفواهكم»، أمر ماكس. «والآن انصرفوا أنتمْ الثّلاثة». ثمّ طلب الأسود من المبشّرين ومن زينو أنْ يخرجوا هُمْ أيضًا. وبقي بمفرده مع العجوز. شعر المبشّرون بالفزع، وهُمْ ينظرون إلى المسدّس في جيب ماكس، والسّوط الأحمر الّذي كان يُديره

في يده بعصبيّة.

- «أرجوك لا تقتُلْه يا سيّدي»، قال الفَلاشي مُتوسِّلًا. «آكا هو أيضًا إنسانٌ، وسترتكب خطيئة بقتله، حتّى وإنْ كان مجرمًا ومن آكلي لحوم البشر».

- «اُغربْ عن وجهي»، أمر ماكس سائقه.

أغلق ماكس الباب. وبقي الآن بمفرده مع آكاباتبغالو.

- «ها أنت ذا يا آكاباتبغالو، ها أنت ذا أيّها «الرّجل المسجون في غرفة خالية» كوالدك بالضّبط»، قال الرّجل الأسود. «هل قُمت حقًّا باقتلاع أسنان هؤلاء الشبّان؟ نعم أم لا؟».

- «لقد فعلت ذلك، مبيلينت، يا مو»، أجاب السّاحر.

- «هل سبق أنْ رأيت رجلًا سوايَ، قدْ أكل أحشاءه؟»، سأله ماكس.

- «مطلقًا»، ردَّ آكا.

- «لستُ الوحيد الّذي أكل أعضاءه، فأصدقائي فعلوا ذلك أيضًا. ولهذا السّبب نحن قادرون على صنع المعجزات، وبإمكاننا تحويل السّود إلى بيض. فوحدهم البشر الّذين فقدوا أحشاءهم قادرون على صنع معجزات كهذه. وإذَا لمْ تُجبني، فسأذيقك كلّ ألوان العذاب. إنّ رجلًا أكل أحشاءه قدْ يُجيد فعل كلّ شيء، كما يُجيد التّعذيب أيضًا. أجبْ. لماذا اقتلعت أسنان المراهقين؟»

- «لقدْ بلغوا السنّ الّتي يجب أنْ تُجتثّ فيها أسنانهم»، أجاب

آكا. «هذا كلّ ما في الأمر، لذلك كان عليّ أنْ أقتلع أسنانهم».

قدّم ماكس أومبيلينت زجاجة الرّوم إلى آكاباتبغالو، فقبِلها بكلّ سرور.

- «كلّ الشبّان الّذين لمْ تُقتلعْ أسنانهم أصبحوا عبيدًا»، قال آكا. «نحن نقوم بذلك لنجنبّهم العبوديّة».

السّاحر ليس غبيّا، فهو يقدّم حججًا منطقيّةً، لأنّ كلّ تجّار الرّقيق يستثنون العبيد الّذين فقدوا أسنانهم.

- «إنّ عبدًا دون أسنان لا يقدر على الأكل»، قال آكا. «وإذا لمْ يأكلْ، فإنّه سيفقد قوّته، ولن يصلح لأيّ شيء. نحن نقتلع أسنان كلّ مراهقينَا الذّكور في قبيلتنا، ولذلك ينجون من العبوديّة».

تأثّر الرّجل الأسود بهذا القول، وقال في نفسه: «أصبح أسلافي عبيدًا في أمريكا، فقط لأنّهم غفلوا عن اقتلاع أسنانهم».

قدّم ماكس أومبيلينت قنّينة الرّوم إلى آكا الأسود، وشرب بعده. ثمّ فكَّ الحبل الّذي كُبّل به المتوحّش العجوز، وأمسكه من ذراعه كما كان يفعل مع والده وأمّه، ليخرجا معًا إلى ساحة بيت الصّلاة.

ذُهل المبشّرون وزينو من المشهد. مرّ أومبيلينت بجانبهم دون أنْ ينظر إليهم، ثمّ استدار نحوهم، وقال:

- «صحيح أنّ آكاباتبغالو يقتلع أسنان المراهقين. إنّ كلّ البشر على وجه الأرض يعتنون بأسنانهم وآكلو لحوم البشر يقتلعون أسنانهم تمامًا كما نفعل نحن، في بلداننا المتحضِّرة. فنحن نُلقّح

أنفسنا ضدّ التّيفوس أو الجدري، وهؤلاء السّود التّعساء في ترويبك يقومون باجتثاث أسنانهم ليحصّنوا أنفسهم ضدّ العبوديّة. فهو تلقيح ضدّ الأغلال وضدّ التّرحيل. وإنْ كانت العبوديّة قد أُلغيتْ اليوم، فإنّ الخوف منها لمْ ينتهِ بعد. إنّهم مستمرّون في اقتلاع أسنانهم، وسيواصلون ذلك حتّى يختفي خوفهم من البيض».

كانتْ بيانكا تبكي، فيما اغرورقت عيون بقيّة المبشّرين بالدّموع.

- «في بعض المناطق، تثقب الأمّهات شفاه بناتهنّ منذ الولادة لتشويههنّ، إذْ وحدهنّ الفتيات القبيحات ينجَوْنَ من العبوديّة».

كان ماكس أومبيلينت يشرب، ثمّ يغسل فمه بالرّوم.

- إنّ لاجتثاث الأسنان ميزة واحدة: فدون أسنان، ينطق السّود أداة التّعريف في اللّغة الإنجليزيّة the بإحكامٍ. ومن المؤكّد أنّ البريطانيّين لمْ يتفطّنوا إلى أيّ حدٍّ يُساهم غياب الأسنان الأماميّة في نطق the بشكل جيّد!

(16)

الجمعة: عشيَّة الجريمة

اليوم هو الجمعة 19 كانون الثّاني، اليوم الّذي يسبق قتل الإنجيليّين الأربعة، حين كان المبشّرون بصدد تزيين بيت الصّلاة استعدادًا لعيد الميلاد. إنّهم يجهلون كلّ شيء. وحتّى زينو لا يشكّ في شيء، لأنّ السّود كتموا السرّ. ومع ذلك، فهُمْ يشعرون بالقلق.

حوالي السّاعة الثّالثة بعد الظّهر، سُمع قرع الطّبل. فركض سُودُ إيسيبوليا إلى المكان الموعود حيث يقف ماكس أومبيلينت بمفرده تحت الشّمس الحارقة مثل الذّهب المنصهر.

تَحلَّق آكلو لحوم البشر حول الرّجل الأسود، غير مُبالين به. فهُمْ لا يهمّهم من يصنع المعجزات، وإنّما وحدها المعجزة تعنيهم.

- «أُنظروا إلى أياديكم»، أمر أومبيلينت.

نظر آكلو لحوم البشر إلى أذرعهم وإلى أصابع أيديهم في انتظار أنْ تُصبح بشرتهم بيضاء اللّون.

- «ستصبح أياديكم بيضاء»، قال ماكس.

كان آكلو لحوم البشر يترقّبون حدوث المعجزة، وهُمْ يحملقون في أياديهم دون أنْ ترمش عيونهم.

- «ستُصبح وجوهكم وصدوركم وظهوركم بيضاء»، قال

ماكس. «سيتغيّر لون جلدكم بأكمله ليصير أبيض. وستختفي، منذ الآن، كلّ البقع السّوداء منْ على أجسادكم».

تبادل آكلو لحوم البشر استراق النّظر . وكان كلّ واحد منهم يريد التأكّد منْ أنّ لون بشرة جاره لمْ يتغيّرْ إلى الأبيض، فكلّ واحد منهم يتمنّى أنْ يُصبح أبيض قبل غيره.

ترك ماكس السّود ينظرون إلى بشرتهم، وتذكّر حديث ستانيسلاس كريتزا: «السّود ليسوا أغبياء، لكنّهم مجبرون على الإيمان بالمعجزات. فالاعتقاد في شيء ما، أمر فطريّ وضروريّ كالتّنفس. ولا يوجد شيء يُمكن أنْ يضع فيه السّود ثقتهم. فإن كان البِيضُ يُؤمنون بالمجتمع والعائلة والعدالة، وبمجموعة الأشياء الّتي خلقوها بأيديهم، فقد أرغم التاريخ السود على عدم الوثوق في الأشياء الخارجيّة. إذ باعهم أصدقاؤهم وكبّلهم الغرباء بالأغلال. وما العدالة سوى وسيلة تعذيب بين أيدي الطّغاة، أمّا المجتمع فمؤسّسة موجعة وساحقة. السود عاجزون عن الإيمان بأيّ شيء. ولكنهم بشر ويجب أن يؤمنوا بشيء ما. ومن بين الأشياء المرئيّة كلّها لا وجود لما يستحقّ ثقتهم. لذلك ينتظرون المعجزات. هم لا يؤمنون بالمعجزات لأنهم سذَّج أو أغبياء. بل لأنهم يائسون. ولا رجاء لهم في غيرها».

انتظر السّود المتحلِّقون حول ماكس أومبيلينت ظهور المعجزة، وانخرط هو أيضًا في الجوّ المحيط به وانتظر أنْ تُصبح جميع هذه الجلود بيضاء.

– «ستصبحون كلّكم بِيضًا»، قال الرّجل الأسود. «سيغدو

السّود أشدّ بياضًا من الإنجيليّين. سيكون بياضكم بياضًا جديدًا، وسيفقد بياض المبشّرين أَلَقَهُ مقارنة ببياضكم، لأنّه بياض مستعمل».

لا تُوجد في العالم بهجة أكبر من انتظار معجزة حتميَّة الحدوث. لكنّ معجزة تغيّر لون البشرة إلى اللّون الأبيض، تتجاوز كلّ المعجزات الأخرى في الكون لأنّها تحدث على جلد كلّ فرد. ابتسم آكلو لحوم البشر، في ذهول، وهُمْ مستمتعون بلذّة الانتظار. فأعظم اللّحظات هي تلك الّتي تسبق حدوث المعجزة. لقد رأوْا فعلًا هذا البياض الّذي كسا جلودهم، وهو بياض يُشبه الذّهب، بياض يُماثل ضوء الشّمس ويُحاكي نور القمر. إنّهم ينتظرون أنْ تُضيء جلودهم، ويسطع منها بريق الذّهب وأشعّة الشّمس والقمر، فابتسموا من فرط اللذّة.

– «سيظلُّ بعضكُمْ سودًا»، قال ماكس.

رفع السّود عيونهم نحو السيّد أومبيلينت.

– منْ يُفشي السرّ، سيبقى أسْود.

كان ماكس قاسيًا وفظًّا. فهو يُدرك جيّدًا أنّ هذا الكلام عارٍ من الصحّة، كما يَعرف أنّ ما يقوله غير صحيح فعلًا، ولذلك يشعر بالغضب. فبشرته السّوداء لنْ تُصبح بيضاء أبدًا.

– «هلْ فهمتم؟»، سأل ماكس أومبيلينت.

لم يُجبْ آكلو لحوم البشر، بلْ شرعوا ينظرون إلى جلودهم، بينما اتّسعتْ عيونهم وأُغلِقتْ أفواههم. إنّ فقدانهم النّطق لا يكتسي أيّة

أهميّة على الإطلاق. فحتّى لو ظلّوا خُرْسًا أبد الدّهر، فلنْ يُزعجهم ذلك شريطة تحقّق المعجزة.

- «انهضوا. انصرفوا»، أمر ماكس أومبيلينت. «اذهبوا، وابقوا منتبهين إلى صوت الطّبل».

لمْ يتحرّكْ آكلو لحوم البشر، فهُمْ مرتاحون هكذا. إنّ جوهر الحياة هو انتظار أنْ تتحقّق المعجزة.

اخترق نور شمس تروبيك الحارق، الأبيض كالذّهب السّائل، جلود آكلي لحوم البشر، لكنّهم لم يشعروا به. فانتظار المعجزة حارق أكثر.

ضربهم ماكس بسوطه الأحمر حتّى سال الدّم من جلودهم، وهُمْ لا يحرّكون ساكنًا. فضربات السّوط لا تُؤلمهم.

عندما ننتظر معجزة ما، نصبح محصَّنين ضدّ الألم.

(17)
طريق النّمل الأحمر

نام الفَلاشي في الشّاحنة. ثمّ ما لبث أن استفاق عندما فتح مارك الباب، وهزّ كتفيه كيْ يوقظه. كانت علامات الفزع بادية على الواعظ الّذي يحبّ قراءة الرّوايات البوليسيّة.

- «زينو، يا صديقي إنّنا نتهيّأ للرّحيل»، قال مارك. «استيقظْ. فليس لدينا وقت كيْ نُضيعه».

قفز السّائق من الشّاحنة. وأخرجت بيانكا رفقة بقيّة المبشّرين الحقائب الصّفيحيَّة من بيت الصّلاة في سرعة فائقة، تمامًا كما لوْ أنّ حريقًا يشبّ فيها. كانت تتكدّس على الحقائب أيقوناتٌ وكتبٌ وأوان وملابسُ، فشرع جميع متوحّشي إيسيبوليا في مساعدة الإنجيليّين، وهبّوا كلّهم لتقديم يد العون ما عدا العشرة الّذين تحلّقوا حول ماكس أومبيلينت في انتظار أنْ يتحوّلوا إلى بِيضٍ. كان آكلو لحوم البشر يصرخون ويقفزون لأنّهم يشعرون، هُمْ أيضًا، بالخوف.

- «النّمل الأحمر!»، صاح مارك. إنّ نهرًا من النّمل الأحمر يتّجه صوْبنا. لقد شاهده السّود. إنّه يجتاح إيسيبوليا».

لمْ يفهم الفَلاشي قصده، فهو يستشعر الخطر لكنّه لا يرى شيئًا. ألقى المبشّرون والسّود بالأمتعة خارجًا، وهُمْ مذعورون كلّهم كما

لوْ أنّ حريقًا قدْ شبَّ أوْ سدًّا قدْ تهدّم، وفاضتْ مياهه مهدّدة بابتلاع كلّ شيء.

- «سنرحل»، قال مارك. «ساعدْنَا يا زينو».

ذُعر المبشّرون وآكلو لحوم البشر ذُعرًا شديدًا.

- «بسرعة يا زينو»، قال مارك. «إنّه نهر النّمل الأحمر. لقد شاهده آكلو لحوم البشر، وهو يتّجه مباشرة إلى إيسيبوليا. إنْ بقينا نصف ساعة أخرى، سيغمرنا. هيّا فلْنرحلْ من هنا».

ساعد الفَلاشي الإنجيليّين على تحميل الحقائب الصّفيحيّة في الشّاحنة. لقد أحبطهم هذا الرّحيل القسري، بعد أنْ زيَّنوا جدران بيت الصّلاة بالنّقوش، ولمْ يتبقَّ سوى أيّامٍ قليلة تفصلهم عن عيد الميلاد. لكنّهم مُجبَرون، الآن، على الرّحيل ومغادرة بيت الصّلاة.

- «يُشبِه طريق النّمل النّهرَ». قال لوقا. «فالنّمل لا يَحيد عن مجراه أبدًا، فقط يلزمنا أن لا نعترض طريقه».

لا يملك السّود أيّ شيء كيْ يحملوه معهم، فأخذوا أغطية ممزَّقة وأوانيَ وبعض الأطمار البالية وأطفالهم الّذين كانوا يبكون من الرّعب. أغلب آكلي لحوم البشر لا يملكون هذه الأشياء. إنّهم أفقر النّاس على وجه الأرض، فهُمْ فقراء مثل الذّئاب والأرانب البريّة والثّعالب، ولا يملكون سوى فرش صغيرة يتوجّب عليهم تركها الآن.

- «إنّ النّهر المتحرّك على بعد كيلومترات منّا. ينبغي أنْ نرحل فورًا»، قال ماتيي.

كانت الشّاحنة محمَّلة بالأمتعة، فترجَّل المبشِّرون، فيما امتطى مارك الشّاحنة رفقة زينو.

- «لا أستطيع الرّحيل دون ماكس أومبيلينت. فقدْ أمرني بأنْ لا أتحرّك من بيت الصّلاة وأنتظر أوامره هنا»، قال الفَلاشي.

- «نحن نواجه قوّة قاهرة»، قال مارك شارحًا وجهة نظره. «سيأتي النّمل على كلّ شيءٍ هُنَا، في محيط بيت الصّلاة. سنبتعد بضعة كيلومترات الآن، ثمّ نعود للاستقرار هنا مجدّدًا بعد أنْ نتيقّن من الطّريق الّذي سيسلكه النّمل تحديدًا. فهو يُغيّر اتّجاهه دائمًا».

مرّ الوقت، وما تزال الشّاحنة رابضةً أمام بيت الصّلاة. فقدْ بدت الأخبار حول النّمل متضاربة.

- «تعالوْا، كي نَرى»، قال زينو.

تردَّد المبشّرون، ثمّ اتّخذوا قرارهم بالرّحيل على متن الشّاحنة. في طرف إيسيبوليا، وقف بضعة أفراد من آكلي لحوم البشر يشاهدون ما يجري. فاقترب منهم المبشّرون وزينو.

- «لا تقتربوا من الشّاحنة! لا تقتربوا!»

- «لكأنّها حمم بركانيَّة! لكأنّه معدن منصهر!»، قالت بيانكا.

كان نهر يسيل في اتّجاه إيسيبوليا ببطء، نهر أحمر بلون النّحاس الذّائب، يبلغ عرضه مترًا ويلمع وهو يتلوَّى تحت الضّوء السّاطع، نهر وسطه أشدّ حمرة مثل جلود الثّعابين الـتّي تشتدّ قتامتها في مستوى الظهر، على طول الفقرات.

- «إنّه النّمل! النّمل!»، صاح آكلو لحوم البشر وهم يقفزون. ثمّ قذف أحدهم حبّة فواكه، فاختفتْ في الأمواج الحمراء اللّامعة ما إنْ سقطت وسط النّهر المتوهّج. وبعد مرور بضع دقائق، ظهرت حبّة الفاكهة من جديد، حمراء مثل أمواج النّمل، وتضاءلتْ شيئًا فشيئًا وقد ابتلعتها لجّة النّهر مثل صدفة من النّحاس. ثمّ شرعت تطفو على الأمواج الحيّة للنّمل الأحمر وقد بدأ حجمها في التّضاؤل أكثر فأكثر.

- «لمْ نعرفْ أبدًا من أين تنبع هذه الأمواج الحيّة»، قال ماتيي الّذي يُعَدّ العالِمَ في فريق المبشّرين.

كان النّهر الحيّ، المتكون من مليارات الهوامّ الحيّة يسيل مثل حمم بركانيّة.

- «إنّها تسيل مثل نهر في جريانه»، قال ماتيي. «لكن هذه الصّورة ليست إلّا وهما، إنّه طوفان يجرف كلّ شيء يعترض طريقه. فقد غزتْ هذه الهوامّ مساحة من مئات الأمتار، على طول ضفّتيْ هذا النّهر الحيّ».

حمل أحد آكلي لحوم البشر نملة حمراء في راحة يده، ففحصها ماتيي بعدسة مكبّرة.

- «تُشكِّل الضِّباع والنّمور وبقيّة الوحوش الأخرى خطرا أقلّ فظاعة من خطر هذا الوحش الصّغير»، قال ماتيي. «إنّ هذا النّمل وذبابة التسي تسي وآلاف الذّبابات والعلقات والثّعابين الصّغيرة والدّيدان والأرضات، هي الجحيم المنقوص لكبار رسّامي الغرب، لا التّماسيح ولا الضّباع. فمنْ يعرف النّمل

الأحمر، لا يمكن أنْ يتخيّل جحيمًا دونه. وما وحوش غويا وبوش الرّؤيويّة، وحيوانات سلفادور دالي وبيكاسو الغرائبيّة إلّا مخلوقات ناعمة مقارنة بهذا النّمل المداريّ».

حدَّق المبشرون في النّملة الّتي شُلَّتْ حركتها تحت العدسة المكبّرة.

- «إنّها عبارة عن فم»، استطرد ماتيي. ويقتصر جسمها على فم واحد، شدق أكثر شراسة من أشداق أسماك القرش والتّماسيح، أمّا بقية أعضاء جسدها فليست إلّا توابع لهذا الفم المفترس، القارض والقاطع مثل منشار صغير لأيّ شيء يعترض سبيله».

- «لقد اختفت حبّة الفاكهة»، قال لوقا. «لقد التُهِمتْ في ظرف سبع دقائق تحديدًا».

ثمّ واصل ماتيي:

- «عندما لا تجد أيّ شيء تفترسه، تلتهم النّملة المداريَّة التّراب الّذي يمرّ عبر فكّيْها ومعدتها فيُصبح بُورًا إلى الأبد. فلمْ يحدثْ أن نبت شيء على أرض كان قد التهم النّمل ترابها. لا شيء يصمد أمامها، أفواهها تلتهم الخشب والصّخر كما الأظفار والشَّعْر. إنّها تسيل كنهرٍ، ينبع من الجحيم بكلّ تأكيد، ويصبّ في محيط من الرّعب. وويْلٌ للحيوان الّذي يقترب من ضفافه، سواء كان عصفورًا أو ثعبانًا أو غزالةً أو فيلًا، سيُفترس حتمًا».

رمى زينو حفنة تراب في النّهر النّحاسيّ الأحمر المتوهّج، فتركها النّمل تغرق، ثمّ أرسلها إلى السّطح. تغيَّر لون حفنة التّراب إلى

الأحمر، وبقيتْ تطفو ببطء شديد، ثمّ التُهِمتْ مثلما حصل مع حبّة الفاكهة منذ قليل.

- «أنا خائفة»، قالت بيانكا.

- «يتوجّه النّمل إلى الجنوب! يتوجّه النّمل إلى الجنوب!». صاح آكلو لحوم البشر.

غيّر نهر النّمل مجراه. ولوْ واصل السّيلان في هذا الاتّجاه، فستنجو قرية إيسيبوليا وبيت الصّلاة. لكن النّهر الأحمر لا ينفكّ يُغيّر اتّجاهه بسرعة كبيرة.

- «عندما أتيْنا إلى هذا المكان، كُنَّا على يقين من أنّنا سنتحمَّل أيّ شيء»، قال مارك. «أمّا الآن، فقد اختلط علينا الأمر ولمْ نَعُدْ نعرف شيئًا. إنّ احتمال أنْ تفترسنا هذه المليارات من النمل، هو خطر أكبر من إيماننا. ويُوجد شهداء افترستهم أسود ونمور، لكن ليس النّمل».

- «هيّا نرحلْ»، قال لوقا. «سنُصلّي، وسيمنحنا الربّ الشّجاعة».

كانت بيانكا تبكي، فاحتمال أن تستشهد بهذه الطريقة، هو احتمال مفزع بالنّسبة إليها. إنّها امرأة، ومن الطّبيعيّ أن تشعر بالرّعب.

كان آكلو لحوم البشر مسرورين لأنّ نهر النّمل الحيّ اتّبع وجهة جديدة، ولنْ يمرّ بإيسيبوليا، رغم أنّه كان قريبًا جدًّا من بيت الصّلاة، قريبًا أكثر من اللّازم.

(18)

عمليّة الاغتيال

كان السّبت الموافق للعشرين من كانون الأوّل هو تاريخ اغتيال الإنجيليّين الأربعة حسب مخطّط ستانيسلاس كريتزا.

ودَّع زينو المبشّرين وهو حزين جدًّا لفراقهم.

ثمّ أردف قائلًا:

- «عليَّ أنْ أُسرع، فالسيّد أومبيلينت ينتظرني لنقطع معًا رحلة ستستمرّ طيلة اللّيل وكامل يوم الغد».

- «لا تنسَ الرّسائل»، قال مارك.

كان الإنجيليّون قد عهدوا إلى الفَلاشي بحمل أولى رسائلهم من تروبيك.

- «لا تقلقوا بشأنها، سأضعها في صندوق البريد فور وصولي إلى العاصمة مساء الغد».

وفيما وقف المبشّرون قرب الشاحنة، شغَّل زينو المحرّك لكنّه لمْ يشتغلْ.

- «لا تندهشوا لوْ عُدتُ يومًا إلى هنا، إلى إيسيبوليا كي أعيش معكم»، قال زينو. «أنتمْ أفضلُ منْ عرفت على وجه الأرض. ولوْ ضقتُ ذرعًا بكلّ شيء في يوم ما، سأعود. الوداع».

رحل الفَلاشي بعد أنْ قضّى أيّامًا ثلاثة سعيدة رفقة المبشّرين. صحيح أنّ الفلاشيّين نصارى هُمْ أيضًا، لكنّ أشدّهُمْ تعصُّبًا لنْ يفكّر مطلقًا في التّخلّي عن كلّ شيء والسّفر لهداية قبيلة من آكلي لحوم البشر إلى النصرانيّة. لقد كان للإنجيليّين الأربعة تأثير قويّ على زينو، فقدْ أخبروه بأنّهم أبناء عمّال مناجم من الرّاين، وبأنّهم عملوا طوال حياتهم في الجمعيّات الخيريّة الّتي تكفّلت برعايتهم. فقد كان أربعتهم أيتامًا.

- «تندرج إقامتنا بين آكلي لحوم البشر ضمن مواصلتنا للعمل الخيري»، قال مارك.

ضغط زينو على دوّاسة البنزين متناسيًا المبشّرين، فهو يُفكّر في السيّد أومبيلينت الّذي ضرب له موعدًا عند الغروب في مكان يبعد مسافة ساعة عن إيسيبوليا.

- «تعالَ لتوديع الإنجيليّين قبل رحيلك»، هذا كلّ ما قاله الفَلاشي لماكس ليلة البارحة.

- «لا»، أجاب الرّجل الأسود.

آلمتْ هذه الإجابة زينو. لكنّه قال في نفسه:

- «إنّ السيّد أومبيلينت رجل طيّب، جدير بالإعجاب. لكنّه غريب الأطوار، فهو قلق وغاضب وعنيف طيلة الوقت».

وصلت الشّاحنة إلى المكان المحدّد إلاّ أنّ الرّجل الأسود لمْ يكنْ في انتظاره هناك.

- «لقد طلب منّي السيّد أومبيلينت أنْ لا أقلق إذا تأخّر في المجيء.

لذلك يتوجّب عليّ أنْ أنتظره في هدوء. وسيتكفّل آكلو لحوم البشر العشرة الّذين يرافقونه، بحمل حقائب الصّفيح. فليس أمامي الآن إلّا الانتظار في هدوء».

مدَّ الفَلاشي ساقيْه. وكما يفعل عادة حين يحظى بلحظة من الحريّة، أشعل سيجارة وفكّر في بلاد الفلاشيّين، في بلده.

* * *

كان ماكس أومبيلينت يتوسَّط السّود حين مرَّت نصف ساعة على غروب الشّمس. وقدْ عَبَّ خلال هذا اليوم، ضعف كميّة الرّوم الّتي تعوّد على تناولها. لذلك ارتختْ عضلاته وأصبح لسانه ثقيلًا. إنّه ثمل جدًّا وعاجز عن الوقوف، رغم أنّه يفضّل أنْ يظلّ منتصب القامة حين يكون رفقة آكلي لحوم البشر.

- «ما كان عليَّ أنْ أشرب كلّ هذه الكميّة من الرّوم»، قال ماكس في نفسه. «فاليوم يلزمني تنفيذ أهمّ الأمور. لكن كي تصبح هذه المهمّة يسيرة، ربّما من الأفضل أنْ أكون ثملًا».

- «ستُصبح بشرتكم بيضاء اليوم. ستتحوّلون جميعًا إلى بيض»، قال ماكس.

كانت الكلمات تخرج رخوةً من شفتيْ الرّجل الأسود، وتتمدّد كالعلكة فتعلق آخر المقاطع بين أسنانه.

- «إنّ اليوم هو يوم المعجزة الكبرى»، ردَّد السيّد أومبيلينت.

أسدل اللّيل ستاره. فبدا السّود المتحلِّقون حول ماكس أشدَّ سوادًا من الفحم. حتّى نساؤهم كنّ سوداوات مثلهم، وأولادهم

أيضًا. إنّ فقر السّود هو فقر أسود، كما أنّ وجودهم وجود أسود. ووحده العطش إلى المعجزة يتوهّج في حياتهم. فهذه المعجزة الّتي ينتظرون حدوثها في هذا السّبت الموافق للعشرين من ديسمبر، هي أكثر سطوعًا من الشّمس ومن القمر ومن قلب الظّهيرة، هذه المعجزة الّتي ستتحوّل بفضلها بشرتهم السّوداء إلى بشرة بيضاء.

- «هلْ ستبيضّ بشرة نسائنا أيضًا أم ستبقى سوداء؟»، سأل أحد آكلي لحوم البشر.

- «ستصبح نساؤكم بيضاوات»، أجاب ماكس.

لقد جعله الرّوم الأبيض سخيًّا.

سرتْ رعدة مشحونة بالسّعادة في أجساد السّود مثل تيّار كهربائي. فهُمْ سيجدون إثر عودتهم نساءً بيض البشرة، نساءً شقراوات بعيون زرقاء يرتدين ملابس داخليّة شفّافة مثل جميع النّساء البيضاوات.

- «ستصبحون كلّكم بيضًا مع حلول صباح الغد»، وعد السيّد أومبيلينت.

كان يشعر بعطش فظيع، فطفق يعُبّ الرّوم.

- «أغبياء!»، صرخ ماكس فجأة. «هل سبق أنْ رأيتم قومًا من البيض يتجوّلون عراة؟ إنّ الّذين لن يرتدوا ملابس كملابس البيض، سأُبقيهم سودًا».

لقدْ نسي آكلو لحوم البشر فعلًا، أنّ عليهم أنْ يرتدوا ثيابًا كيْ يُصبحوا بيضًا.

- «قيام!»، أمر السيّد أومبيلينت.

فوقف السّود فيما ظلّ هو جالسًا.

- تراجعوا عشر خطوات إلى الوراء!

تراجع السّود وقلوبهم تخفق بشدّة لاعتقادهم بأنّ هذه تمارين تمهيديَّة.

- «فلْيتقدّم إلى هنا صيّادو التّماسيح»، أمر ماكس.

لقدْ أخبر ستانيسلاس كريتزا ماكس بأنّ آكلي لحوم البشر بارعون في صيد التّماسيح. فهُمْ يغوصون في الماء ويقبضون على هذه الحيوانات المفترسة دون استعمال أسلحة. ورغم أنّ تماسيح هذه المنطقة عظيمة الحجم، ويفوق طول فكّ الواحد منها المتر، إلّا أنّهم يقومون باصطيادها على هذا النّحو: يغوص الأسْود في مياه المستنقع الدّافئة بعد أنْ يُعاين تمساحًا منفردًا، ويسبح في اتّجاهه دون أنْ يُحدث ضجيجًا، ثمّ يقترب إليه من الخلف، حتّى يُصبح جسده موازيًا لفكّي التّمساح. عندها ينقضّ على رأسه ويمتطيه، ثمّ يغرز أصابعه في عينيه وفي منخريْه وفي خطمه ويُطبق على فكّيْه مثل القفل. ثمّ يَشُلُّ حركة الحيوان المفترس بالضّغط على بعض الأعصاب الدّماغيّة، فيُصبح جسده رخوًا مثل الشمع. وحينئذ، يقلبه على ظهره، ثمّ يجرُّه إلى الحافّة مثلما يجرّ مركبًا أو جذع شجرة. وعند وصول الأسْوَد إلى الضفّة، يُلقي بالحيوان الرّخو كالخرقة على كتفه رغم أنّه ما يزال حيًّا. إنّ عمليّة الصّيد هذه تحتاج إلى السّرعة، والسّود يُتقنون خنق تمساح في سرعة البرق.

- «كلّنا صيّادو تماسيح»، قال آكاباتبغالو.

- «إذن فلْتذهبوا جميعًا، وتصرّفوا كما لوْ أنّكم ستذهبون لصيد التّماسيح»، قال ماكس بلهجة آمرة.

- «كمْ تمساحًا يتوجّب علينا الإتيان به، يا يا مو مبيلنت؟»، سأل آكاباتبغالو.

إنّه يعرف، بحكم التّجربة، أنّ السّاحر يحتاج إلى أشياء كثيرة كي يحقّق معجزة. ومن المؤكّد أنّ السيّد أومبيلينت في حاجة إلى تماسيح حيّة كي يستطيع تحويل السّود إلى بِيضٍ.

- «ادْخُلوا بيت الصّلاة، وتسلّلوا إليه خِفْيَةً، دون أنْ تُحدثوا ضجيجًا كما لو أنّكم تغوصون في الماء، كيْ لا تُوقظوا البِيض. ثمّ اقترِبوا من أسرَّتهم، تمامًا مثلما تقتربون من التّماسيح. وأحكِموا قبْضاتكم على حناجرهم وأفواههم وأنوفهم وعيونهم، تمامًا كما تفعلون مع التّماسيح. هيّا ردِّدوا ما كنتُ أقول».

- «سنُحكِم قبْضاتنا على أفواه البيض وأنوفهم وحناجرهم، تمامًا كما نفعل مع التّماسيح».

- «أجل، يجب أنْ تشُلّوا حركتهم كالتّماسيح تمامًا، حتّى يختنقوا ويفقدوا القدرة على الصّراخ. وعندما ترتخي أجسادهم، تحملونهم على أكتافكم، وتأتون بهم إلى هنا».

فَهِمَ السّود ما يتوجّب عليهم فعله، فَهُمْ متعوِّدون على تنفيذ عمليّات مماثلة. إنّهم لا يُفكّرون، الآن، في البيض الّذين يجب عليهم

جلبهم مثل التّماسيح، بلْ يُفكّرون في أنّهم سيتحوَّلون إلى بِيضٍ بمجرّد وصولهم إلى هناك. وهذا هو المهمّ.

- «هلْ تروْن هذه الأعمدة الأربعة؟»، سألهم ماكس.

حدّق آكلو لحوم البشر في الأعمدة الأربعة الّتي كانتْ قدْ غُرستْ عند الظّهيرة قرب طريق النّمل الأحمر المتحرّكة، وهي تتوهّج بيضاء تحت ضوء القمر.

- ستربطون الإنجيليّين إلى هذه الأعمدة الأربعة في طريق النّمل المتحرّكة.

أخذ ماكس أومبيلينت ينظر إلى آكلي لحوم البشر، لكنّه لم يقرأ على وجوههم أيّ ردّة فعل. كانوا فرحين ومبتسمين، لا لأنّهم سينفّذون جريمة، فهذا الأمر لمْ يخطرْ على بالهم، بلْ لأنّ بشرتهم ستصبح بيضاء. إنّهم لا يفكّرون إلّا في المعجزة، فقتل المبشّرين، هو مسألة ثانويّة. وهُمْ لا يفكّرون فيها إطلاقًا. ما يشغلهم كليًّا هو أنْ يُصبحوا بيضًا. وحين أمرهُمْ ماكس بالتّعامل مع الإنجيليّين كما يتعاملون مع التّماسيح، وجدوا هذا الأمر ممتعًا. فآكلو لحوم البشر لمْ يصطادوا أُناسًا بيضًا قطُّ.

- «منْ يصل منكم أوّلًا وعلى كتفه مبشّرٌ، سيتحوّل إلى أبيض قبل الآخرين. هيّا انطلقوا!».

كان لا يُوجد إلّا أربعة مبشّرين. إذنْ سيعود أربعة من السّود، يحمل كلّ منهم أبيض على كتفه، فيما سيعود السّتّة المتبقّون بخُفّيْ حُنين. ولذلك، ركض المتوحّشون في اتّجاه بيت الإنجيل، فكلّ واحد

منهم يرغب في أنْ يتحوّل إلى أبيض قبل الآخرين.

* * *

بقي ماكس أومبيلينت بمفرده، يُحدِّق في الأعمدة الأربعة.

منذ أربعة أشهر كان جيش الاستعمار قد غرس أعمدة التّليغراف في إقليم آكلي لحوم البشر الّذين ساعدوا الجنود في ذلك. فطلب ماكس من المتوحّشين أنْ يغرسوا في الأرض أربعة أعمدة على طريق النّمل الأحمر لأنّهم يتقنون هذا العمل جيّدًا. وهو الشّيء الوحيد الّذي تعلّموه من البيض.

كان الرّجل الأسود يتناول الرّوم وينظر إلى الأعمدة تارة وإلى ساعته تارة أخرى. مرّت ساعة وهو يذرع المكان جيئة وذهابًا، وظلّ على تلك الحالة لساعاتٍ حتّى قارب الوقت منتصف اللّيل.

- «من المؤكّد أنّ آكلي لحوم البشر ينتظرون نوم البيض، تمامًا كما يفعلون مع التّماسيح. فهُمْ لا يغوصون في الماء لاصطيادها إلّا حين تنام، ولا يُهاجمون أبدًا تمساحًا صاحيًا. إنّهم يصطادون التّماسيح النّائمة فقط. ولا شكّ أنّ السّود ينتظرون، الآن، أنْ ينام الإنجيليّون».

رفض أومبيلينت تخيّل المشهد، فمكث خالي الذّهن فيما تُحدّق عيناه في الأعمدة البيضاء.

وفجأة، لمح آكلي لحوم البشر العشرة تحت نور القمر الذّهبيّ وهُمْ قادمون من بعيد في ظلمة اللّيل. ثمّ شاهد بقعًا بيضاء على أكتاف السّود.

- «إنّ الأبيض لَلَوْنٌ جميل، كالثّلج تمامًا»، قال ماكس في نفسه.

اقترب السود، وعندما أصبحوا على بعد عشرين قدمًا منه، ارتجف أومبيلينت.

- «إنّ أجسادهم صغيرة كالأطفال. لمْ يخطرْ ببالي أبدًا أنّ البيض صغار الحجم إلى هذا الحدّ»، خمَّن ماكس.

اقترب السّود من الأعمدة حاملين الأجساد البيضاء على أكتافهم بينما غُرستْ أصابعهم عميقًا في عيون المبشّرين وأنوفهم وأفواههم وآذانهم.

- «لقد ماتوا، لقد مات أربعتهم»، قال الرّجل الأسود في نفسه.

أشاح ماكس ببصره لأنّه لمْ يكنْ يرغب في رؤية جثث البيض عن قرب. ومع ذلك، فقدْ لاحظ أنّهم كانوا عراة. إنّه لمْ يلمحْ الأموات عن قرب، ولمْ يرَ إلّا بقعًا بيضاء كالثّلج. هذا كلّ ما في الأمر.

- «شُدُّوا وثاقهم إلى الأعمدة الأربعة»، أمر ماكس.

لمح ماكس، عن غير قصد، أرجل البيض عن قرب.

- «إنّها أرجل صغيرة جدًّا»، قال ماكس في نفسه. «من المؤكّد أنّ هاتيْن القدميْن هُما قَدَمَا الفتاة، بيانكا. ثمّ قال بينه وبين نفسه إنّ أرجل جميع البيض صغيرة، وقد تكونان رِجْلَا مارك، الإنجيليّ الّذي يهوى مطالعة الرّوايات البوليسيَّة. لقدْ كانتْ رؤوس المبشّرين البيض تتدلّى على صدور المتوحّشين الّذين حملوهم كما يحملون التّماسيح تمامًا.

استدار أومبيلينت مُشيحًا بوجهه عن طريق النّمل، فيما تجمَّع

السّود حوله بعد أن فرغوا من ربط المبشّرين. فاحتْ من أجسادهم رائحة عرق قويّة تُشبه رائحة النّمل المدهوس، رائحة مثل تلك الّتي تبقى في السّيرك بعد انتهاء عرض الحيوانات البريّة. ثمّ ارتفعت هذه الرائحة فوق فريق آكلي لحوم البشر، كأنّها سحابة من العنف.

- «إنّها رائحة الجريمة»، خمّن ماكس، وقدْ ارتفع حوله جدار من اللّحم الأسود. فبدا كأنّه سجين في زنزانة جدرانها من الفحم المبلّل اللّامع أو في سرداب منجم.

- «حوّلنا إلى رجال بِيضٍ الآن!»، صاح أحد المتوحّشين. «حوّلنا إلى رجال بيض!».

كان السّود يلهثون، فتنبعث من أنفاسهم رائحة الخيانة والإثم، تلك الرائحة الّتي تملأ غرف العاهرات، رائحة الأسود وهي تمزّق فريستها.

- «حوّلنا إلى رجال بِيضٍ، يا مو مبيلينت!»، صاح آكلو لحوم البشر. «إنّ النّمل يلتهم البيضَ، وقدْ أتى دورنا كيْ نتحوّل إلى رجال بيض!».

- «ستُصبح بشرتكم بيضاء ما إنْ ينتهي النَّمل من التهام المبشّرين. أمّا الآن فلْتذهبوا إلى منزل الإنجيليّين، ولْتأخذوا كلّ أدباشهم ولْتحملوها معكم. ارتدوا ثيابهم، وخُذوا كلّ شيء. ثمّ أَضْرِمُوا النّار في المنزل. وبعد ذلك ارحلوا وانتظروا أنْ تتحوّل بشرتكم إلى بشرة بيضاء».

شرع السّود في إطلاق صرخات الفرح، وأخذوا يقفزون

ويرقصون مبتهجين. إنّهم مرهقون تمامًا، لكنّ التّعب والعاطفة تُثيرهم مثل الكحول. فالجريمة تبعث النّشوة في الأجسام كالخمر. لذلك يسكر القاتل بعد أن ينفّذ جريمته، وينتشي كما لو كان الرّوم قد تعتعه.

- «هيّا اذهبوا واستولوا على أدباش البيض، هيّا اذهبوا»، أمر ماكس.

اختفى السّود في ظلمة اللّيل وهُمْ يقفزون ويصيحون ويرقصون، فيما ظلّ ماكس وحيدًا، يُحدِّق في طريق النّمل. غاب بياض الأجساد الّتي أصبحت حمراء. ثمّ لمْ تلبثْ أن اختفتْ تمامًا، ولمْ تبقَ إلّا أربعة أعمدة.

عاد ماكس أومبيلينت إلى المعسكر. وسكب البنزين على الحقائب الصّفيحيَّة وعلى الخيمة، وعلى كلّ شيء. ثمّ أضرم النّار، وأحرق كلّ ما كان يملك. فلم يبق له غير قميصه الأحمر وبنطاله الأصفر الدّاكن وسوطه الأحمر وقنّينة الرّوم المدسوسة في الجراب الجميل الّذي يتدلَّى على صدره. عندها انطلق إلى مكان اللّقاء حيث ينتظره زينو في الشّاحنة.

سار ماكس بخطًى بطيئة قائلًا في نفسه:

- «لا تُفكّرْ في شيء، ماكس. إنّه الحلّ الوحيد يا ماكس. فلا تُفكّرْ..».

(19)

الفَلاشي والرّجل الأسود

كان زينو قلقًا. فمنذ خمس ساعات، وهو ينتظر سيّده في الشّاحنة، لكنّه لمْ يظهرْ بعدُ. ثمّ تذكّر أنّ مصابيح الشّاحنة مضاءة، وحتّى يُحافظ على البطّارية، أشعل النّار.

- «هلْ يُمكن أنْ يكون السيّد أومبيلينت قد تاه؟ ربّما قتله آكلو لحوم البشر، وربّما كان ثملًا، فسقط في مكان ما أو التهمته الأسود والنّمور...».

رغب الفلاشي في الذّهاب للبحث عن الرّجل الأسود، لكنّه تراجع قائلًا في نفسه:

- «لقدْ أمرني السيّد أومبيلينت بالانتظار هنا، وعليّ طاعته».

كانتْ سماء ما بعد منتصف اللّيل أشدّ صفاءً منها في وضح النّهار. وفجأة، لاح خيال الرّجل الأسود قادمًا بمفرده، فشعر زينو بالسّعادة فيما كان ماكس يتقدّم بخطًى متثاقلة نحو الشّاحنة.

- «تختلف مشية السيّد أومبيلينت عن مشية باقي النّاس»، قال الفَلاشي في نفسه. «إنّ جميع السّود يمشون بكامل أجسادهم، تمامًا كما تمشي الأُسُودُ والنّمور والفهود».

- «فلْيباركك الربّ، يا سيّد أومبيلينت»، قال زينو.

كان الرّجل الأسود على بعد خمسين قدمًا من الشّاحنة، حين نزع الجراب الّذي يربطه حول رقبته ورمى به إلى الفَلاشي.

- «املأْه»، أمر الرّجل الأسود.

ملأ زينو القنّينة، وقدّمها لماكس الّذي شرع يعبّ الرّوم الأبيض في صمت وهو يمتطي الشّاحنة.

تنبعث من الرّجل الأسود رائحة قويَّة هذا المساء، رائحة غريبة، رائحة الرّوم والحرب والإثم. إنّها رائحة الجريمة. كان منغلقًا على نفسه مثل قبر، وهو ما أثار خوف الفَلاشي، فصمَتَ.

- «انطلقْ!»، أمر ماكس.

شغّل زينو المحرّك، وقال قبل أنْ ينطلق:

- «ماذا عن الحقائب وآلات التّصوير... يا سيّدي؟ لمْ يجلبْ الحمّالون الحقائب بعدُ».

- «لقدْ أضعْتُها. غرقتْ الحقائب في الماء. هيّا انطلقْ».

- «وأين ذهب السّود، يا سيّدي؟ هل سنترك كزوب وناكوسانسوا؟»

- «يمكث السّود إلى جانب أمّهاتهم»، قال ماكس. «هيّا انطلقْ».

انطلقت الشّاحنة ومصابيحها مضاءة إلى العاصمة. كان القمر منيرًا، فأَضْحَتْ تروبيك بيضاء كما لو أنّ ثلجًا ذهبيًّا قدْ غطَّاها.

- «يُؤسفني حقًّا ضياع الحقائب وآلات التّصوير»، قال الفَلاشي. «لو كنتُ برفقتكَ لَمَا تركتُها تغرق».

فأمره أومبيلينت:

- «اخرسْ!».

إنّ الرّجل الأسود غائبٌ عن الوعي، لكنّه ليس نائمًا.

- «هلْ ستُبقيني في خدمتك فترة أطول؟»، تساءل السّائق.

لمْ يكنْ زينو يملك حاسَّة شَمٍّ قويّة، لذلك فهو قادرٌ على تحمُّل رائحة الرّوم ورائحة الأرجل المتَّسخة. أمّا الجنود فيملكون حاسّة شمٍّ قويّة، لأنّهم مجبرون، في أوقات المواجهات، على البقاء أيّامًا طويلة دون أنْ يغسلوا أرجلهم في جبهة القتال. لذلك، اكتسب زينو القدرة على تحمُّل كلّ شيء. إنّ الرّائحة الّتي تنبعث من جسد الرّجل الأسود الضّخم ليستْ رائحة كريهة، لكنّها رائحة قويّة جدًّا.

- «هل ستُبقيني في خدمتك عند وصولنا، يا سيّدي؟»، تساءل الفَلاشي مرَّة ثانية.

- «لِمَ تسألني عن هذا الأمر؟»، قال ماكس بصوت مبحوح.

- «في حال استغنيتَ عن خدماتي سأعود للعيش مع المبشّرين، يا سيّدي»، أجاب زينو.

ثمّ استطرد في الحديث عن شجاعة الإنجيليّين الأربعة ونزاهتهم:

- «إنّهم قدّيسون حقيقيّون، يا سيّدي. فبعد أنْ قضّيتُ ثلاثة أيّام برفقتهم، أصبحتُ أعرفهم جيّدًا. إنّهم يشبهون قدّيسي التّقويم، وأنا أرغب في أنْ أُصبح خادمًا لهُمْ طيلة حياتي. ستكون خدمة لوقا وبيانكا ومارك وماتيي بمثابة خدمة القدّيس بطرس وغابرييل وقسطنطين وكلّ قدّيسي التّقويم، وأجمل ما قد يحدث لي في الحياة هو أن أصبح خادمًا للقدّيسين.

فأجبني يا سيّدي: هل ستحتفظ بي في خدمتك بعد وصولنا إلى عاصمة ترويبك أمْ سأعود إلى إيسيبوليا للعيش مع المبشّرين؟».

صمت الفَلاشي. فقدْ قرَّر العودة للعيش بجوار القدّيسين الأربعة، ولمْ يَعُدْ يخشى شيئًا، لا الأُسُود ولا النَّمل ولا التّماسيح. ثمّ التفت إلى الرّجل الأسود الّذي يجلس، بلا حراك، شاخص البصر، محدِّقا أمامه في الفراغ، فيما تسيل من عينيه دموع برّاقة مثل اللآّلئ.

- «لِمَ تبكي، يا سيّدي؟»، سأله زينو.

لكن ماكس واصل بكاءه وتحديقه في الفراغ، فصمت الفَلاشي وقاد الشّاحنة في اتّجاه عاصمة ترويبك.

* * *

كان هناك حريف واحد، على رصيف مقهى فندق أفريكا بالاست، حين تجاوزت السّاعة منتصف اللّيل في هذا اليوم الموافق للواحد والعشرين من ديسمبر. هذا الحريف هو ستانيسلاس كريتزا، إنّه يجلس إلى الطّاولة منهمكًا في قراءة كتاب، وقد وُضعت أمامه قارورة ماء معدنيّ وكأس. كان النُدل ينتظرون مغادرته عندما تحين ساعة إغلاق المقهى.

- «آخر مرّة قَدِمَ فيها إلى هنا كانتْ من أجل الإعداد لمغادرة الأسْود»، قال أحد النُدل. «ولمْ يَرجعْ كريتزا إلى الفندق منذ ذلك الوقت».

لا يَشْبِكُ ستانيسلاس ساقيْه أبدًا لأنّه لا يُريد أنْ يَدْعَكَ بنطاله. إنّه يرتدي الطَّقم نفسه من القطن الرَّمادي ويلبس قفَّازات كعادته.

كان النُّدل ينظرون إلى نوافذ قاعة الحفلات المضاءة حيث ينصبُ العملةُ شجرة عيد الميلاد، عندما توقّفت شاحنة أمام رصيف الفندق. فوقف كريتزا تاركًا كتابه على الطّاولة إلى جانب قارورة الماء المعدنيّة.

نزل سائق السيّد أومبيلينت الأبيض من الشّاحنة. لقد تعرّف عليه النُدل. ساعد زينو الرّجل الأسودَ على النّزول ممسكًا إيّاه من ذراعه. وكان ماكس يرتدي قميصًا أحمر وبنطالًا أصفر داكنًا مدعوكًا وملطّخًا بالوحل، ويعلِّق في رقبته الجراب الجلديّ الّذي يحوي قنِّينة الرّوم.

- «صباح الخير، يا سيّد أومبيلينت»، قال النُّدل في صوت واحد.

لكن الرجل الأسود لمْ يُجبهُمْ، وواصل طريقه مترنِّحًا.

- «لقد عاد وهو في الحالة نفسها الّتي غادر عليها الفندق، إنّه ثمل تماما». قال النّادل الأوّل. ارتقى أومبيلينت الدّرجات المرمريَّة المؤدّية إلى رصيف الفندق. فأسرع إليه ستانيسلاس وأمسكه من ذراعه، ثمّ جلس قبالته. فشبك ماكس ساقيْه كما هي عادته دائمًا، وحدَّق في البعيد. أرهف النُدل السّمع، لكن الأسود والأبيض كانا صامتيْن، فيما اتّجه حمَّالو فندق أفريكا بالاست نحو الشّاحنة كي يُفرغوا حمولتها.

- «لقد أَضعْنا أمتعتنا ونحن نعبر النّهر»، قال السّائق. وقد غرقت جميع الأمتعة في الماء».

- «والآلات؟»، تساءل الحمَّالون. «هل غرقت الآلات أيضًا؟».

- كلّها. ولمْ نستطعْ إنقاذ أيّ شيء لأنّ النّهر مليء بالتّماسيح. فمن

المستحيل استعادة ما قد يغرق في قاعه.

- «هل غرق الصبيَّان الأسودان؟»، تساءل أحد الحمَّالين. «لقد اصطحبتما صبيّيْن أسوديْن. فهل غرقَا هُما أيضا؟».

- قطع الأسودان النّهر سباحة حتّى وصلا إلى الضفّة، وهُمَا بين عائلتيْهما الآن، فلا يُوجَد خطر أكبر من خطر التّماسيح بالنسبة إليهما. كما أنّنا لمْ نَعُدْ في حاجة إليهما.

زينو لا يكذب، فهو يُصدّق كلّ ما حدَّثه به ماكس. ولذلك، يستطيع الحديث لساعات طويلة عن كيفيّة غرق حقائب السّفر وكيف سبح كزوب وناكاسونسوا بين مئات التّماسيح.

عاد الحمَّالون إلى بهو الفندق بلا أمتعة. وقد أصبحتْ عودة ماكس السّريعة مفهومة الآن: لقد فقد أمتعته، ولم يعدْ هناك داع لبقائه داخل البلاد. إنّه خطأ الخادميْن الأسوديْن، وخطأ كريتزا الّذي لمْ يستأجرْ خدمًا ومرشدين أكفّاءَ كما يفعل باقي السيّاح.

- «زينو، اذهبْ وتناول العشاء»، أمر ستانيسلاس. «واجلسْ إلى طاولة بمفردك، كيْ تكون مرتاحًا أكثر».

ثمّ خاطب النُدل بكلّ أدب:

- «هل بإمكانكم تقديم العشاء لصديقنا السّائق؟ أما يزال الوقت يسمح بذلك ، أمْ فات الأوان؟».

- «هنالك دائمًا وقت لحرفائنا». قال النّادل.

ثمّ نظر إلى الرّجل الأسْوَد، وأضاف:

- «نرجو أنْ يتقبّل السيّد أومبيلينت أسفنا الشّديد على الحادثة

الّتي تعرَّض لها. إنّه خطأ الخادمَيْن الأسوديْن. ومن المستحيل الاعتماد عليهما».

أكل زينو الفَلاشي بشراهة، فيما جلس ستانيسلاس كريتزا وماكس أومبيلينت متقابليْن دون أنْ ينبس أيّ منهما بكلمة واحدة، وظلّ الأبيض يقرأ في انتظار أنْ يتكلَّم الأسود، ثمّ بادر بسؤاله:

- «هل حدث لك مشكل ما؟».

كان كريتزا متوتِّرًا مثل متفرّج على سباق خيول خلال الثّواني الأخيرة الّتي تسبق الوصول إلى العمود، فهو يريد أن يعرف ما وقع بالضّبط، لكن الأسود لمْ يكنْ على عجلة من أمره.

- «لمْ يحدثْ شيء. كلّ شيء انتهى على ما يرام»، أجاب أومبيلينت.

- «هلْ تأكّدتَ من الأمر بنفسك؟ هلْ شاهدْتَهُمْ بأمّ عينيكَ؟».

- «لمْ يبقَ أثر للبيض»، ردّ ماكس. «لقد مات أربعتهم ثمّ عُلِّقوا على الأعمدة في طريق النّمل، وقدْ بقيتُ هناك عشر دقائق أخرى حتّى غطّى النّمل أجسادهم، ولمْ يبق منها أيّ أثر. إنّ كلّ شيء انتهى على ما يرام. لمْ يبقَ أيّ أثر لأبيض، كما قمتُ بإحراق حقائب السّفر والأمتعة. أمّا الآن، فأريد أنْ أنام».

توهّجتْ عَيْنَا ستانيسلاس، وأزاح زجاجة الماء المعدنيّ، ثمّ مدَّ يده المدسوسة في قفّاز رماديٍّ إلى ماكس أومبيلينت وصافحه، صافح يده الضّخمة والسّوداء كقدم غوريلّا.

- «لدينا تذكرتا سفر على متن الطّائرة، وموعد الرّحلة صباح يوم الغد»، قال كريتزا.

- «حسنًا»، قال ماكس. «والآن أريد أنْ أنام».
- «لقد بقي سؤال واحد»، قال كريتزا. «ماذا عن السّائق؟ هلْ يعلم شيئا عن عمليّة القتل؟».
- «لا يعرف شيئا على الإطلاق، إنّ الفَلاشي لا يشكّ في شيء».
- «هلْ حمَّله المبشّرون رسائل؟»
- «ربّما. لمْ أسأله عنها. ماذا تريد أن تفعل بالفَلاشي؟»، قال ماكس.

ترقَّب الرّجل الأسود الإجابة بينما انهمك كريتزا في التّفكير: ينبغي أنْ يُقتَلَ زينو طبقًا للمخطّط. فمن الطّبيعي أن يشُكّ السّائق في شيء ما، مع مرور الوقت، وعندها سيتكلّم. لذلك، يفرض المنطق موتَه. يجب قتل الفَلاشي حسب المخطّط.

نظر ستانيسلاس إلى السّائق الّذي يأكل بنهم شطائر لحم الخنزير ويتأمّل العملة وهُمْ يُزيّنون شجرة عيد الميلاد بفوانيس ملوّنة، في قاعة الاحتفالات بأفريكا بالاست.

- «لنْ نضطرّ إلى قتله»، قال كريتزا في نفسه. «فقدْ تعمَّدتُ اختيار سائق فَلاشي، لأنّ كلّ الفَلاشيّين مرضَى تقريبًا. فهُمْ يُعانون من عمى الألوان، ويشاركون في أيّ عمليّة دون أنْ يُميّزوا شيئًا».

لقد كُتبتْ حياة جديدة للفَلاشي لأنّه يجهل كلّ شيء عن موت المبشّرين، وهو منشغل الآن بالنّظر إلى شجرة عيد الميلاد فاتّسعت عيناه من فرط الإعجاب. إنّه يتأمّل الأضواء الملوّنة.

- «أيّها النّادل!»، صاحِ ستانيسلاس.

اقترب النّادل.

- «السّائق سينام بالفندق، ثمّ يُسافر غدًا، فاحرصوا على أنْ يُهيّئوا له غرفة. أعتقد أنّ باستطاعتي الحصول على تذكرة سفر له على متن الطّائرة ليوم الغد».

دفع كريتزا ثمن زجاجة الماء المعدنيّ وطعام زينو، ثمّ شرح للنّادل:

- «لقد أنقذ السّائق حياة صديقي السيّد أومبيلينت، وأظهر وفاءً وشجاعة لا مثيل لهما. لذلك سأصطحبه إلى أوروبا، فيجب مكافأة الأوفياء دائمًا. أليس كذلك؟».

(20)

اثنان من البيض

ذهب ماكس أومبيلينت ليخلد إلى النّوم في غرفته الّتي كان قد حجزها له كريتزا في فندق أفريكا بالاست، وهي غرفة منعزلة وهادئة. ولمْ يلحظْ الرّجل الأسود الّذي بدا مستسلمًا، أنّها الغرفة ذاتها الّتي شغلها قبل رحيله. فقد عاش في العراء خلال إقامته في إيسيبوليا، وخرج من قوقعته مثل حلزون، لكنّه تقوقع على نفسه مجدّدًا حين انتهتْ مهمّته، ليعود وحيدًا الآن.

كانت الشّاحنة الّتي استقلّها للرّجوع إلى عاصمة تروبيك رابضةً أمام الفندق، وستعود إلى موقف السيّارات صبيحة اليوم الموالي.

بعد ذهاب الأسود، عاد ستانيسلاس كريتزا إلى رصيف مقهى الفندق، ليُنهي قراءة الفصل الّذي توقَّف عنده بمجيء ماكس. ثمّ أغلق الكتاب مُناديًا زينو، فأتى هذا الأخير، وجلس على الكرسيّ الّذي كان يشغله الرّجل الأسود.

- «لقد قُمتَ بمهمّتك بإخلاص»، قال كريتزا.

ثمّ أخرج حقيبة النّقود، وقدّم للسّائق حزمة من الأوراق النقديّة.

- «إنّ السيّد أومبيلينت مسرور جدّا بعملك».

- «لمْ أكنْ السّبب في ضياع حقائب السّفر. ولو كنتُ رفقة السيّد

أومبيلينت وقت الحادثة، لَغُصتُ في النّهر ولَفضَّلتُ الغرق كي أنقذ الحقائب»، قال زينو، ثمّ أضاف:

- «أمازلتمْ في حاجة إلى خدماتي؟».

- «كلّا، لقد انتهتْ مُهمّتك، ولمْ أعُدْ في حاجة إلى خدماتك»، أجابه ستانيسلاس، ثمّ سأله:

- «ما هي مشاريعك القادمة؟ كنتَ تقول إنّك ترغب في الهجرة إلى كندا».

كانت نوافذ قاعة الاحتفالات مضاءة كما في وضح النّهار. وفي الدّاخل انهمك العملة بتزيين شجرة عيد الميلاد. فتأمّل الفَلاشي الأضواء الملوّنة وتنهَّد، ثمّ قال:

- «لن أذهب، يا سيّدي، لا إلى كندا ولا إلى أوروبا».

- هلْ ستبقى في تروبيك؟

- أنا مُضطرٌّ إلى البقاء هنا، يا سيّدي، فلا يُوجد حلٌّ آخر.

عاد زينو إلى التَّحديق في شجرة عيد الميلاد، ثمّ قال شارحًا موقفه:

- إننا نحن الفلاشيّين أُناس عاطفيّون، يا سيّدي. هل تفهمُني؟ أنا عاطفيّ جدًّا، وأعرف أنّ هذا الطّبع ليس بالأمر المحمود، لكن هذا ما أنا عليه.

- «ألهذا السّبب ستبقى في تروبيك؟»، قال كريتزا.

- «بلى، يا سيّدي»، أجاب زينو. «ففي الوقت الّذي كان فيه السيّد أومبيلينت يُصوّر الوحوش بَقيتُ في إيسيبوليا، رفقة المبشّرين، لأنّ السيّد أومبيلينت هو من أمرني بذلك. وفي البداية اعتقدت

أنّ الإنجيليّين أشخاص مغفَّلون ومجانين. إنّه لأمر يبعث على الحيرة ألّا يجد أربعة شبّان متعلّمين وأذكياء ويتمتّعون بصحّة جيّدة شيئًا يفعلونه غير الذّهاب للعيش مع آكلي لحوم البشر. هل هذا أمر عاديّ؟ لكن تبيَّن لي بعد ذلك، أنّهم كانوا قدّيسين حقيقيّين، يعملون لخيْر السّود، وهُمْ على حقّ. فلو أنّهم لمْ يأتوا لمدّ يد المساعدة للسّود، لهلك هؤلاء أو خضعوا لسلطة الشّيوعيّين. إنّ الإنجيليّين وحدهم يعملون لصالح السّود في الوقت الرّاهن، فالبلدان المتحضِّرة مثل أمريكا وأوروبا لا ترسل إليهم إلا التجّار الانتهازيّين. وهؤلاء هُمْ أفظع من الشّيوعيّة وأفظع من الموت، لأنّهم لا يُفكّرون إلّا في كسب المال من عمل السّود ومن لحمهم ومن دمهم. الإنجيليون يعلمون ذلك. إنّهم قدّيسون وهُمْ يُساعدون السّود حقًّا. لقد أصبحتُ صديقا لهم.

- «وبالتّالي فأنت ترغب في العودة إلى الإنجيليّين؟»، سأل كريتزا.

- منذ الغد يا سيّدي، سأعود منذ الغد إذا لم تعودوا في حاجة إلى خدماتي طبعًا. سأعود إليهم غدًا في صورة عدم احتياجك إلى خدماتي.

- وماذا تُريد أن تفعل هناك؟ هل تُريد أن تصبح مُبشِّرًا؟

ضحك الفَلاشي، وقال:

- «كلَّا يا سيّدي، أُريد أن أخدمهم. فعندما أخدم بيانكا ومارك وماتيي ولوقا، فكأنّني أخدم القدّيس قسطنطين والقدّيسة

هيلين والقدّيس جورج والقدّيس غابريال. هل هناك شيء أجمل من خدمة القدّيسين، يا سيّدي؟».

– سنستقلّ أنا والسيّد أومبيلينت الطّائرة غدًا في اتّجاه أوروبا. فإذا كنت ترغب في مرافقتنا فسنصطحبك معنا. وسنوفّر لك عملًا. أنت سائق ممتاز والسيّد أومبيلينت مسرور بعملك. وإذْ أدعوك للسّفر معنا، فأنا أكافئك بذلك على إخلاصك وفضلك. تعالَ معنا أوْ إن شئتَ فاذهبْ للالتحاق بقدّيسيك وبآكلي لحوم البشر. كما تشاء.

– «يُشرّفني عرضك»، قال زينو. «أنت كريم جدًّا، ولكن سبق وأن قلت لك إنّني عاطفيّ. لن أذهب معكما لأنّ قلبي يدعوني للعودة إلى الإنجيليّين، فقد وعدتهم بالعودة».

لقد أنهى ستانيسلاس كريتزا تحقيقه وأدرك أنّه ليس من الضّروري قتل الفَلاشي لأنّه لا يعرف شيئًا عن مقتل المبشّرين، ولوْ عُذِّب حتّى الموت، فلنْ يعترفَ أبدًا بأنّ ماكس أومبيلينت قد قتل الإنجيليّين.

– «هل سلّمك المبشّرون رسائلَ قصد إيداعها صندوق البريد؟»، سأل كريتزا. «سأكون غدًا في أوروبا، وبإمكاني إيداعها في مكتب البريد بنفسي كيْ تصل بأسرع وقت. أعتقد أنّ الإنجيليّين ملهوفون لرؤية رسائلهم قد وصلت. ما رأيك؟».

– شكرًا لك، يا سيّدي.

أخرج زينو حزمة الرّسائل الّتي عهد إليه بها المبشّرون، وسلّمها لكريتزا.

- «الآن، اذهبْ للنّوم»، قال ستانيسلاس. «لقد حجزت لك غرفة في أفريكا بالاست. تعالَ لرؤيتي غدًا قبل أن أسافر. سأكون في بهو الفندق عند الثّامنة صباحا».

- «ليلة سعيدة، يا سيّدي، وشكرا لك»، قال زينو.

ثمّ دخل إلى الفندق وهو يشعر بسعادة غامرة. سلَّمه البواب مفتاح الغرفة، وفتح له الخادم باب المصعد. لقد شعر الفَلاشي بأنّه بخير:

- «لمْ أحلمْ أبدًا بالنّوم في فندق فخم كهذا!»، قال زينو في نفسه.

(21)

محدوديّة المعدّات البشريَّة

في السّاعة الثّامنة من صبيحة اليوم الموالي لوصول ماكس أومبيلينت وزينو الفَلاشي إلى العاصمة، ظهر ستانيسلاس في بهو الفندق مرتديًا الطّقم الرّماديّ نفسه وقبّعة القشّ ذاتها، وهو يضع النظّارات نفسها والقفّازات ذاتها المصنوعة من القطن الرّمادي والمزرّرة بدقّة فائقة، ثمّ اتّجه نحو مكتب موظّف الاستقبال.

- أرجو أنْ تُبلّغ السيّد أومبيلينت أنّ ستانيسلاس كريتزا ينتظره في البهو.

- «أنا آسف، فالسيّد أومبيلينت لمْ يعدْ هنا»، قال موظّف الاستقبال. «لقد نقلته سيّارة الإسعاف إلى مصحّة تروبيك ليلة البارحة، وأُجريتْ له عمليَّة جراحيّة لاستئصال ورم في المعدة في تمام السّاعة السّادسة صباحًا. لقدْ وصلتني هذه الأنباء في اتّصال هاتفيّ قبل عشر دقائق من مجيئك».

لمْ يُفاجأْ كريتزا بالمرّة، بلْ تلقّى الخبر في هدوء كما لو كان يتوقّعه. وقال في نفسه:

- «لا أستغرب الأمر. ففي كلّ مرّة، أستعين فيها بمُعدّات بشريّة أُقدِّر الآثار السّلبيّة لهذه المواد، لأنّ لها ثلاثة عيوب، وهي:

الموت والمرض والغباء. وكثيرًا ما تَصدُقُ توقّعاتي حول النّتائج الّتي يُمكن أنْ تَنجرَّ عن هذه العيوب الثّلاثة الكبرى حتّى أنّني لم أُفاجأْ مُطلقًا. لقدْ مرض الرّجل الأسود، وإنْ مات أو اقترف حماقات ما، فلنْ يُفاجِئَنِي ذلك، لأنّ الغباء البشريّ حتميّ كالموت تمامًا».

- «هل حالة السيّد أومبيلينت خطيرة؟»، سأل ستانيسلاس.

- «لن يُدْلِي الأطبّاء بأيّ معلومة قبل بعد مرور ثمان وأربعين ساعة»، أجاب موظّف الاستقبال. «لكنّ العمليّة نجحتْ على كلّ حال».

- «بات الأمر جليًّا»، قال كريتزا، ثمّ أضاف:

- «أرجو أنْ تُخبروا السّائق بأنّني أنتظره في البهو».

- «لقد رافق السّائق السيّد أومبيلينت إلى مصحّة تروبيك»، قال موظّف الاستقبال. «وقد أظهر شجاعة ووفاءً لا مثيل لهما في هذه الحالة، فهو لم يبرح أومبيلينت لحظة واحدة، ولا مأخذ على تصرُّفه هذا بتاتًا».

أنصت إليه ستانيسلاس، وهو يُفكّر كما لو كان يَعدُّ اللّآلئ:

- قطعة الغيار الثّانية لمْ تعُدْ موجودة في الفندق.

- «لو تكرَّمت بالاتّصال بالمصحّة»، قال كريتزا. «ما اسم هذه المصحّة؟».

- «مصحّة تروبيك»، أجاب موظّف الاستقبال، ثمّ اتّصل بالمصحّة وناول السّماعة لستانيسلاس الّذي أمسكها بيده

المقفَّزة وأنصت إلى الطّبيب.

- «هذا واضح تمامًا، يا دكتور»، قال كريتزا. «في غياب أيّة مُضاعفات، يجب على صديقي ماكس أن يُلازم السّرير عشرة أيّام. شكرًا، يا دكتور. هل بإمكاني الحديث إلى السّائق الّذي يُرافق المريض؟».

تسلّم زينو المكالمة، وكان صوته حزينًا ومنهكًا.

- «أنا أفهم حزنك»، قال ستانيسلاس كريتزا. «لكن إذَا واصلتَ البكاء والحديث في الوقت نفسه، فلنْ أفهم ما تُريد قوله. أنا أتفهَّم الأمر، فلْتَبْكِ عندما نُكمل المكالمة. هل ستَعُود إلى المبشّرين؟».

- «سأُوافي المبشّرين عندما يتعافى السيّد أومبيلينت»، أجاب الفَلاشي. «لا أستطيع أن أتركه بمفرده في الوقت الحاضر، فهو وحيد، وبقائي معه واجب إنساني».

- «اتّفقنا»، قال كريتزا. «أمّا أنا فسأغادر. ستُقلع طائرتي بعد ساعة، ولا جدوى من المرور إلى المصحّة. فقد أخبرني الطّبيب بأنّ ماكس لا يقدر على الكلام. لذلك فلْتُخْبِرْهُ عندما يستعيد وعيه، بأنّني سأعود لزيارته بعد عشرة أيّام».

استغلّ زينو لحظة صمت ستانيسلاس لِيُخبره ببعض التّفاصيل. قال له إنّه رأى ماكس مريضًا في منامه، فقفز من سريره وأسرع إلى غرفة السيّد أومبيلينت، ليسمعه من وراء الباب، وهو يئنّ فعلًا.

- ستُحدّثني بكلّ هذا عندما أعود بعد عشرة أيّام. والآن، وداعًا.

ثمّ أغلق كريتزا الخطّ، بينما واصل زينو حديثه.

دفع ستانيسلاس نفقات غرفة الفَلاشي في الفندق لمدّة عشرة أيّام أخرى، وأخذ حقيبته، ثمّ ودَّع الموظّف بكلّ أدب، وغادر الفندق. إنّ في انتظاره أعمالًا مستعجلة. فقد قضى المبشّرون الآن طبقا للمخطّط، وأصبح بإمكان كريتزا وكلّ الفروع في أوروبا، إرسال أكبر عدد ممكن من الصّحفيّين والسّينمائيّين والمصوّرين ومراسلي التّلفاز الّذين لن يجدوا، عند وصولهم، أيّ أثر للمبشّرين في إيسيبوليا، فيشرعوا في تصوير ما سيشاهدونه هناك، أيْ عمليّات القمع. إنّه لمن الطّبيعي، أن تُعلن قوّات الشّرطة الاستعماريّة شنّ عمليّات قمعيّة ضدّ آكلي لحوم البشر لمعاقبة القتلة، وسيُصوَّر كلّ هذا لِيُبَثَّ في التّلفاز. لقد قُتل المبشّرون الأربعة من أجل هذا الأمر.

لكنّ جميع من في العاصمة، بما في ذلك العاملون والنّزلاء في فندق أفريكا بالاست، يجهلون كلّ تفاصيل جريمة القتل الرّباعيّة.

(22)

تمرّد السّود

استقلَّ ستانيسلاس كريتزا الطّائرة، وغادر عاصمة تروبيك في الثّاني والعشرين من كانون الثّاني، وقد أُجريت العمليّة الجراحيّة لماكس أومبيلينت في السّاعة السّادسة من صباح اليوم نفسه.

تُشير السّاعة، الآن، إلى منتصف النّهار. استعاد ماكس أومبيلينت الّذي كان يرقد على الشّراشف البيضاء مثل دبابة سوداء، وعيه فيما كان زينو الفَلاشي مُرابطًا في الرّواق، أمام باب الغرفة الّتي يرقد فيها الرّجل الأسود، فهو لمْ يتحرّكْ من مكانه منذ وصوله إلى هنا، وظلّ يُصلّي للربّ كي لا يموت ماكس، ويضمّ صليبًا صغيرًا من المعدن الذّهبيّ -حصل عليه هديّةً من المبشّرين- بين يديه، كُتب عليه: «حماك الله». وعندما رأى زينو الممرّض أمام غرفة الأسود، أوقفه ليسأله عن حال صديقه، فأجابه الممرّض بلهجة غاضبة:

- «لا فائدة من الإلحاح، فهو لمْ يستعدْ وعيه بعدُ، ولا يُمكن الحديث إليه. يجب علينا الانتظار».

- «أرجو أنْ تضع هذا الصّليب الصّغير عند رأسه، فأنا واثق من أنّه سيجلب له الحظّ. لقد أهداني إيّاه المبشّرون الأربعة في تروبيك».

- «حسنًا»، قال الممرّض. «ولكن لا فائدة تُرجى من قضاء كامل الوقت في هذا الرّواق».

- «أعلم أنّ هذا الأمر لن ينفع في شيء»، أجاب الفَلاشي. «لكنّي لا أمكث هنا لغاية ما، بل أنا هنا لأنّ الصّداقة تفرض عليّ ذلك».

هزّ الممرّض كتفيه ودخل غرفة المريض الأسود الّذي ما يزال فاقدًا للوعي، لكنّه لمْ يمتْ، فوضع الممرّض الصّليبَ الصّغير على المنضدة، ثمّ خرج لِيَجِدَ الفَلاشي في انتظاره عند الباب.

- «لا يُمكنك الحديث إليه اليوم»، قال الممرّض. لقد وضعت ذلك الشّيء، أعني الصّليب، على منضدة الرّجل الأسود، وسيراه حالما يستيقظ، هذا إذا استيقظ صديقك الأسْود في يوم ما، لأنّ حالته حرجة لوْ تعلمْ. هل أنت قريبه؟».

حدّق الممرّض في وجه الفَلاشي، وقال:

- «كلَّا، لا يُمكن أن تكونَا قريبيْن بالطّبع. فهو أسود، وأنت أبيض».

- «نحن لسنا أقرباء»، قال زينو. «لقد جمع بيننا السّفر».

ذهب الممرّض لتفقّد غرف المرضى الآخرين، لكنّه سرعان ما عاد إلى السّائق، وقال له:

- «أرى أنّك مهتمّ بالرّوحانيّات. فلْتذْهبْ سريعًا إلى فندق أفريكا بالاست حيث يُقيم الوالي حفلة عيد الميلاد على شرف عمّال ترويبك البيض، وهذه الدّعوة الخاصّة بي، فأنا لا وقت

لديّ لحضورها. لذا عندما تسمع اسمي فاذهبْ مكاني وتَسَلَّم الهديّة».

أخذ زينو بطاقة الدّعوة.

- «ستتسلَّم الهدية»، قال الممرّض. «ومن ثمَّ سنتقاسمها. لا تنتظرْ أن يكون الحفل مميّزًا. إنّها مجرّد شجرة ميلاد للعمّال البيض».

لا يستطع الفَلاشي رفض عرض رجل يُعالِج ماكس أومبيلينت، فذهب على الفور.

* * *

كان قد تموقع حول نزل أفريكا بالاست حرّاس يرتدون زيّ الاحتفال، فاستظهر زينو ببطاقة الدّعوة الّتي كانتْ بِاسْمِ الممرّض، لكنّ الحارس لمْ يُكلّف نفسه النّظر إليها حتّى، وقال:

- «تفضّلْ بالدّخول، يا صديقي، لستَ في حاجة إلى إثبات أنّك أبيض، فالأمر واضح».

دلف الفَلاشي إلى الفندق. لقد كان لون بشرته بمثابة بطاقة هويّة أو بطاقة دعوة لحضور حفلة شجرة الميلاد. لقدْ خَدَمَهُ وجهه الأبيض في العديد من المواقف، وجهه الّذي داعبته أمّه وضربته الشّرطة، هاهو يقوم، الآن، مقام بطاقة هويّة تُمكّنه من حضور حفلة شجرة الميلاد.

كانت قاعة الاحتفال خالية من السّود، لأنّ الوالي أهدى هذه الحفلة إلى «صغار البيض» في تروبيك، فلا يُوجد هنا سوى عاملات

نظافة وسوّاق وبستانيّين وصغار موظّفين وعمال، كلّهم من البيض. قدَّم الوالي العقيد جوليهارت القائد العسكريّ في تروبيك ومساعده الرّائد بورمان، اللّذان كانا يقفان جنبًا إلى جنب بالقرب من شجرة الميلاد.

عندما دخل زينو إلى القاعة، وقع نظره على شجرة الميلاد وأضوائها الملوّنة، ثمّ سرعان ما تحوّل نظره عنها ووقع على العقيد جوليهارت الّذي كان منتصبًا كشجرة عيد الميلاد، بعيدًا عن جمهور البيض. فكلّ هؤلاء الرّجال البيض هم من البروليتاريا، ولا يرتدون ربطات عنق أبدًا، لقدْ ارتدوها اليوم فقط، أمّا الرّجلان الوحيدان اللّذان لا يضعان ربطات عنق فَهُمَا العقيد جوليهارت ومساعده. كان العقيد يرتدي قميصا بياقة مطويَّة، وبنطالًا لا يشدّه على خصره بحزام، إضافة إلى شارة الرّتبة الّتي كانت موسومة فقط على القلنسوة الّتي تُعوّض قبّعته العسكريّة المطويّة والموضوعة في جيب بنطاله. كان العقيد يرتدي بنطالًا أصفر داكنًا وقميصًا من اللّون نفسه من دون حشوات الكتفين، وهو ما أدهش زينو.

- في بلادي وحدهم الفارُّون من الجنديَّة لا يضعون حشوات ولا شارات.

ألقى نظرة على بابا نويل، ثمّ جلس بالقرب من الشّجرة ذات الأضواء الملوّنة والعقيد جوليهارت الّذي كان يتحدّث إلى الرّائد بورمان.

- «سأُسافر إلى أوروبا غدًا على الساعة السّادسة صباحا، يا صديقي»، قال العقيد. «ستعوّضني في قيادة تروبيك. إنّها أوّل

عطلة أقضّيها في أوروبا بعد زواجي الثّاني».

أخرج جوليهارت من محفظته صورة لثلاث نساء يرتدين فساتين زهريّة.

- «إنّ المرأة الّتي في الوسط هي ماجدالينا»، قال العقيد. «إنّها زوجتي، زوجتي الثّانية، وقد تزوّجنا منذ سنة، أمّا زوجتي الأولى فقد تُوفّيت في حادث سير، على يمينها مارتا وعلى يسارها ماريا. إنّهما ابنتاي مارتا ذات الستّة عشر عامًا وماريا الّتي تبلغ أربع عشرة سنة.

وصل الرّائد بروماني البارحة ليعوّض جوليهارت في فترة غيابه.

- «لقد جاءت زوجتي إلى هنا عديد المرّات»، قال العقيد. «ولمْ تقدرْ على المكوث أكثر من يوميْن أو ثلاثة، لأنّها لا تحتمل الحرارة المداريّة، ولكنّني أرجو أنْ تتمّ نُقْلَتِي إلى أوروبا».

وجد الفَلاشي نفسه إلى جانب جوليهارت بينما كانت جوقة الأطفال تُغنّي. وشاهد الصّور الّتي أراها العقيد للرّائد، فتعرَّف زينو إلى العقيد في صورة التُقطتْ له أمام فندق أفريكا بالاست، صحبة ابنتيْه وزوجته، وهو منتعلٌ خُفّيْن. كان الحذاء العسكريّ الجديد شبيهًا بالخفّ الّذي يرتديه المرضى في المستشفيات، فالجيش الحديث لمْ يعدْ يتنقّل سيرًا على الأقدام، ولمْ يعدْ في حاجة إلى مداسات، كما أنّه لا يركب الخيول أيضًا. لهذا فهو لم يعدْ في حاجة إلى جزمات، سواء كانوا يركبون دبّابة أو طائرة أو سيّارة جيب أو هيليكوبتر، فقد ارتاحت أقدام الجنود. واستُبدل البنطال والسّترة ببدلة تُقفل بسحّاب، صُنعت خصّيصًا لراحة الجسم. لقد بلغ الطّقم ذروة

الإتقان بتقليد تصميم ملابس الرضّع، ووحده اللّون يختلف.

- «غدًا، سأوافيهنَّ إلى أوروبا»، قال العقيد وهو يُطلع الرّائد على صور أخرى. «لمْ أكنْ سعيدًا يومًا بالعطلة مثل اليوم، حتّى عندما كنت في المدرسة العسكريّة».

- «عفوا أيّها العقيد»، قالت امرأة ترتدي فستانًا أسود، وهي تقترب من جوليهارت. وكانت تبدو فقيرة من خلال هيأتها، مثل كلّ البيض الحاضرين في القاعة. إنّهم بيض من الدّرجة الثانية في تروبيك.

- «هل الخبر الّذي أُذيع في الرّاديو صحيح أيّها العقيد؟»، سألت المرأة. «هل صحيح أنّ السّود ثاروا وقتلوا البيض؟».

- «من أنتِ؟»، سألها العقيد.

فحاولت السيّدة التّعريف بنفسها، لكنّ أُناسا آخرين تجمَّعوا حولهم.

- «سمعتُ ذلك بأمّ أُذُنيّ منذ دقيقتيْن»، قال أحدهم. «لقد تحدّثت الأنباء في الرّاديو عن تمرّد قام به السّود في إقليمهم وعن قتلهم البِيضَ أيضًا».

- «هذا صحيح»، أكّدت بعض الأصوات.

ارتسم الرّعب على وجوه البيض. فكثيرون هم الّذين علموا بهذا الخبر، كما أنّ كلّ المحطّات الإذاعيّة الأوروبيّة، كانت قد أعلنت عن تمرّد السّود وعن المجزرة الّتي ارتكبوها في حقّ البيض. توقّف أطفال المجموعة الصوتيّة عن الغناء والتفَّ الجميع حول العقيد جوليهارت

والرّائد بورمان.

- «اهدؤوا»، أمر العقيد. «لمْ يحدثْ شيء. فأنا القائد العسكريّ في تروبيك وأنا الشّخص المؤهّل للعلم بحدوث شيء ما أكثر من أيٍّ كان».

- «سمع الكثير من النّاس بنبأ تمرُّد السّود في الرّاديو»، قال أحد الحاضرين وهو عامل أبيض، فقاطعه العقيد قائلًا:

- «لا يليق برجل أبيض إشاعةُ مثل هذه الأخبار، فهذا من شأنه أن يثير سخريّة السّود. لذا أرجوكم أن تتحلّوْا بشيء من التّهذيب والكرامة، لأنّكم مواطنون بيض».

خيّم صمت رهيب على القاعة. فالبيض يعلمون أنّ عليهم التّحلّي بالكرامة، لكن يوجد ألف أسود مقابل أبيض واحد في عاصمة تروبيك، ولوْ اندلعت الثّورة فعلًا، سيفنى البيض رغم كلّ ما يتحلّون به من كرامة.

- «والآن، حان وقت توزيع الهدايا!».

صاح بابا نويل وهو جاثم على كرسيّه، وكانت تُساعده راهبة بيضاء في ذلك. ثمّ سمعه زينو وهو ينادي:

- «مصحَّة تروبيك؟ ألا يُوجد أحد من مصحّة تروبيك؟».

كانت الهديّة علبةً كرتونيّةً رُبطت بخيط ذهبيّ، فتقدَّم زينو وتسلَّمها، وهو مذهول لسماعه خبر الثّورة، فيما كان البيض يُناقشون تداعياتها وقد بدا عليهم القلق.

كان بوّاب فندق أفريكا بالاست الأسود يتجوّل أمام باب قاعة

الاحتفالات، والبيض ينظرون إليه في فزع، فهو أسود عملاق، طول قامته متران، ويرتدي زيًّا للماريشال نابوليون، عُلّقت عليه نياشين ذهبيّة وقبَّعة. إنّه يبدو كقائد حقيقيّ، وهو يتجوّل بهدوء، فاستدار البيض حتّى يتجنّبوا النّظر إليه.

تسلَّل الفَلاشي خارج القاعة وعاد إلى المصحّة، لأنّه خمّن أنّ ماكس أومبيلينت استعاد وعيه ويحتاج إليه بجانبه الآن.

* * *

بعد أن غادر زينو قاعة الاحتفالات راجت شائعات أخرى بلغت مسامع العقيد جوليهارت، مُفادها أنّ القبيلة الّتي أعلنت الثّورة السّوداء هي قبيلة آكلي لحوم البشر، وأنّ أوّل من قُتل من البيض هُمْ أربعة مبشّرين من طائفة الإنجيليّين.

تلقّى بابا نويل الأمر بتوزيع الهدايا بسرعة كبيرة. وفجأة، ظهر الملازم بلانك مرتديًا كعادته زيّ الدرَّاجين، ثمّ أخذ يركض والحضور يتبعونه بأنظارهم. ولكنّ الملازم لم يكنْ يحمل أخبارًا عن ثورة السّود، بل توقّف أمام العقيد جوليهارت، وناوله عُلبة بحجم ظرف صغير.

- «سيّدي العقيد، علمتُ بسفرك إلى أوروبا غدًا، فجلبتُ معي علبة من أجل خطيبتي. لقد سبق أن وعدتني بأن تحملها إليها. لَكَمْ أنت محظوظ بسفرك هذا!».

قاطع العقيد جوليهارت الملازم بلانك، وسأله:

- «هل أتيتَ مباشرة من إقليم السّود؟».

- نعم، سيّدي العقيد.

- لقد راجت، منذ نصف ساعة، أخبار عن تمرُّد السّود وقتلهم لأربعة مبشّرين. فما رأيك في هذا الكلام؟

- «هذا مستحيل تقنيًّا»، قال الملازم بلانك. «لقد غادرت موقعي عبر الطّائرة منذ ثلاث ساعات، وقد تركت الوضع هادئًا تمامًا. إنّ آكلي لحوم البشر هؤلاء، لا يتعدّون بضعة آلاف، يعيشون في البريّة، وهُمْ لا يملكون شيئا، ويعيشون على أرض قاحلة. فلو كان الأمر متعلّقًا بقبيلة أخرى، لاختلف. ولكنّ آكلي لحوم البشر الّذين ينتسبون للإقليم الّذي أُديره، هُمْ آخر من يثورون.

انتهت عملية توزيع الجوائز و التفّ بابا نويل والبعض من البيض حول صحفيٍّ أمريكي.

لكن كلّ الأنظار اتجهت نحو العقيد جوليهارت والرائد بورمان، والملازم بلانك وشجرة الميلاد المُنعزلين عن الحضور بعيدًا، في آخر القاعة. أمام النافذة كان البوّاب الأسود العظيم الجثّة في زيّ الإمبراطور، يتجوّل بخطى بطيئة كأنّه حيوان من حقبة ما قبل التاريخ.

- «صحيح أنّه يُوجد في إقليم آكلي لحوم البشر أربعة مبشرين»، قال الملازم. «وأنا أعرفهم. فقد جلبت لهم أسلحة منذ يومين».

- «هل تعتقد بأنّ ثورة آكلي لحوم البشر هؤلاء، أمر مستحيل؟»، سأل العقيد جوليهارت.

- «تقنيّا يجب أن تُستبعد هذه الفرضيّة تماما»، أجاب الملازم.

«إنّهم أكثر السود بدائيّة، وهُم لا يملكون أيّة معدّات. لو كان الأمر متعلّقا بقبيلة أخرى لكان اندلاع ثورة أمرا ممكنًا، أمّا في هذه القبيلة، فلا».

- «هل إمكانيّة حدوث جريمة طقوسيّة أمر مستبعد أيضا؟»، تساءل الرّائد بورمان. «يُمكن أن يكون آكلو لحوم البشر قد قتلوا المبشّرين من أجل أكلهم».

- «في الوقت الرّاهن لمْ تعدْ هناك جرائم قتل طقوسيّة. وربّما لمْ تُوجدْ هذه الجرائم قطّ. فالسّود قتلوا بشرا وأكلوهم، هذا أمر مؤكّد. لكنّ الجوع هو من دفعهم لارتكاب ذلك. لقد أكلوا ومن المؤكّد أنّهم سيأكلون جثثًا اليوم أيضا، ولكنّ الجوع هو السّبب دائما، تمامًا كالبحّارة النّاجين من الغرق الّذين يضطرّون إلى أكل جثّة رفيقهم».

- أنت المؤهّل أكثر من غيرك لنفي أو تأكيد هذه الشّائعات»، قال العقيد.

أجهد العقيد نفسه كي يبدو هادئًا ومسيطرًا على الموقف في القاعة، فيما كان البيض في حالة هيجان وذعر، كأنّهم سكارى.

- «ربّما قتل السّود المبشّرين يا سيدي العقيد»، قال الملازم بلانك، «لقد حذّرتهم من إمكانية قتلهم. لهذا جلبت لهم بعض الأسلحة».

- «ربّما؟»، قال الرائد. «هذا يعني أنّ الخبر يُمكن أن يكون صحيحًا؟».

- «لو مات المبشّرون فعلًا، فلن يكون ذلك إلّا مجرّد حادث»، قال بلانك. «هناك فرق بين ثورة ومأساة. وما وجودهم بين آكلي لحوم البشر وتحضيراتهم المنقوصة إلّا سبب من مسبّبات الكارثة. لقد كانوا ينشدون الموت، ولو قُتلوا فهذا لأنّهم أرادوا ذلك وليس لأنّ السّود ثاروا! يجب أن تُستبعد فكرة الثّورة بين آكلي لحوم البشر نهائيًّا».

دخل أحد الجنود إلى قاعة الاحتفالات واقترب من شجرة الميلاد، ثمّ وقف في وضعيّة استعداد أمام العقيد جوليهارت وقدَّم له ظرفًا. اشرأبَّت أعناق البيض الحاضرين وهمست الشّفاه:

- «لقد تمرّد السّود وقتلوا البيض، وها قد وصل النّبأ للعقيد».

حافظ العقيد على هدوئه، لكنّه شَحُبَ عندما قرأ نصّ البرقيّة. إنّها برقيّة صادرة من أوروبا.

«الإبلاغ فورا عن الإجراءات المتّخذة لتحديد مكان ثورة آكلي لحوم البشر. الإبلاغ عن اغتيال بيض آخرين إضافة إلى المبشّرين الأربعة».

ناول العقيد البرقيّة إلى الرّائد بورمان، فشَحُبَ لونه هو أيضا وارتعشت يداه، وأعطاها بدوره إلى الملازم بلانك الذي ابيضَّ لونه وأصبح كلون الورقة.

- «لقد جئت من إقليم آكلي لحوم البشر»، قال بلانك. «كنت هناك قبل ثلاث ساعات، أنا لا أعلم شيئا وأوروبا تعرف أسماء القتلى! هذا أمر مريب».

- «هل اصطحبت درّاجتك الناريّة؟»، سأل العقيد جوليهارت

الجنديّ الّذي أتى بالبرقيّة.

أخذ العقيد قلم الرّائد بورمان، وكتب: « إلى عائلة جوليهارت، يتعذّر عليّ المجيء لأسباب تقنيّة. إلى رسالة قادمة. ميلاد مجيد وعام سعيد».

- «أرسلْ هذه البرقيّة»، قال العقيد. «سألتحق بمكتبي بعد بضع دقائق».

أشار العقيد إلى الرائد بورمان والملازم بلانك بوجوب المغادرة بإيماءة، فهو لا يذهب في عطلة عندما تندلع ثورة في إقليمه.

في القاعة، تجمّع البِيضُ حول الضبّاط الثّلاثة، ولمْ يفسحوا المجال للعقيد حين أراد الخروج.

- «قلْ أيّ شيء»، قال له بابا نويل بصوت خافت.

ثمّ خلع قناعه وأبقى على ثوبه الأحمر. لقد كان سائقًا في شركة لزراعة الفول السّوداني.

- «بأيّ صفة تسألني؟»، قال له العقيد بنبرة جافّة.

مزَّق بابا نويل السّابق قناعه بغضب. إنّه رجل عنيف.

- «أسألك بصفتي رجلا أبيض يعيش في ترويبك أيّها العقيد. إنّها مسألة تهمنا جميعا، نحن البيض، ويجب علينا معرفة ما إذا قدْ ثار السّود وقتلوا البيض».

لم يُجبْه العقيد وغادر القاعة يتبعه الرّائد بورمان. فألقى بابا نويل بالقناع أرضًا وصاح:

- «من حقّنا معرفة ما يحدث!».

لكنّ الضبّاط الثّلاثة كانوا قد غادروا القاعة.

* * *

- «إنّ خبر تمرّد السّود ليس صحيحًا»، قال صحفيّ أمريكي، يجلس إلى طاولة بمفرده ويشرب البيرة طيلة السّهرة صارخًا في وجه البيض الّذين يمرّون بجانبه والحيرة على وجوههم:

- «ميلاد مجيد! لا وجود لتمرّد للسّود. أنا أعيش في ترويبك منذ عشرين سنة وأعلم أنّه لا وجود لتمرّد للسّود».

غادر جلّ الحاضرين. وحدهم ظلّ بعض الشّباب، في القاعة، يُصغون إلى الصّحفيّ الأمريكي الّذي كان الوحيد الهادئ وهو يدعو الجميع إلى طاولته.

- «إنّه عيد الميلاد»، قال الصّحفيّ. «لنشربْ معًا. لا تخشوا شيئا، فالسّود لا يثورون. أقسم لكم ليس هناك أيّ سبب يدفعكم إلى القلق».

جلب النُدل زجاجات بيرة أخرى.

أُطفئت شموع شجرة عيد الميلاد ولمْ تبقَ غير المصابيح الإلكترونيّة الصّغيرة مشتعلة. وواصل الصّحفي الأمريكي حديثه مشيرا إلى بوّاب أفريكا بالاست العملاق:

- «انظروا إلى هذا العملاق الأسْود بأوسمة الماريشال. إنّه الماريشال الوحيد في ترويبك. فلا تخافوا: طالما أنّ الماريشالات يحرسون الأبواب، فلا يُوجد خطر. إنّ الخطر، يا رفاقي البيض، يكمن في أنّ السود يملكون عضلات هُم أيضا. اُنظروا إلى

هذا البوّاب، إنّه يملك عضلات، اضربوها في نصف مليار وستعرفون كميّة الطّاقة الّتي يحملها الشّعب الأسود. فلا يُوجد عرق يملك عضلات مماثلة. عندما أنظر إلى السّود أتذكّر بحار النّفط الكبيرة الّتي ترقد في باطن الأرض. هذا النّفط بإمكانه تشغيل جميع محرّكات العالم. ولكنّ بحار النفط هذه لمْ تُكتشفْ بعدُ، تمامًا مثل السّود. إنّها محيطات مجهولة من الطّاقة. وجموع السّود على هذا الكوكب محيط مجهول من الحبّ والكراهيّة، منجم كبير من الطّاقة والإحسان والشّفقة ومن الحقد والانتقام. كلّ هذه المشاعر كامنة فيهم، دون أنْ تُهذَّب. وفي أحد الأيّام، ستنفجر كلّ هذه المشاعر مثل النّفط. ولكن ليس هذا المساء ولا هذا العام. هذا المساء بإمكاننا أنْ نشرب. ميلاد مجيد».

طلب الأمريكي المزيد من زجاجات البيرة للبيض المُتحلّقين حوله، فاحتسوها وهُمْ يُطيلون النّظر إلى البوّاب الأسود بزيّ الماريشال. وللمرّة الأولى، احتسبوا طاقة الأسود وحوّلوها إلى ألف واط من الحنان والانتقام الكامنيْن في الجموع السّوداء. إنّ هذه الطّاقة مروّعة، وتُضاهي مئات الشلّالات من الكراهيّة والحبّ، وألف واط من الشّفقة والانتقام.

لم يبق رجل أبيض واحد إلى جانب الأمريكي. فقد تجمّعوا كلّهم حول إحدى الطّاولات في آخر القاعة. وفجأة، عبر السّاعي القاعة راكضا، وقال للأمريكي:

- «إنّ الخبر صحيح! لقد تمرّد السّود وقتلوا البيض!».

قام أحدهم بتشغيل جهاز الرّاديو، فأعلن المذيع الخبر من أوروبا.

- «انتباه! انتباه! لقد قُتِلَ أربعة من المبشّرين على أيدي آكلي لحوم البشر في تروبيك. وهي على الأرجح، جريمةٌ طقوسيّة. يُدعى مسرح الجريمة إيسيوبوليا، ويعني هذا الاسم «جوزة خاوية». كما أثار الخبر ضجّة في كامل العواصم. وستُصدر الحكومة بيانًا رسميًا في الغرض، فيما يتوجّه مئات المراسلين الآن إلى تروبيك».

- «حتّى لو أكل السّود هؤلاء الإنجيليّين، فلا يُمكننا اعتبار ذلك ثورة»، قال الأمريكي. «وأنا أدعوكم إلى شرب البيرة، يا رفاقي البيض الأعزّاء، ميلاد مجيد!».

لكنّه ظلّ وحيدًا، فالسّود والبيض في عاصمة تروبيك يعيشون قلقًا كبيرًا. كانت كلّ المحطّات الإذاعيّة مفتوحة في المدينة. ولمجرّد سماع خبر ما، ينحني الجميع على النّوافذ وينظرون إلى الشّارع. إنّهم يخشون رؤية كتلٍ من السّود الثائرين تتدفّق إلى المدينة مثل طوفان من القطران والبترول.

- «أنا يانكي[1]!»، صاح الأمريكي. «نحن أيضا لدينا سُود ونعرفهم، سيقومون بالثّورة، لكن ليس هذا المساء. وباستطاعتنا أن نقول: «ميلاد مجيد»، يا رفاقي البيض. أنا أعرف ذلك، فنحن الأمريكان أيضًا، لدينا سود في بلادنا، في الولايات المتّحدة الأمريكيّة».

(1) مصطلح يُطلق على سكّان الولايات الشّماليّة في أمريكا للإشارة إلى سكّان نيو انغلند ذوي الأصول الإنجليزيّة.. (المترجمة).

(23)

الكاكاو والشّهداء

ستانيسلاس كريتزا هو من أذاع خبر اغتيال المبشِّرين الّذي ترك أثرا بالغًا في صفوف البيض. ففي مساء الثّاني والعشرين من كانون الأوّل، نشرت الصّحافة أولى البرقيّات الخاصّة بتمرّد قبيلة آكلي لحوم البشر، لأنّ جريمة قتل المبشّرين موضوع شيِّق. اكتسى الخبر أهميّة كُبرى وسط الأجواء الاحتفاليّة للّيلة الماضية. كان الجميع يتحدّث عن النصرانيَّة وعن غرائبيّة المناطق المداريّة، وعن الشّباب والمغامرة والتّضحية والعادات الدمويّة، عن كلّ مكوّنات المأساة اعتمادًا على تصوّرات قديمة.

ولكن لكلّ كارثة انعكاساتها السّياسيّة، فقد طالبتْ وزارة المستعمرات باجتماع مُضيّق لمجلس الوزراء، لدرس إمكانيّة جني فوائد سياسيّة من هذه المأساة.

اجتمع المجلس، وهذا ما قاله الوزير باختصار:

- «لقد التهم آكلو لحوم البشر أربعة مبشّرين. ستقولون لي إنّ هذا الحدث لا يستحقّ عقد اجتماع لمجلس الوزراء في ليلة عيد الميلاد، وأنتم مُحقّون، فهذا ليس حدثًا سياسيًّا، ولكن بإمكاننا أن نجعله كذلك».

- «التهم آكلو لحوم البشر المبشّرين من فرط الجوع، أو لأسباب دينيّة ربّما. وسيكون من الصّعب إثبات أنّ السّود يأكلون لحوم البشر لأسباب سياسيّة»، قال وزير الاتّصالات.

- «اسمحوا لي»، قال وزير المستعمرات. «وقع الحدث في إحدى مستعمراتنا، والضّحايا هُمْ أربعة شبّان قرأنا أسماءهم في الصّحف. فنحن لا نملك أية معلومة رسميّة، لكن ما ورد في الصّحافة جليّ. إنّ المسألة لمثيرة للغاية بالنّسبة إلى ذوي الإحساس المرهف. ولكنّنا، كحكومة، لا يعنينا الجانب المثير والعاطفيّ في القضيّة. فنحن لا ننفي تأثّرنا بهذه المأساة، لكن يبقى أهمّ شيء بالنّسبة إلينا هو وجود مزارع شاسعة للكاكاو في المناطق المتاخمة لإقليم آكلي لحوم البشر الّذين قتلوا المبشّرين، فنحن نجلب من هناك نسبة تسعين في المائة ممّا يستهلكه الأوروبيّون من الكاكاو. إنّ هذه المزارع ملك لنا، لكنّ الأراضي الموجودة في المستعمرات هي أراضٍ متحرّكة.

لقد فقدنا منذ سنة 1945 وإلى حدّ هذا اليوم، أيْ خلال السّنوات الاثنتيْ عشرة الأخيرة، أربعةً وعشرين شعبًا وثمانمائة مليون نسمة من الأفراد الّذين كانوا يعملون لحسابنا، أقصد ثقافيًّا وحضاريًّا. والآن، لمْ يعدْ هؤلاء الأفراد الثّمانمائة مليون يعملون لصالحنا، نحن الأوروبيّين، بل يعملون لمصلحتهم هُمْ. هذا هو الوضع، لكن في المقابل لا يجب أن نُبالغ، لأنّ ما حدث ليس كارثيًّا. فمازال لدينا نصف مليار من البشر أوفياء لنا على خطوط الطّول والعرض، ومن بين هؤلاء الّذين يعملون لصالح الحضارة ولخير

الإنسانيّة، أيْ من أجلنا نحن الأوروبيّين، يُوجد أيضًا سود تروبيك حيث نملك مزارع الكاكاو الرّئيسيّة. وبسبب المؤامرات الأمريكيّة والرّوسيّة في الأمم المتّحدة، سنخسر قريبًا هذه المستعمرات. لذا علينا أنْ ننظر إلى الأمور بواقعيّة. فنحن على يقين بأنّنا سنخسرها، لكن من الواجب أنْ تكون خسارتنا لها مؤجّلة أطول وقت ممكن. وحين نعمل على الاحتفاظ بالمستعمرات، نساعد هؤلاء النّاس على العيش بكرامة، أيْ على العمل من أجل خدمةِ قارَّةٍ تملك جامعات وآثارًا تاريخيّة مجيدة. إنّ جريمة قتل المبشّرين تُمكّننا من تأجيل خسارة مستعمراتنا المداريّة حيث مزارع الكاكاو، ولن يكون دم الإنجيليّين قد سُفِكَ هدرًا، لو تصرّفنا بعقلانيّة، فدماء الشّهداء يمكن أن تفيدنا في الاحتفاظ بمزارع الكاكاو، لأنّ اليوم الّذي سيعيش فيه السّود في تروبيك من أجل أنفسهم بدلًا منْ أنْ يعيشوا من أجل الثّقافة والحضارة، أيْ في اليوم الّذي سيُصبحون فيه مستقلّين، لنْ نحصل على الكاكاو مجدّدًا. وحينها، سيكون الوضع مأساويًّا بالنسبة إلى أوروبا».

- «لا يجب أنْ نُهوِّل الأمور»، قال وزير الاتّصالات. «يُمكننا شراء الكاكاو، ولن يكلّفنا ذلك الكثير. وهناك دائمًا وسيلة للتّوافق في السّياسة، فالشّعوب تحتاج إلى العملة الصّعبة في أوّل عهدها بالاستقلال، والسّود لا يشربون الكاكاو مع الحليب مثلنا نحن المتحضّرين، لذلك سيبيعونه لنا، لأنّهم سيظلّون متوحّشين حتّى عندما يستقلّون، ولن يتناولوا الشّوكولا، بل سيبيعون الكاكاو الّذي يزرعونه، وسنشتريه منهم بثمن بخس».

- «لن تقدر أوروبا أبدًا على شراء الكاكاو من مستعمراتها السّابقة»، قال وزير المستعمرات. «سيشتري السّوفيات محصول الكاكاو كلّه، وسيشترونه عمدًا ليحرمونا منه، لأنّهم يُدركون جيّدًا أنّ الكاكاو ضروريّ لنا. وسيُعطي السّوفيات منه إلى الصّينيّين الّذين لمْ يتذوَّقوه قطّ، وسيأكل الماغول والقيرغيزيّون الشّوكولا. فحتّى لوْ كانوا لا يستسيغونها، سيأكلونها من أجل أنْ يمنعوها عنّا. وسيتعلَّم كلّ المتوحّشين شرب الكاكاو وأكل الشّوكولا، مع احتمال تقيّئهم لها بعد ذلك، فقط من أجل حرماننا منها».

- «سنزرع الكاكاو في أماكن أخرى»، قال وزير الاتّصالات. «فقد صنعت أوروبا عديد المعجزات على مرِّ التاريخ!».

- «هذا مستحيل»، قال وزير المستعمرات. «تمتلك أوروبا العبقريّة، هذا أمر مؤكّد. وتبقى عبقريّة أوروبا عظيمة إلى اليوم، حتّى لوْ فقدت مليارا من العبيد تقريبًا. فالنظريّة السوفييتيّة الّتي تقول إنّ عبقريّة أوروبا تُقاس بعدد عبيدها غير صحيحة. ولكن رغم عبقريّتنا لن ننجح أبدا في زرع الكاكاو على ضفاف نهر السّين أو نهر التّايمز أو الرّاين».

- «سنُعوِّض الكاكاو بشيء آخر»، قال وزير الاتّصالات.

- «إنّ الكاكاو جزءٌ لا يتجزَّأ من ثقافة أوروبا»، أجاب وزير المستعمرات. «وثقافة بلد ما، لا تتكوّن من المكتبات والمتاحف والجامعات فقطْ، إنّها كلٌّ لا يتجزَّأ. والكاكاو جزء من هذا الكلّ، فهو ثقافتنا، وهو الثّقافة الحقيقيّة الوحيدة. إنّ الكاكاو

يعني: الشّوكولا وفطور الصّباح وتناول القربان للمرّة الأولى والتّعميد والزّواج وعيد الميلاد، وهو مرتبط أيضًا بثقافتنا شأنه شأن الخمر والنّفط والكهرباء واللّغة اللّاتينية والقانون الرّوماني. لذلك، سيكون دم الشّهداء الأربعة سبيلًا لإنقاذه».

- «لمْ أدركْ العلاقة بين الشّهداء والكاكاو بعدُ»، قال وزير الاتّصالات.

- «لقدْ وقَّع سود تروبيك على وضعهم كخارجين على القانون بقتلهم المبشّرين. إذ التهموا الإنجيليّين، وأثبتوا أنّهم يأكلون لحوم البشر. فلمْ يعُدْ باستطاعتهم تسوُّل الاستقلال والسّيادة في أروقة الدّيبلوماسيّة العالميّة، لأنّ القبائل الّتي لها سوابق عدليّة في أكل لحوم البشر لا يُمكن أنْ تحصل على الاستقلال. فالاعتراف باستقلال شعب ما وسيادته، يعني الاعتراف بعاداته وتقاليده أيضًا. وممثّلو السّلك الدّيبلوماسيّ المعتمد لدى أمّة من آكلي لحوم البشر، قد يجدون أنفسهم مدعوّين إلى احتفلات وطنيّة، أيْ إلى وليمة من اللّحم البشريّ، دون أنْ يملكوا القدرة على رفض الدّعوة. فهل يمكن أن تتخيّل القاصد الرّسولي مدعوًّا إلى أكل شريحة لحم آدميّة مشويّة؟».

ثمّ ختم وزير المستعمرات قائلًا:

- «يجب أن نستغلَّ صنيع آكلي لحوم البشر كي نظلّ في تروبيك، كما يجب أنْ نساعد السّود على إعداد سجلّ عدليّ مستعجل لآكلي لحوم البشر باعتبارهم مجرمين وقتلة، نُلوّح به أمامهم كلّما طالبوا باستقلالهم. وعلينا أيضًا أنْ نُرسل إلى تروبيك

-على حساب الدّولة طبعًا- الصّحافة والإذاعة والتّلفزيون والسّينمائيّين والمراسلين وكلّ أنواع الشّهود. فهذا الفعل الوحشيّ يجب أنْ يُذاع بكلّ الوسائل الّتي تملكها أمّة عُظمى، ونحن أمّة عُظمى!».

صوّت مجلس الوزراء على اقتراح وزير المستعمرات. وفي مساء اليوم نفسه، وضعت الحكومة على ذمّة الإعلاميّين طائرات عسكريّة لنقلهم إلى تروبيك، وتلقَّى العقيد جوليهارت الأمر بتوفير كلّ التّسهيلات الممكنة على ألّا يدّخر جهدًا في سبيل ذلك، مع التّعجيل في إعداد ملفّ السّود.

في ذلك المساء نشرت الحكومة هذا البيان:

- «نؤكّد رسميًّا اغتيال آكلي لحوم البشر للإنجيليّين: ماتيي ولوقا ومارك وبيانكا. وطبقًا للمعلومات الّتي أدلتْ بها السّلطات، فإنّه يتعذّر علينا أن نُثبت ما إذا كان الإنجيليّون قد التُهِمُوا أحياء أو أُلْقِيَ بهم إلى النّمل الأحمر. وإذا ما تأكّد ذلك، فسوف تكون هذه المرّة الأولى في تاريخ المسيحيّة الّتي يُلقى فيها شهداء ليلتهمهم النّمل أحياء».

كان تأثير هذا البيان بالغًا، فالنّاس يبكون، فيما تساءل قرّاء الصّحف لمَ لمْ يلتهمْ آكلو لحوم البشر المبشّرين عوض الإلقاء بهم إلى النّمل، لأنّ ذلك سيكون أقل وحشيّة في نظرهم. وشعرت كلّ العائلات بالحزن كما لو كان آكلو لحوم البشر قد التهموا أحد أفرادهم.

إنّ أوروبا عاطفيّة ومتضامنة وفي منتهى الإنسانيّة. وتوقّع الجميع

أن يكون عيد الميلاد حزينا، في أجواء شبيهة بأجواء حرب صليبيّة. إنّ أوروبا مستعّدة للدّفاع عن المسيح مرّة أخرى، كما فعل الصّليبيّون من قبل. فكلّ أوروبيّ يشعر، الآن، بأنّ القدّيس لويس قد استيقظ في داخله.

ومن جهة أخرى، كان وزير المستعمرات واثقًا من أنّه قد ضَمِنَ الكاكاو الضّروريَّ لأبناء الأوروبيّين لعشر سنوات أخرى على الأقلّ بفضل دماء المبشّرين الّتي أُريقتْ.

(24)

الفَلاشي والشّهداء

كانت عاصمة تروبيك تَعجُّ بالمراسلين والصّحفيّين الّذين كتبوا مقالات مؤثّرة عن المبشّرين، نشرتها كلّ الصّحف.

مرّة أخرى، ذهب زينو إلى القيادة العسكريّة. وهو يذهب إلى هناك باستمرار منذ الإعلان عن الجريمة دون أنْ يستقبله العقيد جوليهارت إلى حدّ هذه اللّحظة. كان العقيد مشغولًا بنقل المئات من المراسلين الّذين تدفّقوا أفواجًا من كلّ أنحاء العالم، إلى إقليم السّود يوميًّا، وإعادتهم من هناك إلى العاصمة. فيما انهمك من جهة أخرى، في تنفيذ الأمر الّذي تلقّاه بالقبض فورًا على آكلي لحوم البشر لتورّطهم في جريمة القتل الرباعيّة.

استمرّ الفَلاشي في زيارة القيادة العسكريّة يوميًّا، كيْ يُحدّثهم عن الصّداقة الّتي جمعته بالمبشّرين الأربعة، وعن الأيّام الثّلاثة الّتي قضّاها بينهم، ويخبرهم بأنّه كان ينوي العودة للعيش بينهم، لأنّهم قدّيسون.

– «لديّ ما أخبرك به»، قال زينو لمساعد القائد.

– «هلْ تعرف شيئًا ما عن موت الشّهداء؟»، سأله المساعد.

– «إنّني صديقُهم»، قال زينو. «هؤلاء الشّهداء كانوا أصدقائي،

إنّهم أربعة قدّيسين حقيقيّين».

- «أتعرف منْ قتَلَهُمْ؟ هلْ أنتَ على علمٍ بحيثيّات الجريمة؟».

- «لا يعلم الأمر أيّ كانَ»، قال زينو. «وقد جاء في الصّحف، أنّ آكلي لحوم البشر هُم الّذين قدّموهم وليمة للنّمل».

- «هل كانوا على علمٍ بأنّهم سيُقتلون؟»، سأل المساعد.

- «كانوا يعتقدون أنّ الله سيحميهم»، ردَّ زينو.

- «هل كنتَ تَعلمُ أنّ المبشّرين سيقتلون؟».

- «لوْ عرفتُ ذلك يا سيّدي، لفديْتهم بروحي».

- «إذا كنتَ لا تعلمُ شيئًا عن جريمة قتل المبشّرين، فاذهبْ الآن، وعُدْ مرّة أخرى. نحن مشغولون بالبحث عن المجرمين. فهل تعرف أسماءهم؟»، قال الموظّف.

- «كلّا يا سيّدي. لكنّهم لمْ يقتلوا بشرًا عاديّين. لقد قتلوا قدّيسين»، قال زينو.

أُذِنَ للفَلاشي بالانصراف. فعاد إلى المصحّة وهو يتحسّر على عدم معرفته أسماء القتلة. فلوْ عرف أسماءهم، لاستقبله العقيد جوليهارت، ولاستطاع أنْ يحدّثه عن مدى روعة المبشّرين.

استوقف ممرّض السيّد أومبيلينت زينو قائلًا:

- «إنّ صديقك يطلب رؤيتك، فاذهبْ إلى غرفته، لكن لا تُجهده بالكلام كثيرًا».

كان ماكس ممدّدًا، بلا حراك، على الشّراشف البيضاء كالثّلج، وقد هَزُلَ جسمه حتّى غدَا أشبه ما يكون بصخرة من الفحم. وفيما هو

نائم، دنا الفَلاشي من السّرير على أطراف أصابعه، ثمّ جلس بالقرب منه، ووضع في جوف المنضدة كرّاسًا مغلّفًا بالقماش الأسود، كُتِبَ عليه بأحرف حمراء جميلة: «استشهاد قدّيسي تروبيك»، وقدْ أُلصقتْ على صفحته الأولى صور المبشّرين الّتي قصَّها من الصّحف، فيما أُلصقتْ على بقيّة الصّفحات كلّ المقالات والتّحقيقات والبرقيّات المقتطعة أيضًا من الجرائد. ثمّ تناول زينو المقصّ وعلبة الغراء من درج المنضدة، وشرع في اقتطاع كلّ ما له علاقة بأصدقائه القدّيسين كيْ يلصقه على الكرّاس. وحين نظر إلى ماكس ومن ثَمَّ إلى صور الإنجيليّين، مقلّبًا الصّفحات بعناية، اغرورقتْ عيناه بالدّموع، وظلّ يحدّق بعينيه المبلَّلتين في جسد الرّجل الأسود الملفوف بالضّمادات، وهو يتنفّس بصعوبة.

كانتْ الغرفة طافحة برائحة أدوية قويّة. وكلّما استيقظ الأسود، يشرع زينو في الحديث عن آخر الأخبار المنشورة في الصّحف. فيقاطعه هذا الأخير لأنّه لا يريد سماع أيّ شيء عن استشهاد المبشّرين.

- «اخرسْ! هذا لا يعنيني».

وظلّ الأمر نفسه يتكرّر في كلّ مرّة. يواصل الفَلاشي قراءة الصّحف، خاصّة في الوقت الّذي يكون فيه ماكس نائمًا.

قلب الصّفحة وقرأ:

«آخر الأخبار من الإقليم الّذي نُكِّل فيه بالمبشّرين: قال مُراسلنا الخاصّ إنّه وصل، في صبيحة هذا اليوم، إلى قرية إيسيبوليا صحبة المظلّيين التّابعين للعقيد جوليهارت. وقد أضحت القرية مساحة مُقفرة حمراء، مُغطّاة بأكوام من الرّماد. حتّى عبوّات الصّفيح

والأشياء المعدنيّة الّتي رصدتْها طائرات الهيليكوبتر يوم أمس في أنقاض بيت الصلاة، اختفتْ. لقدْ بحث مراسلنا عن طريق النّمل، لكنّه اختفى تمامًا كما اختفى آكلو لحوم البشر، ولمْ يبقَ إلّا القاعُ الّذي مرّ عليه هذا النّهر الأحمر وقدْ أضحى نظيفًا وبرّاقًا، بل أملس كالأثر الّذي يخلّفه الميسم على ورك حيوان».

- «يا للمبشّرين منْ مساكين!»، قال زينو وهو يضع الكرّاس في مكانه، فوق المنضدة الملاصقة للسّرير. ثمّ عقد ذراعيه وبقي يُحدّق في ماكس.

لقد أصبح الفَلاشي صديقًا للمبشّرين. وحين استشهدوا صار صديقًا للرّجل الأسود الّذي تعكّرتْ صحّته فلمْ يَعُدْ يُريد سماع أيِّ خبر عن الجريمة.

فجأة، فتح ماكس عينيْه ونظر حوله فزعًا. ثمّ سأل زينو ما إنْ لاحظ وجوده:

- «كيف حالكَ؟».

- «هلْ مازال جرح العمليّة يُؤلمكَ، يا سيّدي؟ هلْ آلمك كثيرًا اللّيلة الماضية؟».

- «غيّرْ الموضوع»، قال الرّجل الأسود.

- من المؤكّد أنّ الإنجيليّين قدْ تألّموا كثيرًا حين كان النّمل ينهشهم أحياء. فقدْ قالت الصّحف إنّ الأجساد الّتي ينهشها النّمل تتألّم أكثر بكثير من الأجساد الّتي ينهشها نمر أو ضبع. يا للقدّيسين المساكين! لقد كان ألمهم فظيعًا بالتّأكيد!

- «لمْ يتألّموا»، قال ماكس أومبيلينت.

كانتْ نبرة صوته جافّة وحادّة.

- لمْ يشعروا بأيّ ألمٍ. إنّ الصّحف كاذبة والمراسلين أغبياء، فوحدهم البقّالون وتجّار الجبن يتألّمون في لحظة الموت، أمّا القدّيسون فيموتون والبسمة مرسومة على شفاههم. فهُمْ يجدون لذّة في الموت. لذلك، لمْ يتألّم القدّيسون الشّهداء عند استشهادهم.

- «يتألّم الشّهداء أيضًا، يا سيّدي»، قال الفَلاشي. «كيف يمكنكَ التّفكير في أنّ بيانكا ومارك لمْ يتألّما، عندما نهش النّمل جسديْهما مليمترًا بعد آخر؟».

- «اخرسْ!»، قال الرّجل الأسود. «فالأمر لا يعنيني».

صمت زينو، لأن الرّجل الأسود كان يتنفّس بصعوبة وبشكل متقطّعٍ، وهو غاضب ولا يرغب في سماع الحديث عن المبشّرين. فقد قال ماكس في نفسه: «يوما ما سأصدع بالحقيقة في وجهه، في وجه الفَلاشي. سأقول له: أنا من قتل قدّيسيك، وقد قُدتَ سيّارة السفّاح الّذي كان ذاهبا لقتل الإنجيليّين. أنت شريك القاتل الّذي اغتال قدّيسيك، فلا تلمْ نفسك بعد الآن». لكنّ الرّجل الأسود ظلّ صامتا، لأنّ وجه الفَلاشي الخانع والحزين والنّحيل، قد أثّر فيه. فكّر ماكس:

- «إنّ زينو رمز الجهل الخالص، فهو لا يفقه شيئا، وتصوُّره للعالم يتلخّص في هذه الكلمات: الإنسان هو الإنسان. ومع

شخص مثله لا يُمكننا تشييد كاتدرائيّات وثقافة، ولا يُمكن أن نكتب أغنية، لكنّ هذا مثير للإعجاب. فكم هو رائع جدًّا أن لا نملك غير هذه الفكرة: الإنسان هو الإنسان».

- لقدْ سبق وأن أخبرتني بأنّ لديك الملايين من الدّولارات، يا سيّدي؟»، سأل الفَلاشي.

- «أجل»، قال الرّجل الأسود. «أملك ملايين الدّولارات».

- «هل لك أب وأمّ، يا سيّدي؟».

- «أجل»، أجاب ماكس. «لديّ أمّ، وهي جميلة وطيّبة كالخبز اللّذيذ وأبي جدير بالإعجاب».

تنهّد زينو.

- «لمَ تسألني عن هذا؟»، قال الرّجل الأسود.

- «بما أنّك تملك بيتا وعائلة، ولك كل ما يلزمك كي تنعم بالعيش مع أحبّتك في هذا البيت، فلِمَ اخترت حياة التّيه في هذه البلاد المتوحّشة، يا سيّدي؟».

- «لأنّني أسود»، أجاب ماكس أومبيلينت. «فلا يكفي أن تحظى بثروة حتّى تنعم بحياة هادئة».

حرّك الرّجل الأسود جسده الضّخم، وتذكّر الأخوين كنور ويوم المحاكمة وموسكو واغتيال المبشّرين وكلّ ما حدث له، فقط لأنّه أسود. كانت صورة أمّه موضوعة على المنضدة. إنّها زنجيّة قصيرة القامة وبدينة، رائعة الجمال، متّشحة بالعديد من الأساور والقلائد والخواتم.

- هل لي أن أسألك عن شيء آخر، يا سيّدي؟

- «اسألْ»، أجاب الرّجل الأسود.

- ما اسم والدتك، يا سيّدي؟

- «يُناديها الجميع الأمّ أفريكا أو ماما أفريكا»، أجاب الرّجل الأسود.

- «ستكون ماما أفريكا سعيدة جدًّا لو وُجد على هذه الأرض رجل حقيقيٌّ، يا سيّدي، رجل يُمسك بيدك ويصطحبك إلى منزل والديك، ثمّ يدقّ جرس الباب ويسأل: «هل تقطن ماما أفريكا هنا؟ أريد التحدّث إلى الأمّ أفريكا. أيّتها الأمّ أفريكا، لقد وجدت ابنك تائهًا لوحده وحزينا في بلاد بعيدة، وها أنا أعيده إليك لأنّني أعرف مدى محبّتك له. وستمسكك الأمّ أفريكا من رقبتك وستقبّلك وستبكي فرحا وستقول للشّخص الّذي أعادك إليها: أنت نصرانيّ بحقّ، يا سيّدي، وما تفعله هو عمل صالح لا يليق إلّا بنصرانيّ حقّ».

- «هذا غير ممكن»، قال الرّجل الأسود.

- «لماذا يا سيّدي؟ إنّ طريق العودة يا سيّدي هو الطّريق الوحيد الّذي لا يتطلّب بذل مجهود، إنّه أقصر الدّروب وأجملها في حياة الإنسان. فعندما كنتُ أذهبُ إلى المدينة بالعربة، كانت الخيول تقطع الطّريق في ساعة. كنّا نقضي كامل اليوم في المدينة، وعندما نعود في المساء، تكون الخيول منهكة، لكن رغم إنهاكها فقد كانت تقطع الطّريق في نصف ساعة فقط، لأنّ الطّريق

المؤدّية إلى المنزل سهلة، للخيول كما للبشر».

اغرورقت عينا الرّجل الأسود بالدّموع، ثمّ سأل زينو:

- «هل ستأتي معي لو فكَّرتُ في الرّجوع إلى بيتي؟».

- «نعم. فبحوزتي الآن المال الكافي كي أبتاع تذكرة سفر إلى أوروبا أو إلى أمريكا. وسأذهب إلى أمريكا لأُعيدك إلى بيتك، يا سيّدي».

في تلك اللّيلة، كتب ماكس أومبيلينت رسالة إلى ماما أفريكا، أخبرها فيها بأنّه قادم، ثمّ أعطى إلى زينو ثمن تذكرتيْ الباخرة.

- «سنرحل حالما يسمح لي الطّبيب بمغادرة المصحّة»، قال ماكس أومبيلينت وهو يتخيّل نفسه قد وصل إلى أمريكا.

- هل والدتك مؤمنة، يا سيّدي؟.

- «إنّها مؤمنة وتقيّة جدًّا»، أجاب ماكس. «لكن لِمَ تسأل؟».

- سأحدّثها عن مقتل القدّيسين، يا سيّدي، وستُصغي إليّ.

ولكن لا الفَلاشي ولا ماكس حَسِبَا حسابًا لستانيلاس كريتزا.

(25)

القاتل الأسْوَد يشعر بالخوف

مرَّت عشرة أيّام كاملة على دخول ماكس أومبيلينت مصحّة تروبيك، عشرة أيّام منذ رحيل ستانيسلاس كريتزا، وعشرة أيّام منذ أن نُشر خبر اغتيال المبشّرين.

نزل زينو من غرفته في نزل أفريكا بالاست عند السّاعة الثّامنة، فقد اعتاد الذّهاب إلى المصحّة كلّ صباح، كما لو كان يذهب إلى عمله. لمْ يكنْ بإمكان ماكس أومبيلينت مغادرة السّرير بعدُ، لكن في غضون خمسة أيّام ستُقلُّه سيّارة الإسعاف إلى الباخرة. فقدْ سمح له الأطبّاء بالمغادرة يوم الرّابع من كانون الثّاني. كان زينو سعيدًا لأنّه سيصطحب الرّجل الأسود إلى عائلته. وهو الأمر الّذي رفضه ماكس في البداية، لكنّه لا يحلم إلّا بالرّحيل الآن. فطلب إحضار حقائب وملابس وأشياء أخرى متعلّقة بالسّفر، لأنّه لا يشتري شيئا إلا بكميّة مُضاعفة.

نزل زينو إلى بهو الفندق، وسلَّم مفتاح غرفته إلى موظّف الاستقبال.

– «لقد تمَّ دفع حساب إقامتك إلى حدود هذا اليوم، يا سيّدي. فالسيّد ستانيسلاس كريتزا كما تعلَمُ هو من دفع الحساب

مُسبقًا»، قال موظف الاستقبال. «هل ستستمرّ في الإقامة عندنا أم ستُغادر؟».

تردَّد الفَلاشي، عليه أن يمكث خمسة أيام أخرى في انتظار إبحار الباخرة.

-«سأغادرُ. سأصعد لجلب حقيبتي، ثمّ أغادر الفندق»، قال زينو.

بعد خمس دقائق، غادر الفَلاشي نُزل أفريكا بالاست، ثمّ اتّجه إلى وكالة الأسفار حيث حجز تذكرتيْ سفر على متن الباخرة.

- «تذكرتان في الدّرجة الأولى لزينو الفَلاشي وماكس أومبيلينت»، قال زينو.

- «ستُبحر باخرة الأوروبوليس يوم الرّابع من كانون الثّاني»، قال الموظّف وسلَّمه الظّرف الّذي يحتوي على التّذكرتين، فوضعه الفَلاشي في جيبه وهو ينظر مُبتسمًا إلى ملصقات السّفر المعلّقة على الجُدران، ملصقات كاتدرائيّات وأشجار نخيل وجزر وبحار زرقاء.

كان زينو يقرأ الصّحف يوميًّا، مُترقّبًا خبر خرورج السّوفيات من فَلاشيا، حتّى يتمكّن من العودة إلى بلده، بلده الّذي لن يعود إليه ما دام منزله مُصادرًا من قبل الآخرين. وهو يعيش هذا الترقّب كما لو كان في قاعة الانتظار. لذلك فكلّ تجاربه مؤقّتة، إذْ كلّما باشر عملا إلّا وكان يعلم مُسبقًا بأنّه مهدّد بالانقطاع عنه في أيّ لحظة، لأنّه سيعود حتمًا إلى وطنه في الوقت الّذي سيعرف فيه أنّ الغرباء غادرو!

منزله وبلاده. ولذلك كان زينو يجهل كمْ ستدوم إقامته في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

دخل الفَلاشي مصحّة تروبيك حاملًا حقيبته في يده، وتوجَّه نحو غرفة الأسود كعادته، ثمّ دخل مكتب المقتصد ووضع حقيبته على الأرض.

- اقترحتَ عليّ يومًا أنْ أعمل سائقا لسيّارة الإسعاف، وقدْ رفضتُ الأمر لأنّني لمْ أكن أرغب في شيء حينها، أمّا الآن فسأقبل عرضكَ. لقدْ سلّمت مفاتيح غُرفتي في أفريكا بالاست، وأستطيع العمل لمدّة خمسة أيّام، إذْ سأسافر بعد انقضاء هذه المدّة.

قال إنّ بإمكانه حجز غرفة بأفريكا بالاست، ولكنّ سعرها مرتفع إلى درجة مشينة.

- «إنّه مال مهدور، يا سيّدي»، قال زينو. «فأنْ أنام في المصحّة وأعمل حتّى يحين موعد سفري أشدّ نزاهة. هل مازلت تحتاج إلى سائق؟».

عيّن المُقتصدُ زينو كسائق معوِّض، ثمّ قاده إلى السّقيفة، وهو ما أدخل فرحة عارمة على الفَلاشي.

- «سأبدأ في العمل حالًا»، قال زينو. «سأذهب لأُحيّي ماكس أومبيلينت، وأُسلِّمَهُ تذاكر الباخرة، ومن ثمَّ سأكون تحت تصرّفك».

تركَ السّائق حقيبته دون أن يفتحها، في غُرفته الصّغيرة والنّظيفة،

ونزل الدّرج راكضًا، ثمّ دخل غرفة ماكس أومبيلينت، فوجده متوتّرًا وغاضبًا.

- «حماك الله، سيّد أومبيلينت»، قال زينو.

لكنّ الرجل الأسود لمْ يُجِبْه. وحين أبصر الفَلاشي الصّحيفة الموضوعة على السّرير مفتوحةً، أيقن أنّ ماكس كان بصدد قراءة تحقيق حول موت المبشّرين.

- «لمْ تقرأْ شيئًا عن موت المُبشّرين»، قال زينو مُندهشًا.

سكت الرّجل الأسود الّذي كان يقرأ في لهفة، وقد شَحُبَ وجهه.

- «لمْ أعدْ أقرأُ الصّحف، يا سيّدي»، واصل الفَلاشي حديثه. «فالصّحف اليومَ لا تكتب أشياء جميلة تليقُ بموت قدّيسي تروبيك، لمْ يُكتَبْ أيّ مقال يُنصِفُ المبشّرين كما حصل في بادئ الأمر، وأصبحنا لا نقرأ إلّا المقالات الّتي تتحدّث عن الجيش وعن الجنود الّذين يُبيدون السّود، فيما لا نجد فيها كلمة واحدة عن القدّيسين الشّهداء».

أسقط الرّجل الأسود الصّحيفة، فأخذها زينو وطواها. فلاحظ عنوان المقال الّذي كان يقرأه ماكس: «القتلة الآخرون في تروبيك».

- «لماذا تقرأ الصّحف، وأنت تعرف أنّ مُحتواها سيُثير غضبك؟»، سأله الفَلاشي. «أُنظرْ إلى يديك كم ترتجفان، يا سيّدي».

- «قرأتُ هذه الصّحيفة من أجل العنوان»، قال الرّجل الأسود. «وأعرف أنّ قتلة تروبيك هُمْ آكلو لحوم البشر. فهل تعتقد أنّ هُناك قتلة آخرين غيرهم؟».

- «إنّ قاتلي القدّيسين الشّهداء هُمْ آكلو لحوم البشر»، أجاب زينو شارحًا موقفه. «أمّا القتلة الآخرون في تروبيك، فإنّهم الجنود الّذين يُطلقون الرّصاص على السّود، وأقصد الجيش».

لقدْ شَعُر ماكس بالخوف عندما قرأ العنوان: «القتلة الآخرون في تروبيك»، وانتابه فزعٌ لمْ يعرفْ مثله في حياته، فقد كان ينتظر أنْ يقرأ اسم ماكس أومبيلينت واسم ستانيسلاس كريتزا، لكنّ الأمر لمْ يكنْ متعلّقًا إلّا بالجيش، الجيش الّذي أطلق النّار على السّود. وفي تلك اللّحظة فقط، هدأ إمبيلينيت فيما ظلّ جسده الأسود يرتجفُ.

- «أودّ أن نرحل في أقرب وقت ممكن»، قال ماكس. «أخشى أن يُصيبنا مكروه».

- «سنُغادر يوم الرّابع من كانون الثّاني صباحًا»، قال زينو.

- أنا أستغرب عدم مجيء ستانيسلاس كريتزا، فقدْ أخبرني بأنّه سيعود بعد عشرة أيّام. وهذا يعني أنّ مكروها ما قدْ أصابه.

كان الرّجل الأسود يشعر بالخوف لاعتقاده بأنّ كريتزا قد اُعْتُقِلَ، ولو حدث هذا الأمر فعلًا، فسيعتقلونه هو أيضًا.

- «من المؤكّد أنّ ستانيسلاس تعرّض إلى مكروه»، قال ماكس أومبيلينت. «إنّني خائف».

- «لا تخشَ شيئا، يا سيّدي»، قال الفَلاشي. «سأقيم هنا بداية من اليوم، فقدْ عُيِّنت سائقًا حتّى يَحينَ وقت رحيلنا، وقدْ حصلتُ على غرفة هنا».

نظر الرّجل الأسود إلى تذاكر الباخرة، ثمّ وضعها إلى جانب

صورة «ماما أفريكا». لقد انتابه شعور بالضّعف، منذ أنْ بدأ يفكّر في والدته وفي العودة إلى المنزل، في ما مضى كان يشعر بأنّه قويّ لأنّه يملك خطّة محدّدة أو رغبة في شيء مّا.

- «كان يُمكنك البقاء في غرفتك في أفريكا بالاست، كنتُ سأُعطيكَ المال الكافي»، قال ماكس.

- «من الأفضل أن أبقى معك هنا، تحت سقف واحد. أَلَسْنَا صديقيْن، يا سيّدي؟»، سأل زينو.

- لا يُصادق الرّجل الأبيض إلّا رجلًا أبيض مثله، فلماذا ترغب في أن تكون صاحبًا لرجل أسود؟.

- هل تعتقدُ بأنّني كنتُ سأتركك وحيدًا في محنتك لأنّ لون بشرتك أسود؟ إنّ الرّجل الحقيقيّ لا يفعل شيئًا مماثلًا. وقدْ بقيتُ إلى جانبك عندما وقعتَ في هذه المحنة، لأنّه من الطّبيعي ألاّ أتخلّى عنك.

- لا يُمكن للأبيض أنْ يُصادق أسود. هذا مستحيل. وأتساءل أحيانًا ما إذا كنتَ أبيض حقًّا؟

ضحك الفَلاشي بصوت عالٍ.

- لكنّ الأمر هكذا، يا سيّدي! من الواضح جدّا أنّني أبيض، وهكذا وضعتني أميّ، فانظُرْ إليّ. وزدْ على ذلك، لمْ يُكلّفْ أعوان الشّرطة أنفسهم عناء النّظر إلى بطاقة الدّعوة يومَ ذهبتُ لحضور حفل عيد الميلاد، بل اكتفوْا بالقول: «تفضّلْ بالدّخول، فواضح أنّك أبيض». إنّ لون بشرتي، يُرى عن بعد، ولا حاجة

إلى دليل مكتوب على ذلك، ووجهي هو بمثابة بطاقة هويّة. أنا أبيض بالطّبع!

- «هل ترى هذه الصّورة؟»، سأله الأسْوَدُ، وأشار إلى صورة النّجاشي في الصّحيفة.

- هل هذا الرّجل أبيض أم أسود؟

انفجر زينو ضاحكًا مجدّدًا، ثمّ قال:

- «حتّى الطّفل الصّغير سيلحظ أنّه أسود، يا سيّدي. فالجميع يعرفه. إنّه النّجاشي إمبراطور الحبشة. فكيف لإمبراطور الحبشة أن يكون أبيض؟».

كان الفَلاشي مرحًا كطفل صغير.

- النّجاشي رجل أبيض. اسْأل الأطبّاء عن الأمر، وابحثْ في الموسوعة. إنّ الحبشيّين من العرق الأبيض رغم سواد بشرتهم، كما أنّ السّينيغاليّين قومٌ بيض، وإنْ كانت بشرتهم أشدّ سوادًا من بشرتي. لا تنسَ أنّه جاء في الكتاب المقدّس: «احذروا الأشياء الظّاهرة».

- «لا أحبّ أن أسمعك تتحدّث على هذا النّحو، يا سيّدي»، قال السّائق. «أشعر أنّ أمرًا ما يُثقلُ قلبك، شيئًا ما ينخرك من الدّاخل. فهل باستطاعتي مساعدتك؟».

- «أريدُ أن نرحل في أقرب وقت ممكن»، قال الأسود.

دخل أحد الممرّضين الغرفة، وقال مخاطبًا زينو:

- «فَلاشي! عليك أن تقود شاحنة محمَّلة بالأغطية إلى القيادة

العسكريّة فورًا».

ثمّ توجّه بالحديث إلى الرّجل الأسود:

- «اُعذُرْنِي، يا سيّدي. ولكنّ القيادة العسكريّة تطلبُ منّا إرسال كلّ الأغطية الّتي في حوزتنا».

- «أيَعْني هذا أنّ عدد الجرحى كبير؟»، سأله ماكس أومبيلينت. «في أيّ إقليم تدور الاشتباكات؟».

- «لا عِلْمَ لي بشيء، يا سيّدي»، قال الممرّض. «لقد طلبوا منّا أن نمدّهم بكلّ الأغطية المتوفّرة فورًا، ومن المؤكّد أنّها ستُخصّص للجرحى. تعال يا زينو».

بقي ماكس أومبيلينت وحيدا ومعه تذكرتا السّفر وصورة «ماما أفريكا» والصّحيفة الّتي كُتِبَ عليها: «القتلة الآخرون في تروبيك».

خاف الرّجل الأسود، وكان خوفه رهيبًا مثل الّذي يشعر به كلّ القتلة بعد ارتكاب جريمتهم.

(26)

القتلة الآخرون

لا يعلم زينو شيئًا سوى أنّ الجيش قدْ طلب من مصحّة تروبيك مدَّهم بكلّ الأغطية المتوفّرة لديهم.

- لقدْ وصلتنا تعليمات بنقل كلّ الأغطية على وجه السّرعة، وفي ظرف ساعة على أقصى تقدير، إلى القيادة العسكريّة.

حمَّل الفَلاشي رفقة خادميْن من مصحّة تروبيك الأغطية الّتي تفوح منها رائحة النَّفتالين، في سيّارة الإسعاف. فتذكّر الحرب في روسيا.

-«من سيحمي ابن الربّ إن لمْ نحمِه نحن النّصارى؟»، قال زينو الّذي يُفكّر في ابن الربّ كما لو أنّه شقيقه الأكبر.

إنّه يُفكّر في الكنيسة النّصرانيّة كما يُفكّر في مُلْكٍ دُنْيويٍّ يعود إلى العائلة، وقدْ دافع عن النّصارى ضدّ الوثنيّين وضدّ السّوفياتيّين. إنّ أغطية المشفى الّتي ينقلها، الآن، من المغازة إلى سيّارة الإسعاف تُذكّره بالحرب. لقدْ سبق له أنْ حمل عشرات الجنود الجرحى في الجبهة، ومات بعضهم بين ذراعيه. فأحيانًا، كانت تمرّ أسابيع دون أن يسقط جريح واحد، ثُمَّ يسقط، فجأة، مائة أو مائتان أو ثلاثمائة جريح في الوقت نفسه، في غياب الأسرّة والأغطية.

- «لا بُدّ أنّ الأمر مماثل الآن»، قال الفَلاشي في نفسه. «هناك العديد من الجرحى الّذين سقطوا في الوقت نفسه كما هو الحال في الجبهة، فالتجأ الجيش إلى استعارة أغطية من المستشفيات المدنيّة».

توقّفت سيّارة الإسعاف أمام مركز القيادة العسكريّة، حيث يقف رقيب وجنديّان يتبادلان أطراف الحديث مع الحرّاس بلا مبالاة، وقد وضع كلٌّ منهما يديه في جيوبه.

- «أفرغوا الحمولة بسرعة»، صاح الرّقيب.

دخل زينو مُحَمَّلًا بحزمة من الأغطية إلى قاعة الاحتفالات في مركز القيادة العسكريّة، وهو يتوقّع أنْ يجد مئات الجنود المُصابين، لكنّ قاعة الاحتفالات كانت خالية من الجرحى. أجال الفَلاشي نظره وأرهف السّمع، فلمْ يسمع نبرة أنين واحدة، ولم يجدْ شيئًا ممّا توقّعه، لا جنود جرحى بعصابات في الرّأس ولا أيادٍ مزَّقتها شظايا القنابل ولا سيقان بترتها الانفجارات، كما حدث في روسيا سابقًا، لكنّه أبصر الجنديّيْن والرّقيب فحسب في قاعة القيادة العسكريّة. وهُمْ ليسوا ممرّضين لأنّهم لا يضعون شارات الصليب الأحمر، بلْ ينتمي ثلاثتهم إلى فريق الإرسال اللّاسلكي، ويحمل كلّ منهم خطًّا ذهبيًّا مُطرَّزًا على الكُمّ.

- «أين الجرحى؟»، سأل زينو، وهو يُلقي بالأغطية على الأرضيّة الخشبيّة اللّامعة. «أَلَمْ يصل الجرحى بعد؟».

- «عن أيّ جرحى تتحدّث؟»، سأله أحد الجنود.

- الجرحى الّذين جلبنا الأغطية من أجلهم. متى يَصِلُون؟

انفجر الجنديّان والرّقيب ضاحكين.

- «ليست الأغطية من أجل الجرحى، يا صديقي»، أجاب الرّقيب. «هل أنتَ سائق تابع للمصحّة؟».

- «إنّني سائق سيّارة الإسعاف التّابعة للمصحّة»، قال الفَلاشي. «لماذا طَلَبْتُمْ جلب الأغطية على وجه السّرعة، إذَا لمْ يكنْ هناك جرحى؟».

- «سنستعمل الأغطية كعازل للصّوت في القاعة، يا صديقي. ويجب أنْ نحوّل القاعة إلى أستوديو معزول عن الأصوات في الخارج في ظرف ساعة على أقصى تقدير»، أوضح الرّقيب.

عمل الجميع بسرعة، فقدْ تلقّى الجنود أوامر محدّدة، وهُمْ يعرفون ما عليهم فعله بالتّحديد، فثبّتوا الغطاء على المسمارَيْن المغروزَيْن في الحائط بضربتيْ مطرقة، وقدْ كانوا في حاجة إلى خمسة أغطية، الواحد فوق الآخر لتغليف حائط بأكمله، من الأرضيّة إلى السّقف. ثمّ غلّفوا الطّاولة المصنوعة من خشب السّرو والموجودة في آخر القاعة بأغطية صفراء داكنة. ووضعوا عليها ثلاثة مكبّرات صوت وُصِلَتْ بالكهرباء، كما رصّفوا ثلاثة كَراسٍ خلفها، غُلّفَ كلّ منها بغطاء من المسند إلى المقعد، فيما وضعوا كرسيًّا آخر أمامها، وبالقرب منها مصدح تمَّ تثبيته على ساق من المعدن المطليّ بالكروم. ثمّ ثبّتوا شاشة سينما في آخر القاعة، وقاموا بشدّها فوق الأغطية. وفي مكان ما في الخلف، انهمك جنود آخرون في تثبيت جهاز عرض.

- «هكذا هو الجيش الحديث»، قال الرّقيب وهو ينظر في ساعته. «عندما نُنهي الخدمة العسكريّة، سيكون بإمكاننا الذّهاب إلى هوليود. نحن أبطال! فقدْ شيَّدنا أستوديو في ظرف ساعة واحدة».

بعد مرور نصف ساعة انتهى كلّ شيء، فانسحب الرّقيب والجنديّان إلى غرفة صغيرة خفيَّة إلى جانب القاعة الكبرى للقيادة، رفقة زينو. أشعل الجنود سجائر وجلسوا على الكراسي، كما لو كانوا في شرفة مسرح. إنّهم يُهْيمنون على القاعة بأكملها، وانتصب تحت أقدامهم مصدح بساق معدنيّة مطليّة بالكروم كذلك الّذي وُضع إلى جانب الطاولة. جلس الفَلاشي بالقرب من الجنود، وهو لا يعرف ما الّذي يجري، لكنّه لم يسألهم عن شيء، لأنّه يعرف منذ الفترة الّتي قضّاها في روسيا أنّه لا يجوز طرح أسئلة على العسكريّين.

- «عندما نتعامل مع العسكريّين علينا أن لا نطرح عليهم أيّة أسئلة»، قال السّائق في نفسه. «فالعسكريّ على ثقة بأنّ كلّ ما يقوم به هو سرّ من أسرار الدّولة».

- «هُنا ستكون لنا جرعتنا الكافية من الأسرار أيضا»، قال الرّقيب.

سحب الرّقيب نفسًا من سيجارته بلذّة، وعقد ساقيْه، ثمّ نظر في القاعة مثل متفرّج من شرفة مسرح.

- «أيّ أسرار؟»، سأل زينو.

- «قَدِم من أوروبا ثلاثة قضاة»، شرح الرّقيب. «وستكون أوّل

من يتعرّف عليهم لأنّك ساعدتنا على عزل الصّوت في القاعة. إنّهم قادمون من أوروبا من أجل محاكمة قتلة تروبيك. وسنرى العقيد جوليهارت شخصيًّا. فهو زعيم قتلة تروبيك».

- «إنّها ليست محاكمة، بلْ مجردّ تحقيق»، قال الجنديّ الأوّل.

- «اخرسْ»، قال الرّقيب.

ثمّ فرك يديْه وحدّق بإمعان في القاعة. دخل ثلاثة رجال بلباس مدنيّ أنيق من الباب الرّئيسيّ المخفيّ وراء الأغطية، وتقدّموا على الأرضيّة المغطّاة ببساط أصفر داكن، ثمّ جلسوا على الكراسي الّتي وُضعت قرب الطّاولة، أمام المصادح الثّلاثة، تحت أنظار الرّقيب والجنديّيْن وزينو الّذين كانوا يرون كلّ ما يجري في القاعة دون أن يراهم أحد. فرك أحد الجنود باطن يده منتشيًا، في انتظار العرض الّذي سيبدأ.

- «إنّ هؤلاء الحمقى الثّلاثة هُمْ أعضاء أهمّ لجنة تحقيق عسكريّة»، قال الرّقيب ملتفتًا إلى الفَلاشي. «لن تُشاهِدَ أو تسمع أشياء مثيرة كتلك الّتي ستسمعها الآن. إنّها أشياء سريّة جدًّا، بل سريّة للغاية، ولك الحقّ في معرفتها لأنّك كنتَ خدومًا. يتوجّب علينا مساعدة الجيش دائمًا».

نهض زينو وأراد المغادرة، لكنّ الرّقيب أجبره على الجلوس مجدّدًا. فقد تلقّى جنود قسم الإرسال والرّقيب أوامر بالبقاء حذو القاعة المعزولة الصّوت للقيام بالإصلاحات اللّازمة إذا اقتضى الأمر، لكنّهم تخفّوا بطريقة تُتيح لهم سماع ما سيجري في القاعة ورؤيته.

- «لا أُريد سماع أيّ سرٍّ. لا أريد أنْ أتعرّض إلى المخاطر»، قال الفلاشي.

- «غبيّ!»، قال الرّقيب. «عن أيّ مخاطر تتحدّث؟ ستسمع أشياء مثيرة شئت أم أبيت، لأنّ أوان المغادرة قدْ فات الآن. فلنْ تتمكّن من الخروج إلّا بالمرور عبر القاعة، وقدْ أُغلقت الأبواب. لهذا، فأنت مجبر على البقاء. وكلّ ما في وسْعك فعله، هو أن تسدّ أذنيْك».

- «لا أريد معرفة أسرار»، قال زينو. «فقد حفظتُ عن أبي أنّ الإنسان يُعرّض حياته إلى الخطر كلّما اكتشف سرّا، ووحده السّعيد هو من يجهل الأسرار».

- «كان عليك أن تقول ذلك منذ البداية»، قال الرّقيب. «نحن نُريد سماع هذه الأسرار، أمّا بالنّسبة إليك، فقدْ فات الأوان ولا يمكنك الخروج».

جلس الفَلاشي بين الجنديّيْن حزينًا.

- «إنّه خطئي»، قال زينو في نفسه. «كان عليّ أن أُفرغ حمولة الأغطية وأمضي، لكن عندما رجاني الجنود أن أساعدهم، لمْ أستطع الرّفض، وتصرّفتُ أنا أيضًا مثل جنديّ، لأنّني أملك قلبًا في منتهى الرقّة. ولهذا السّبب أنا مضطرّ إلى رؤية أشياء سريّة وسماعها».

كانت الطّاولة المستطيلة مخفيّة تحت غطاء من مصحّة تروبيك، وجلس إليها الرّجال الثّلاثة الّذين علا الشّيب أصداغهم، وهم

يرتدون لباسًا مدنيًّا في غاية الأناقة.

- «إنّهم أُناس يتأنّقون يوميًّا»، قال الفَلاشي في نفسه. «فكلّ أيّام الأسبوع هي أيّام عطل بالنّسبة إليهم، وهُمْ يُغيّرون القمصان والأطقم يوميًّا، وليس فقط يوم الأحد كما يفعل الآخرون».

ظهر العقيد جوليهارت أمام الطّاولة المستطيلة، وجلس على الكرسيّ أمام الرّجال الثّلاثة الأنيقين، ثمّ سحب المصدح ذا السّاق المطليّة بالكروم. فعرفه زينو على الفور، لأنّه وقف قريبًا منه في حفلة عيد الميلاد، ورأى صور زوجته وبناته. كان على العقيد أنْ يُسافر إلى أوروبا في اليوم الموالي لحفلة عيد الميلاد، لكنّه بقي في تروبيك بسبب أحداث إيسيبوليا.

- «آل جوليهارت هي أقدم عائلات العسكريّين في البلاد»، قال الجنديّ الثّاني. «فلأجداده تماثيل مزروعة في جميع السّاحات، لكنّنا سنرى، الآن، حقيقة هذا الوغد. وسيُسجّل كلّ شيء على شريط، لِيُذاعَ في ما بعد».

- «لماذا تنعت العقيد جوليهارت بالوغد؟»، سأل الفَلاشي.

- «إنّ كلّ قاتل هو وغد»، ردَّ الجنديّ. «ألا تقرأ الصّحف، يا صديقي؟ إنّ العقيد جوليهارت هو قائد قتلة تروبيك، إنّه قاتل إيسيبوليا».

- «هذا غير صحيح»، قال زينو. «قتلة إيسيبوليا هُمْ آكلو لحوم البشر الّذين اغتالوا المبشّرين. فقدْ كنتُ أعرف لوقا وماتيي

ومارك وبيانكا لأنّهم كانوا أصدقائي، وهُمْ قدّيسون».

- «اتركنا وشأننا»، قال الرّقيب. «إنّ الأمر لا يتعلّق بالمبشّرين الّذين قتلهم آكلو لحوم البشر. فنحن متّفقون على هذا الأمر. ولكنّ العقيد جوليهارت قتل...».

في المصدح الّذي وُضع تحت أقدام الجنود، سُمع صوت واضح يقول:

- «أيّها العقيد جوليهارت، نحن هنا لأخذ شهادتك حول بعض الأحداث الّتي شاركتَ فيها شخصيًّا أو تسبّبت فيها».

كان الرّجل الجالس في الوسط هو الّذي يتكلّم. ولشدّة صفاء صوته، سمع زينو أنفاسه أيضًا، كأنّه يتكلّم في أذنه.

- «هكذا يتمّ عزل الصّوت!»، قال الرّقيب بكبرياء. «على هوليود أن توظّفنا حتمًا».

- «أيّ أحداث؟»، سأل العقيد.

كان يقف أمام الرّجال الثّلاثة بكلّ كبرياء، فشعر زينو أيضًا بالفخر لأنّه يعشق النّاس المعتزّين بأنفسهم.

- «سنقرأ عليك التّقرير الّذي توصّل إليه هذا التّحقيق»، قال أحد القضاة:

- «في يومي 21 و 22 من كانون الأوّل قُتل أربعة مبشّرين، وهُمْ ماتيي ولوقا ومارك وبيانكا على أيدي السّود. وقد وصل هؤلاء المبشّرون إلى هذه القبيلة الّتي كانوا يُريدون تنصيرها، قبل أسبوعيْن. وفي رأي اللّجنة القضائيّة، كان يجب عدم

السّماح لهؤلاء الشبّان الأربعة بالإقامة بين سكّان القرية، لأنّهم فتية وتنقصهم التّجربة».

- «كان الإنجيليّون يملكون الإيمان»، قال جوليهارت بصوت جهوريّ جميل ومنغّم. ثمّ أضاف:

- «إنّ أفضل الأشخاص في الجيش كما في الدّين، هُم الّذين يملكون الإيمان، وكان المبشّرون مُؤمنين».

فقال القاضي الجالس في الوسط بصوت هادئ وبارد:

- «اللّجنة القضائيّة لا تُشارِكُكَ الرّأي، أيّها العقيد. فعلى كلّ مبشّر أن يخضع لتحضير جدّيٍ، وهؤلاء الشبّان الأربعة كانوا يفتقرون إلى ذلك. وعليْه فإنّ المذنبين الأصليّين الأوائل، هم أولئك الّذين سمحوا لهؤلاء المغامرين الشبّان بالذّهاب إلى تروبيك».

- «لقد وظّفت صحافة عيد الميلاد هذه الأحداث الدّراميّة، وسوَّقت لها بطريقة مؤسفة»، أردف المحقّق. «ولكن ذنب الحكومة أكبر من ذنب الصّحافة، فلِكَيْ تُبيّن للرّأي العامّ أنّ سود تروبيك لمْ ينضجوا بعدُ ليحصلوا على استقلالهم، ولكيْ يُبرّروا الاحتفاظ بوضعهم كمُستعمرين، ارتكبتْ الحكومة خطأ التّسرّع في تضخيم حادثة إيسيبوليا. وقدْ فعلت كلّ ما في وِسعها لتكوين ملفٍّ إجراميّ لسود تروبيك، يُؤكّد أنّهم آكلو لحوم البشر وقتلة وخارجون على القانون، كما نَقلَتْ مئات السّينمائيّين والمُصوّرين والمُراسلين ومُديري المحطّات التّلفزيّة إلى تروبيك. وكان الهدف من كلّ ما قامت به الحكومة، هو

الإبقاء على المستعمرات، وهو ما أدّى إلى اندلاع الأحداث الدراميّة اللّاحقة. فلمْ يعثُر المراسلون على أيّ أثر للمبشّرين، ولمْ يتمكّنوا من تصوير أو بثّ أيّ من الأشياء الّتي لها علاقة بهذه المأساة، فلمْ تُسجّلْ عدسات الكاميرا وعيون كلّ المُراسلين سوى العمل الوحيد الّذي كان يحصل لحظة وصولهم إلى تروبيك: انتقام الجيش. ثمّ عاد المراسلون من تروبيك مُحمّلين بكيلومترات من الأفلام، تُصوّر الجيش وهو بصدد ملاحقة السّود، كما لوْ كانوا حيوانات بريّة».

- «أنا أعترض»، قال العقيد. «لمْ يطارد الجيش في تروبيك السكّان مثلما تُطَارَدُ الحيوانات البريّة».

- «أيّها العقيد جوليهارت، نحن هُنا لأنّ الوضع في غاية الخطورة. فأعداؤنا يتّهموننا بارتكاب جريمة إبادة جماعيّة، فيما يلومنا أصدقاؤنا على عملنا المشؤوم، رغم أنّهم لمْ يتّهمونا. كما تعرّض مواطنونا إلى السبّ كلّما سافروا إلى الخارج. وتأسّفت الأمّهات اللّواتي يُؤدّي أبناؤهنّ خدمتهم العسكريّة في تروبيك، لأنّ فلذات أكبادهنّ تحوّلوا إلى قتلة. وبعد أن كُنّا طيلة عصور أبطال العدالة والإنسانويّة والثّقافة، أصبحنا متّهمين بالإبادة الجماعيّة وبتقتيل شعوب مسالمة وبارتكاب جرائم أخرى فظيعة. وقدْ دعَّمت هذه التّهمَ الموجّهةَ ضدّنا صورٌ وأفلامٌ وأشرطةٌ وثائقيّة. لذلك أتينا إلى هنا لتسجيل شهادتك، ونحن نطلب منك أن تقول الحقيقة، ويتوجّب عليك في المقابل أن تُوضّح الأمور. سنعرض شريطيْن وثائقيّيْن يتّهماننا بالوحشيّة

والقسوة، وسنُسجّل شهادتك بموضوعيّة، ثمّ سنُقرّر لاحقًا ما إذا كانت الدّولة ستحمل على عاتقها مسؤوليّة الأعمال الّتي أُوكلتْ إليك. وفي حال تخلّت عنك الدّولة وعن مَنْظُورِيكَ، فسنُحمّلُك المسؤوليّة شخصيًّا».

انطفأ الضّوء، وتكلّم أحد الرّجال.

- «لقد تماديتَ في دعوة السّينمائيّين وأصحاب التّلفزيون والمصوّرين خلال غاراتكم الجويّة بالطّائرات والمروحيّات فوق الإقليم الّذي يسكنه آكلو لحوم البشر. فهل هذا صحيح، أيّها العقيد؟».

- «إنّها أوامر الحكومة».

ثمّ عُرِضَ شريط مُصوّر من على متن مروحيّة لبلاد آكلي لحوم البشر على الشّاشة المثبّتة في آخر القاعة.

- «إنّها إيسيبوليا»، قال زينو مُحدِّقًا في الشّاشة. «على اليمين هناك الطّريق الّتي تُؤدّي إلى بيت الإنجيليّين. يا لَلإنجيليّين من مساكين!».

- «ما الّذي حدث؟»، سأل أحد المحقّقين، فيما كانتْ تَظْهَرُ على الشّاشة الأرض المُقفرة حيث يعيش آكلو لحوم البشر.

- «إنّه عمل رجال الشّرطة»، قال العقيد جوليهارت. «وأنا أتذكّر ذلك جيّدًا، فقدْ تلقّيْتُ أمرًا بإيقاف مرتكبي المجزرة الّتي راح ضحيّتها الإنجيليّون. وقد أحرق آكلو لحوم البشر القرية فور ارتكابهم الجريمة، واختفوا في المناطق الخالية المجاورة

لهم، ولذلك، حدّدتُ مواقعهم من على متن المروحيّة، ولم أُطلقْ عليهم النّار أبدا. كما أنّ الجنود الّذين كانوا تحت إمرتي ليسوا قتلة، فقد قرّرنا أن نقبض عليهم أحياء. لكنّ ذلك كان صعبًا جدًّا، لأنّ المتوحّشين يهربون حين يلمحون الطّائرات، ويختبئون. فخلال العمليّة الأولى، كان علينا أنْ نحلّق فوق الإقليم لتحديد مواقع آكلي لحوم البشر، ومن ثمَّ نقبض عليهم. لكنّهم اختفوا وقت هبوط الطّائرة».

بينما كان العقيد جوليهارت يتكلّم، كانت تظهر على الشّاشة صور السّود العراة تمامًا، وهُمْ هاربون فزعين من وجود الطّائرات والمروحيّات. فحدّق زينو في الشّاشة مليًّا، وحاول التعرّف عليهم، ثمّ أحكم قبضة يديه وقال:

- «كزوب!».

فمِنْ بين فريق السّود الهاربين، تعرّف الفَلاشي إلى كسو-غوا-كزوب وناكوسانسوا.

- «لمْ يفقدَا سرواليْهما القصيريْن»، قال زينو. «إنّهما صديقيَّ...».

- «اصمتْ»، قال الرّقيب.

فرح السّائق لرؤية الصبيّيْن الأسوديْن اللّذيْن كانا ينامان في آخر الشّاحنة، لأنّه تأكّد من أنّ السيّد أومبيلينت لمْ يكذب، وأنّ الصبيّيْن الأسوديْن لمْ يغرقَا مع الحقائب. فقدْ قال ماكس: «لقد تركتُهُمَا مع والدتيْهما». والآن، ها إنّ كزوب وناكوسانسوا يهربان خوفًا من الطّائرات. بعد ذلك بلحظات، خالج زينو إحساس بأنّه تعرّف إلى

العجوز آكاباتبغالو الّذي اقتلع أسنان المراهقين. لمْ يكنْ باستطاعته التعرّف على أصدقائه بدقّة، لأنّ الشّريط صُوِّر من مسافة مرتفعة جدًّا، كما أنّ السّود يظهرون على الشّاشة، ويختفون بسرعة. فلو يُعَادُ المقطع عديد المرّات، فسيستطيع إبداء رأيه بيقين. ولكنّه واثق تقريبًا منْ أنّه تعرّف على كزوب وناكوسانسوا، لأنّهما الوحيدان اللّذان كانا يرتديان سراويل قصيرة من بين آكلي لحوم البشر.

- «إنّ جميع السّود عراة تقريبًا كما ترون»، قال العقيد. «فهُمْ يعيشون كالحيوانات هائمين في الأدغال، ولا يملكون شيئًا، ويختبئون في شقوق الأرض والمغارات والكهوف حال ظهورنا».

- «لماذا لمْ تُجرّبْ تمشيط المكان مُستعينًا بالقوّات الّتي تحت إمرتك؟»، سأل أحد القضاة.

- «لو فعلنا ذلك لكانت الخسائر البشريّة والماديّة جسيمة»، أجاب جوليهارت. «ولاستمرّت العمليّة وقتًا طويلًا، بينما أمرتُ بإلقاء القبض على المجرمين على وجه السّرعة. فالرّأي العامّ كان يُطالب بإلقاء القبض على القتلة ومُعاقبتهم، القتلة الّذين كانوا يختفون مثل فهود أو ضباع في الحفر والمغارات حتّى قبل أن تحطّ المروحيّة. فلم نكنْ نعثر لهم على أثر».

ما يزال الجميع يُشاهد السّود على الشّاشة، وهُمْ يظهرون لبضع ثوان ثمّ يختفون. لكأنّهم يتبخّرون.

- لوْ كنتُ أركبُ حصانًا لَهاجمتهم، ولو كنتُ أقود المروحيّة لَهاجمتهم وحاولتُ الهبوط بجانبهم.

- «اسمع الآن التّعليق المُصاحب للشّريط الّذي عُرض في كافّة القاعات»، قال أحد القضاة الثّلاثة. «ولْتنْتبهْ جيّدًا».

سكت العقيد. فظهر مجموعة من السّود عُراة تمامًا، وهُمْ يركضون فوق هضبة مُقفرة. ثمّ ظهر أحد السّود وهو يعرج. من المؤكّد أنّ شوكةً أو حجرا صغيرا مُسنّنًا قد جرحه، فشرع يعرج أكثر فأكثر، وتخلّف عن مجموعة رفاقه الّذين تركوه واختفوْا حين بدأت مروحيّة لجوليهارت، تحوم حول الجريح مثل صقر، ثمّ أخذتْ تهبط شيئا فشيئًا لتحُطَّ على جسد الأسْوَدِ الجريح فجأة، وتسْحَقه كما لوْ كان حشرة.

كان المعلِّق على الشّريط يقول:

- «إنّ هذا الأسود المسكين الّذي قد لا يكون له علاقة بمقتل الإنجيليّين، يُحاولُ الفرار، إنّه جريح، وقدْ عجز رفاقه عن إنقاذه، فتركوه. لكنّ المروحيّة واصلت التّحويم فوقه مثل طائر كاسر، فتعاظم قلق الأسْود الجريح والوحيد. وبعدَ لحظاتٍ من ذلك، سحقته الطّائرة كالبعوضة بأنْ حطّتْ فوقه».

- «لقدْ كان حادثًا»، قال جوليهارت. «حادث ندمتُ عليه».

واصل العقيد حديثه بصوت متقطّع:

- «بموجب القانون العسكريّ، كان يحقّ لي مهاجمته بحصان أو دبّابة أو مروحيّة. لقد مات بسبب عطب تقنيٍّ، لأنّني وددتُ القبض عليه حيًّا. لكنّ الطّائرة تعطّلت لحظةَ نزولها، فقتلته. لقد كان فعلًا مجرّد حادث لا غير».

- «السّود المساكين!»، قال أحد المحقّقين.

ثمّ سأل جوليهارت:

- «غيّرتَ خطّتكَ بعد هذه التّجربة. أليس كذلك؟».

- «لقد حاولتُ فعلًا انتهاج خطّة أخرى لتفادي تكرار الحادث الّذي شاهدتموه»، أجاب العقيد. «فقرّرنا التّحليق بمروحيّاتنا على ارتفاع منخفض والإمساك بالسود بالحبال، لأنّ الأسر بواسطة الحبال بدا لي أكثر إنسانيّة».

- «نحن لا نُهنّئك على ذلك، أيّها العقيد»، قال أحد القضاة.

هؤلاء القضاة الثّلاثة ليسوا متأنّقين فحسب، بل إنّ أصواتهم أيضًا كانت أنيقة. على الشّاشة شُوهد السّود مجدّدًا، وهُمْ يركضون ويختبئون، فيما تحوم مروحيّة مثل طائر كاسر وتنزل على السّود. وحين أصبحت قريبة جدًّا من الأرض، ألقى أحد الجنود بالحبل، فسقط الأسود على الأرض، وأُسر مثل حصان بريّ أو ثور هائج في سهول أمريكا الجنوبيّة. ثمّ شُوهِدَ تخبّط الجسد الأسْوَد الّذي حاول يائسًا التخلّص من الحبل. فهبطت المروحيّة إلى ارتفاع بمستوى الإنسان، فوقف الأسْوَدُ مُحاولًا الفرار، وتخلّص من الحبل المُلتفّ حول صدره، ثمّ هرب. فرمى الجنديّ بالحبل مُجدّدًا، لكنّ الأنشوطة ضغطت هذه المرّة المتحرّكة على رقبة الأسود، فأخذ يتخبّط وارتفعت المروحيّة فجأة، فيما تدلّى تحتها جسد الأسود المربوط من عنقه. لقد كان جثّة هامدة في حين ارتفعت المروحيّة أكثر فأكثر حاملة جسد الأسود المتأرجح تحتها.

-«هذا الرّجل الّذي قد يكون بريئًا، مات مشنوقًا على مروحيّتك»، قال أحد القضاة. «إنّ الشّريط الوثائقيّ حقيقيّ، وصُوّر من على متن مروحيّة كانت تُحلّق بالقرب من مكان الحادثة. وقد عُرض هذا المشهد في كافّة قاعات العالم. فأجبْ، أيّها العقيد: هل أنت فخور بعملك؟».

- «إنّه حادث»، ردَّ جوليهارت.

- «دائمًا التّعليل نفسه!»، قال أحد القضاة. «حوادث.. حوادث! فلْتَبحثْ عن تعلَّة أكثر معقوليّة. لأنّ هذا العمل هو عمل فظيع. إنّه عمل شنيع، يجعل المشاهد ينسى ألف عام من ثقافتنا وحضارتنا».

- «أكرّر الإجابة بأنّها مجرّد حوادث»، قال العقيد. «وإضافة إلى ذلك، فأنا أعلم أنّ العمليّات العسكريّة لا تُصوّر، غير أنّ الأمر هنا متعلّق بحادث. أعيدوا المقطع مرّة أخرى، وستلاحظون أنّ أكمة كانت تُوجد أمام المروحيّة، وهو الأمر الّذي أجبر الطيّار على الارتفاع فجأة».

- «لقد مات الأسْوَدُ مشنوقًا على مروحيّتك في الواقع»، قال أحد القضاة. «على مروحيّة العقيد جوليهارت المزدانة بألوان علمنا الوطنيّ، تنقضُّ على النّاس وتحملهم بين مخالبها كالطّير الكاسر. انظروا!».

أُشعلت الأضواء في القاعة، فمسح الفَلاشي عينيه. لقد بكى بسبب موت الأسود، وقال، فجأة، وقد نسي المكان الّذي هو فيه:

- «أنا أعرف الرّجل الّذي مات شنقًا، اسمه...».

- «اصمتْ»، أمر الرّقيب.

قال الرّجل الجالس في الوسط بنبرة جادَّة:

- «إنّ المقطع الّذي عُرض على الشّاشة للتوِّ، أجّج عاطفةً قويّةً في العالم بأسره، أيّها العقيد، عاطفةً كانت أكبر في بلادنا منها في الخارج. لدينا مئات المشاهد مثل هذه نتفرّج عليها الآن، ولمْ يعدْ أحدٌ يهتمّ بموت الإنجيليّين اليوم. فعندما نقول: «شهداء تروبيك»، أصبح العالم يُفكّر في السّود الّذين قتلهم الجيش. إنّ شهداء تروبيك هُم السّود المشنوقون على المروحيّات، والمدهوسون تحتها، والمُطاردون بالطّائرات مثل النّمور. وقد أصبح العسكريّون الّذين يقتلون كما كنتَ تُشاهدهم في هذه الأشرطة الوثائقيّة، قتلة تروبيك».

- «احذروا!»، صاح الرّقيب. «إنّني أسمع صوت خطوات».

أُخفيَ المصدح المفروش تحت أقدام الجنود، وسُحب الغطاء الّذي كان بمثابة ستار. لمْ يعدْ يُرى أيّ شيء في القاعة، كما لم نعدْ نستطيع سماع أيّ صوت. فرمى الرّقيب بلعبة الورق على الطّاولة فيما دخل ضابط إلى الخلوة.

- «من الرّابح؟»، سأل. «واصلوا اللّعب، سينتهي التّحقيق بعد بضع دقائق، ففكّوا حينها الأجهزة وقوموا بطيّ الأغطية».

وقف الجنود والفَلاشي في وضع استعداد، بينما خرج الضّابط.

فمسك الرّقيب بزينو من ذراعه، وقال له:

- «لو بُحتَ بسرٍّ من الأسرار الّتي سمعتَها للتوِّ، ستفقد حياتك. فستحكم عليك المحكمة العسكريّة بالإعدام في ظرف ساعتيْن، ثمّ سيُطلق عليك الرصاص خلال الدقائق العشر الّتي تلي النّطق بالحكم. إنّ كلّ ما سمعتَه الآن سرّي، فلا تنبسْ بكلمة، واعتبرْ أنّك لمْ تسمعْ ولم تر أيّ شيء».

- «أنا لمْ أسمعْ، ولمْ أرَ شيئًا»، قال الفَلاشي، وقد شرع في طيّ أغطية المصحّة.

- عُدّها جيّدًا، حتّى لا تتّهم المصحّة الجيش بالسّرقة غدًا، فالجيش لا يسرق الأغطية. إنّه يقترف الجرائم كما كنتَ تُشاهد، لكنّه لا يسرق الأغطية.

- «أنا أعرف اسم الرجل الأسود الّذي شُنِق على المروحيّة»، قال زينو. «إنّه يُدعى أوموتيا. وقد تحدثّتُ إليه».

فكّ الجنود الخيوط الكهربائيّة والمصادح وأجهزة العرض غير مُكترثين بما قاله السّائق.

- «هل أخذت كلّ الأغطية؟»، سأله الرّقيب. «سنساعدك على شحنها في سيّارة الإسعاف. ما رأيك في الجلسة؟ كان عرضًا احتفاليًّا. أليس كذلك؟ إنّ الأبطال على الشّاشة، والقاتل بشحمه ولحمه في القاعة وعلى الشّاشة أيضًا! إنّه عرض سينمائيّ!».

(27)
الجُذام

في الثّالث من كانون الثّاني، قبل يوم واحد من الرّحيل، وبعد جلسة الاستماع الّتي حضرها رغمًا عنه، كان الفَلاشي حزينًا ولمْ يعدْ يقرأ الصّحف. في المقابل كان الرّجل الأسْود مسرورا رغم عدم قدرته على ترك السَّرير، لأنّه سيُسافر غدًا على متن باخرة الأوروبوليس.

- «هل ستكون قادرا على قتل رجل بيديك، يا زينو؟».

- «لا تُحدّثني أبدًا عن الموتى، يا سيّدي»، أجاب السّائق.

كان يُفكّر في المبشّرين وفي السّود المشنوقين على المروحيّات أو المدهوسين تحتها كالذّباب، كما تذكّر المليون فَلاشي الّذين ماتوا في روسيا من أجل المسيح.

دخل الممرّض الغرفة وهو مُحتقن الوجه.

- «إنّ الأمر خطير هذه المرَّة»، قال الممرّض. «خُذْ سيّارة الإسعاف يا زينو، واذهبْ بسرعة إلى القيادة العسكريّة».

- «هل يريدون الأغطية مجدّدًا؟»، سأل الفَلاشي.

صار يأنف من الأغطية والسّينما والقيادة العسكريّة.

- «مُرَّ على المطبخ لِتتسلّم لُمجتك. ثمّ ستستقلّ سيّارة الإسعاف رفقة فريق التّطهير. وستبقى في القيادة العسكريّة طيلة اليوم.

فهيّا أسرعْ».

- «ماذا سنعقّم؟»، سأل السّائق.

- «لقد أُصيب مرافقو جوليهارت بالجذام»، أجاب الممرّض. «كما أنّ خادمَيْ العقيد الأسودَيْن قد أصيبَا بعدوى المرض هُما أيضًا. إنّ العقيد يعيش مع ثلاثة مجذومين، ويقدّم له الطّعامَ مجذومون، وهُم أنفسهم من يهيّئون له سريره وينظّفون ثيابه فيما لا يعلم جوليهارت شيئًا عن ذلك. إنّه لأمرٌ فظيع».

- «هل أُصيب العقيد بالجذام؟».

- «لا أحد يعرف»، قال الممرّض. «إنّه معافى إلى حدّ هذه اللّحظة. وعلى الأقلّ فهو غير مصاب بالجذام نفسه الّذي أُصيب به مرافقوه. ولكنّنا لن نناقش هذا الأمر. لقد وُضع العقيد في الحجر الصحي، وسنحوّل القيادة العسكريّة إلى مستشفى خاصّ بعلاج الجذام. يجب تعقيم كلّ شيء، كلّ شيء».

خرج زينو وقاد سيّارة الإسعاف المحمّلة بالمعدّات.

- «إنّها معدّات شبيهة بتلك الّتي نستعملها لسلفتة الكُروم»، خمَّن السّائق. «معدّات كتلك الّتي نستعملها في مكافحة الفطريّات واليرقات في الأشجار المثمرة. فمتى تفشّى هذا الوباء في القيادة العسكريّة؟».

لم يجد الممرّضُ العسكريّ الّذي يقف إلى جانبه الوقت لإجابته.

دخلت سيّارة الإسعاف إلى حديقة المبنى الواسعة. فيلا القيادة تتميّز بسلّم فخم من المرمر الأبيض وجدران بيضاء. وأمام الفيلا

البيضاء، تُوجد بحيرات ومسابح، لون مائها أزرق لازوردي يُشبه قطعًا من السّماء. كما يُحيط بالفيلا البيضاء سياجان مزدوجان من الأسلاك الشّائكة، تفصل بينهما مساحة شاسعة عرضها متران تقريبًا. لقد وُضعت الأسلاك الشّائكة خلال اللّيل، ويُلاحظ على الأرض المقلوبة حديثا الآثار الّتي خلّفها أولئك الّذين نصبوا الأعمدة في تربتها. كان يُوجد أربعة حرّاس مسلّحين ببنادق ذات حربات، فيما عُزل العقيد صحبة مساعده والطبّاخ والمنظّفة البيضاء.

- «ليلة أمس، لاحظ العقيد وجود بقعة غريبة على بشرة أحد السّود»، قال الممرّض العسكريّ. «فاستُدعي الأطبّاء العسكريّون وفحصوا المريض الأسود. كان ذلك جذاما. و قد أُصيبَ به أيضًا الخادمان الأسودان الآخران.

لفّ فيلا العقيد جوليهارت سكون، كما لو كانت خالية ومهجورة. أفرغ الفَلاشي والممرّضون العسكريّون حمولة السيّارة من المُعدّات وصفائح التّعقيم وبراميل معدنيّة.

- «ستبدأ بتعقيم الممرّات»، قال رئيس الممرّضين.

وناول زينو مجرفة مثقوبة شبيهة بقمع المرشّ، ثمّ أضاف:

- «سترشّ طبقة رقيقة من المسحوق المطهِّر على الحصى ورمل الممرّات، وتحرص على أن تكون طبقة سميكة مثل صقيع أبيض في نهاية الخريف».

ملأ الممرّض المجرفة بالمسحوق الأبيض ونثره على الممرّ، فبدا مثل سكر رطب. ثمّ ناول الفَلاشي المجرفة المثقوبة. الجذام يختبئ في

كلّ مكان. إنّه مرض ماكر. فقدْ يكون مختبئا في الرّمل أو بين حصى الممرّات، وقد يحمله البعض في نعال أحذيتهم، كما يُمكن للعصافير أن تحمل الجذام، شأنها شأن الكلاب والقطط، وتنقله إلى حيث لا ندري.

دخلت شاحنتان إلى الحديقة فورًا، شاحنتان كبيرتان نزل منهما شابّان وتفرّقا في المكان، ثمّ شرعا في ترويع العصافير ذات الرّيش الملوّن ومطاردتها، ومن ثمَّ محاصرتها في ركن من الحديقة.

- «إنّهما عاملان في حديقة الحيوانات»، شرح العسكريّ. «وقدْ جاءا للبحث عن الطّواويس وعصافير الحديقة الأخرى ليضعوها تحت المراقبة».

- «حتّى العصافير يمكن أن تُصاب بالجذام؟»، سأل زينو وهو يُحدّق في الأجنحة الملوّنة.

- «يُمكن للطّيور أن تكون عاملًا من عوامل انتشار هذا الوباء»، أجاب الرّجل الّذي يضع شارة الصّليب الأحمر. «ففي اللّحظة الّتي وُجد في هذا المكان ثلاثة مجذومين، أصبح كلّ شيء موضعَ شكّ، لأنّ الجذام يُوجد في الرّمل والأشجار والعصافير والرّخام».

نظر الفَلاشي إلى الممرّات الّتي نُثر عليها المسحوق المعقّم. ومن خلفه بدا الرّمل والحصى كأنّهما مُغلّفان بطبقة خفيفة من الجليد، يلمع بياضها تحت أشعة الشّمس. هذا المسحوق الأبيض المعقّم عديم الرّائحة، فقدْ كان يضوع من الحديقة عطر النّباتات والأزهار المدوِّخ. واصل زينو تغطية الممرّات بالمسحوق الأبيض، فيما يرشّ

فريق الممرّضين الجدران والأبواب والسّياج والأسلاك الشّائكة الّتي تُحيط بمبنى القيادة العسكريّة، ويُحيطون مقابض الأبواب بضمّادات الشّاش. فأصبح كلّ مقبض شبيهًا بإصبع أو بيد مجروحة ومضمّدة.

- «يقوم الجيش بعمل جدّي»، قال الممرّض. «فنحن نختلف عن المدنيّين».

بدأ عطر الزّهور والنّباتات في الحديقة يختلط برائحة الموادّ المطهّرة القويّة. كان للحديقة بأكملها نفس الرّائحة الّتي تضوع من غرفة ماكس أومبيلينت عندما أُجريت له العمليّة الجراحيّة، ووحده المسحوق الأبيض الّذي يرشّه زينو على الممرّات كان عديم الرّائحة.

- «لا يمكننا الاقتراب من أيّ زنجيٍّ أو زنجيّة دون أن نتعرّض إلى خطر الإصابة بعدوى الجذام». قال الممرّض. «فهذا الوباء يسري في عروق السّود، ورغم أنّ خدم العقيد كانوا مجبرين على الاستحمام يوميًّا إلّا أنّنا اكتشفنا، مع ذلك، أنّهم أُصيبوا ثلاثتهم بالجذام. ولعلّ العدوى قد تسرّبت أيْضًا إلى العقيد المسكين. إنّ الجذام ماكر، فهو يبقى مختبئًا. إنّه خفيٌّ، وعندما يظهر يكون الأوان قد فات. فيا للعقيد من مسكين!».

ظهر جوليهارت على الدّرج المرمريّ أمام الفيلا، وكان يبدو أكثر شبابًا من بعيد، وهو يرتدي سترة وبنطالًا أبيَضيْن، ويدخّن سيجارة. بدا عصبيًّا حين أخذ ينظر إلى صفَّيْ الأسلاك الشّائكة الّتي تُطوّق المبنى، فكأنّ المشهد لم يعجبه.

أشعل العقيد سيجارة ثانية. إنه رياضي ووسيم. وكان الممرضون ينظرون إليه في شفقة.

- «إنّ الجذام لفظيع»، قال الممرّض. «في الماضي، عندما يُصاب شخص بهذا الوباء، كانت عائلته تحمله في موكب فخم إلى الكنيسة. فيتلو الكاهن قدّاس الموتى على المريض، ثمّ يربط جلجلًا في رقبته، ويُرسل المجذوم كيْ يموت وحيدًا. أمّا الوضع فقد اختلف الآن، لكنّه ليس أفضل من العيش مُحاطًا بأسلاك من الحديد مثل العقيد وموظّفي المبنى».

- «خاصّة وأنّ زوجته وبنتيْه يصلن اليوم»، قال ممرّض آخر. «لقد قدمتْ عائلة العقيد دون سابق إعلام، والنّساء الثّلاث موجودات في المطار الآن. إنّهن قادمات من أوروبا ليفاجئنه، لكنّهنّ سيجدنه محبوسًا هنا مثل مجذوم».

- «إنها الحياة يا صديقي»، قال الممرّض. «أردْنَ أن يُفاجئنه بقدومهنّ، لأنّ العقيد الّذي كان عليه أن يسافر إلى أوروبا بمناسبة عيد الميلاد لمْ يستطعْ أن يحصل على إجازته بسبب حادثة اغتيال المبشّرين، فبقي هنا لإلقاء القبض على القتلة. وها هي زوجته الآن، هي الّتي تأتي لزيارته، ولكنّه لن يستطيع البقاء إلى جوارها. وستُقيم في نزل أفريكا بالاست حيثُ تمّ حجز ثلاث غرف لها ولابنتيْها فيما سينام العقيد هنا بمفرده مثل مجذوم. فهذه هي الحياة يا صديقي».

- «ليس له الحقّ حتّى في تقبيل زوجته»، قال أحد الجنود.

شعر الممرّضون بالشّفقة على العقيد.

- «يُطارد النّحس العقيد في هذه اللّحظة. إنّها السّلسلة السّوداء. فكأنّ الإنجيليّين لمْ يكونوا في حاجة إلى أن يلتهمهم آكلو لحوم

البشر إلّا ليلة ذهابه لقضاء العطلة، كما أنّه لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا هذا لاحقًا. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الخدم السّود الّذين أُصيبوا بعدوى الجُذام مساء أمس، في الوقت الّذي كانت زوجة العقيد وبناتها في الطّائرة، قادماتٍ إلى تروبيك لزيارته!».

لكنّ الفَلاشي يعلم بأنّ العقيد يُعاني من مشاكل أخرى.

فظلّ ينثر المسحوق الأبيض في ممرّات الحديقة، وفي كافّة أنحاء الفيلا، وقدْ تعفّرتْ وجنتاه باللّون الأبيض، فغدا كمهرّج.

ثمّ استدار ليُبصر سيّارة تدخل حديقة المبنى، وقد ثُبّت عليها شعار المحافظ، فيما يجلس داخلها ثلاث نساء يرتدين قبّعات بحواف عريضة، مزركشة بالزّهور. كنّ ينظرن إلى الأسلاك الشّائكة الّتي تُحيط بالقصر الأبيض، وفي الجهة المقابلة، يقف العقيد على المدارج الرخاميّة.

نزلت النّسوة الثّلاث من السيّارة بعد أن فتح السّائق الباب لهنّ.

كانت اثنتان منهنّ صبيّتيْن مراهقتيْن. اقتربت زوجة العقيد من السّياج ووضعت يدها المقفَّزة على الأسلاك الشّائكة، فيما يقف العقيد على بعد مترين منها، ويضع يده على الطّرف الثّاني من السّياج. وظلّا يتبادلان النّظرات، وهُما بعيدان مسافة متريْن وصفّيْن من الأسلاك الشّائكة.

- «إنّه لمن الوحشيّة أنْ نتركهما منفصليْن هكذا»، قال أحد الممرّضين.

فشعر الجنود بالشّفقة، وتوقّفوا جميعهم عن العمل، ليتأمّلوا المشهد.

- «العقيد ليس مصابًا بالجذام»، قال زينو. «وحدهم السّود مصابون به. فلماذا يُعزل وكأنّه مجذوم طالما هو سليم من المرض؟».

- «لا أحد يعلم ما إذا كان العقيد مُصابًا بالجذام أم لا»، قال الممرّض. «فالأطبّاء أنفسهم يجهلون هذا الأمر، لأنّ الجذام مرض شيطانيّ تُصاب به عندما تعتقد بأنّك بمنأى عنه، والعكس صحيح أيضًا».

أُجبر العقيد وزوجته على الحديث بصوت عالٍ، بينما يُصغي زينو والممرّضون إلى حوارهما.

- «أنا سعيد برؤيتكنّ»، قال العقيد. «في البداية، غضبتُ لأنّكنّ لمْ تُعلِمْنَنِي بقدومكنّ، ثمّ حدث هذا الأمر. وعلى كلّ حال، كنتنّ ستَجِدْنَنِي في الحجر الصّحيّ، فلمْ أكتشفْ أمر الجذام إلّا مساء أمس، حين كنتُنّ في طريقكنّ إلى تروبيك».

كانت بنتا العقيد تلوذان بالصّمت. حدّقتْ مارتا صاحبة السّتّة عشر عامًا وماريا البالغة أربعة عشر عامًا، في الممرّات الّتي رشّها الفَلاشي بالمسحوق الأبيض، فيما أمسكت إحداهما بيد الأخرى.

- «أنا أشعر بالذّنب»، قال العقيد. «أعرف أنّه لا ذنب لي، لكنّ ضميري يؤنّبني. إنّها مشيئة القدر. ومع ذلك، فمِنْ حُسْنِ حظّي أنّني اكتشفت الجذام البارحة في صفوف السّود، وهذا ما جعلني أبقى بعيدًا عنكنّ، فأنتنّ في أمان الآن».

- «أبي»، قالت الصّغرى. «كنّا نُريد أنْ نُهديك أزهارًا، فالأزهار المداريّة في غاية الجمال، لكنّنا اعتقدنا أنّ هذا لن يكون لائقًا».

- «تُحمل الأزهار دائما إلى المرضى في الحجر الصحّي أو في المستشفيات»، قال العقيد. «كان ذلك سيُسعدني».

- «اعتقدنا أنّه سيكون من غير اللّائق أن نزورك ونحن نحمل الأزهار».

احمرَّت وجنتَا مارتا وماريا من التأثّر، وحدَّقتا في الأرض. أمّا السيّدة جوليهارت فقد كانت عيناها مبلّلتيْن بالدّموع.

- «لقد انتقلنا إلى منزل آخر، وأصبحنا نُقيمُ في أحد الأقاليم»، قالت الزّوجة. «أنا وابنتاك نقطن في قرية صغيرة الآن، وقدْ كلّفتُ وكالة بتأجير شقّتنا في العاصمة».

انفجرت ماريا باكية. إنّها البنت الصّغرى، وهي الّتي رغبت في حمل الأزهار إلى العقيد، لأنّها تُكِنُّ حبًّا شديدًا لوالدها.

- «لا تَبْكِي، يا عزيزتي ماريا»، قال العقيد. «إنّ هذا الحجر الصحيّ مزعج، ولكنّه لن يدوم. فأن يكون أحد ما في الحجر الصحي بسبب الجذام، فهذا لا يعني أنّه مُصاب به».

- «لكنّ ماريا لا تبكي من أجل هذا السّبب»، قالت زوجة العقيد.

عضّت ماجدالينا على شفتيها، وكانت نظراتها حادّة، فبدتْ في هذه اللّحظة كعجوز ساخطة، رغم أنّها تبلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة.

- «ما الّذي حدث لكِ، يا عزيزتي ماجدالينا؟»، سألها العقيد.

تخيّل العقيد المصائب الّتي يُمكن أن تُلحق الأذى بالعائلة والآلام الشّديدة والموت والمرض، لكنّ الأمر لم يكنْ يتعلّق بهذا كلّه. فهُنّ على قيد الحياة وفي صحّة جيّدة. نظر بحنان إلى ماجدالينا وماريا ومارتا اللّواتي يُحبهنّ جميعهنّ أكثر من أيّ شيء آخر في العالم، بل أكثر من حياته.

- «أرغب في ضمّكُنَّ إلى صدري بشدّة»، قال العقيد. «ولكنّ هؤلاء الحيوانات، هؤلاء السّود لم يجدوا غير هذا اليوم ليُصابوا بالجذام. لكأنّهم تعمّدوا ذلك حتّى لا أتمكّن من احتضانكنّ بين ذراعيَّ».

- «لقد انقطعت البنتان عن الذّهاب إلى المدرسة»، قالت الزّوجة بنبرة تزداد جفاء. «لمْ يعدْ بإمكاننا الذّهاب إلى أيّ مكان آخر».

- «لمْ أفهمْ قصدك»، قال العقيد. «لِمَ انقطعت البنتان عن الدّراسة؟».

- أنتَ تَعرفُ السّبب أكثر منَّا.

- «تكلّمي بوضوح، يا ماجدالينا»، توسّل العقيد. «لقد عشنا طويلًا في انسجام تامّ. وهذه المرّة الأولى الّتي لا أفهم فيها ما تقولين، لا أفهم شيئًا على الإطلاق».

كانت ماجدالينا تبكي، ثمّ قالت:

- «لقد سافرنا بأسماء مستعارة، وما كنَّا لِنقدر على ركوب الطّائرة لو نطقتْ المُضيّفة بِاسْمِ جوليهارت».

- «لمْ أفهمْ شيئًا»، قال العقيد.
- «لقد أخبرتكَ بأنّنا نسكن في الرّيف»، قالت الزّوجة. «أخبرتك بأنّ بنتيْنا غادرتا المدرسة في الرّيف أيضًا، حيث اضطررنا إلى الاختباء. فقد كان من المستحيل بالنّسبة إلينا الخروج لشراء الخبز والحليب أو للقيام بجولة، لأنّنا نُقذف بالشّتائم حين نخرج».
- لأيّ سبب؟
- «يا عزيزي»، قالت ماجدالينا. «أنت تعرف جيّدًا أنّ كلّ الصّحف والمجلّات ومحطّات الرّاديو والتّلفاز لا تتحدّث إلّا عن هذا ولا شيء غيره، ليلَ نهار. لمْ نعدْ قادرين على التحمّل لكثرة ما تكرّر الموضوع ذاته».
- «ما الأمر، يا ماجدالينا؟»، سأل العقيد. «ألا تشرحين لي».
- «إنّها عملياتك العسكريّة في تروبيك»، أجابت الزّوجة.

كانت عيناها شديدتَيْ الاتّساع وهي تبكي. عندما يبكي الإنسان ويترك عينيْه مفتوحتيْن، فهذا يعني أنّه وصل إلى ذروة الألم. وها هي السّيّدة جوليهارت تبكي وهي تنظر بعينيها المبلّلتيْن إلى الجدران البيضاء والسلّم المرمريّ، وتحدّق في الحديقة والسّياج وأجمات الزّهور. ثمّ نظرت إلى الفَلاشي وهو بصدد رشّ الممرّات بمادّة مطهّرة.

- «لنتجاوز الأمر»، قالت السّيّدة ماغدالينا. «اعذرني لأنّني أخبرتك بكلّ هذا الآن. إنّ كلّ شيء على ما يُرام. فلا أحد يراك هنا. وستكون سعادتنا عظيمة لوْ كنّا مكانك، مُنعزلين

عن العالم بصفّيْن من الأسلاك الشّائكة، لوْ كنّا في الحجر الصّحيِّ بسبب الجذام».

رفعت ماريا وجهها، وهي تبكي وتحدّق في أبيها.

- «أُريد أن أسألك، يا أبي».

- «سَليني ما شئتِ، يا صغيرتي العزيزة. أنت تعلمين أنّك بهجة حياتي».

- «أبي، قلْ لي إنّ هذا غير صحيح».

- «وما هو الأمر الّذي ليس صحيحًا، يا عزيزتي؟».

- «أُريدُ أنْ أَعرفَ ما إذا كان الّذي يُعرض في السّينما صحيحًا، يا أبي»، قالت ماريا. «أُريدُ أنْ أسمع منك أنّ هذا غير صحيح، وسنُصدّق ما ستقوله لنا. لن نُصدّق غيرك، يا أبي العزيز. أُقسمُ لك بأنّنا لن نُصدّقَ إلّا ما ستقوله لنا».

- «ماذا عُرض في السّينما، يا ابنتي؟»، سأل العقيد.

- «عُرِضَ شريط يُصوّرك وأنت تقتل السّود»، أجابت ماريا.

تذكّر جوليهارت الشّريط الّذي عُرِض أمامه بحضور لجنة التّحقيق، وخَلُصَتْ اللّجنة إلى أنّ ما حصل كان مجرّد حادث. فمن خلال الشّريط بدا جليّا أنّه مجرّد حادث.

- «آه لو تَعرفُ، يا أبي!»، قالت مارتا. «كتبت الصّحف أنّك أنتَ من أعطى الأوامر إلى الجنود بالقتل، وأنّك أفسدت الجنود وأجبرتهم على ارتكاب الجريمة، وأنّك تُبيد الشّعوب المُسالمة في أوطانها. إنّهم يتحدّثون عن المجازر، وعن السّود المشنوقين

في المروحيّات، والمدهوسين مثل ذباب تحتها، فأصبح اسمُ جوليهارت مُرادفًا للرّعب وللمذبحة، اسم جوليهارت الّذي نحمله، يا أبي. نحن نحمل اسم جوليهارت!».

ضمّت البنتان زوجة أبيهما وأمسكْنَهَا من خصرها.

- «أنا مرتاح الضّمير»، قال العقيد.

كان واثقًا من نفسه، وكان صوتُه صارمًا وحاسمًا.

- «يعني أنّ كلّ ذلك كان صحيحًا، يا أبي؟ هذا صحيح؟ أنت لا تنكر ذلك؟».

- «إنّ ضميري مرتاح»، كرّر جوليهارت.

وصلت سيّارة جيب إلى حديقة الفيلا، وعلى متنها النّقيب بورمان مصحوبًا بحارسيْن، يضع كلّ منهما قبّعة معدنيّة ويرتدي ثيابًا ريفيّة. ثمّ توقّفوا في الممرّ المرشوش بالمسحوق الأبيض اللّامع مثل الثّلج.

- «لقد حُجزت لكنّ غرفٌ في أفريكا بالاست»، قال العقيد. «اصطحبي البنات، يا ماجدالينا، واذهبي إلى النّزل. خُذْنَ قسطًا من الرّاحة وانتظرنَ اتّصالي. ستكون الأمور على ما يرام».

- «هذا كلّ ما لديك كي تقوله لنا»، قالت السيّدة جوليهارت.

- «سنتحدّث لاحقًا. آمركنّ بالذّهاب إلى نزل أفريكا بالاست. فإذا كانت تُخامركنّ الشّكوك وانتابكنَّ الحزن، فتذكّرنَ جيّدًا أنّني نَصِيرُكُنَّ لأنّني أبٌ ورجل عسكريٌّ. سَتكُنّ في أمان. فهيّا اذهبنَ الآن».

أشاح العقيد بنظره عن ابنتيْه وزوجته، ثمّ نادى النّقيب بورمان وقال له كما لو كان في ساحة المعركة:

- «فَلْنَهْتَمّ الآن بالأمور الجدّية».

(28)

عادة حمل السّيف

أعلن النّقيب بورمان أنّ عمليّة الإنزال الكبيرة في إقليم آكلي لحوم البشر الّتي تهدف إلى محاصرة المتوحّشين، أصبحت جاهزة.

- «سنقبض عليهم جميعًا قبل أربع وعشرين ساعة». قال النّقيب. «سأكون في الميدان لقيادة العمليّات، كما أنّ الرّجال في حالة تأهّب والمُعدّات جاهزة. نحن على أتمّ الاستعداد، وقدْ جئت لأبلّغكم بأنّنا سنُقلع بعد ساعة».

- «لقد أُلغيتْ عمليّة القبض على آكلي لحوم البشر»، أمر العقيد جوليهارت. «يجب أن يعود الجنود إلى العاصمة حالًا ويسحبوا المعدّات الموجودة في الميدان».

- «لكنّنا لمْ نقبضْ بعدُ على قتلة المُبشّرين، سيّدي العقيد!»، قال بورمان. «لقدْ تلقيّنا الأمر بالقبض عليهم على وجه السّرعة».

- «لقد توقّفت العمليّات ضدّ السّود ابتداءً من هذه اللّحظة»، قال جوليهارت بلهجة آمرة.

فصَمَتَ الرّائد.

- «هلْ أنتَ غير موافق على هذا الأمر؟»، سأل العقيد ساخرًا.

- «أنا تحت أَمْرِكَ»، أجاب النّقيب. «لكنّني أعترف بأنّني لا أفهم

شيئًا ممّا يجري».

- «هذا ليس ضروريًّا. الجيش ليس مؤسّسة ديمقراطيّة، فهُناك قائد على رأسه وهو من يُصدر الأوامر، بمفرده. وهذا القائد هو أنا».

- «أَمْرُكَ، يا سيّدي العقيد»، قال بورمان.

لقد قدم العقيد إلى تروبيك منذ مدّة قصيرة، وكانت آماله منحصرة في القبض على آكلي لحوم البشر الّذين قتلوا المبشّرين، وها هي العمليّة قدْ أُلْغِيَتْ فجأة. لكنّ هذا الإجراء منافٍ للأوامر الّتي تلقّوها: فقدْ كلّف العقيد بالقبض على آكلي لحوم البشر.

- «أيّها النّقيب بورمان، سجّلْ أرجوك: تَصِلُ الباخرة أوروبوليس إلى الميناء هذه اللّيلة، وسينزل منها شخص في الخمسين من عمره تقريبًا، قصير القامة، يضع نظّارات بعدسات كبيرة، وطقمًا من القطن الرّمادي وقفّازات. ستتركونه ينزل، ثمّ تقبضون عليه. ستستعينون بكلّ قوّات شرطة الميناء في عمليّة الإيقاف. إنّ هذا الشّخص فطن للغاية، فسُدُّوا المنافذ والطّرق جميعها وإلّا سيُفلت منكم. يجب أن تمرّ عمليّة إيقافه في كنف السريّة التّامّة، وعندما تفرغون منها تعودون إلى هنا. أعتقد أنّ هذه العمليّة ستنتهي حواليْ السّاعة الثّانية أو الثّالثة صباحًا. سأنتظرك. وقبل طلوع الفجر، سنُلقي القبض على شخصيْن آخريْن، لكنّ هذيْن الشّخصيْن لا يُخشى من هروبهما. لذلك علينا القبض أوّلًا على الرّجل الّذي سيأتي عبر الباخرة، وهو يُدعى ستانيسلاس كريتزا. هذا كلّ شيء بالنّسبة إلى اليوم».

أراد النّقيب المغادرة، لكنّه لمْ يجدْ الشّجاعة لفعل ذلك.

- «هل سنترك إذن قتلة المبشّرين ينعمون بالحريّة؟»، سأل بورمان. «هل سنُوقِفُ كلّ العمليّات ضدّهم؟».

- «إنّ ستانيسلاس كريتزا هو قاتل المُبشّرين، وسنقبض عليه اللّيلة. سأمدّك بأسماء شركائه في الجريمة عندما تقبض عليه. إنّه قائد المجرمين في تروبيك».

- «آكلو لحوم البشر هُمْ من قتلوا المبشّرين»، قال النّقيب. «إنّ هذه المعلومة رسميّة».

- لمْ يكنْ آكلو لحوم البشر سوى قتلة مأجورين، أمّا القاتل الحقيقيّ فهو ستانيسلاس كريتزا، الرّجل الّذي ستقبض عليه. لقد واصلتُ العمليّة ضدّ آكلي لحوم البشر لأسمحَ للقاتل الحقيقيّ بالمجيء دون أن يخشى شيئا. فلوْ أوقفتُ كلّ العمليّات ضدّ المتوحّشين لَمَا وَضَعَ قدمه في تروبيك مرّة أخرى، لأنّه كان سيعرف ما ينتظره حينها. أنا محبوس هنا، وهذا يُشعرني بالأسف. فقد كنتُ سأُسَرُّ حين أقبض عليه بنفسي، لأنّني أنتظره منذ عشرة أيّام.

- «ألَمْ يُقتل المبشّرون على أيدي آكلي لحوم البشر؟»، سأل بورمان. «ألَمْ تكن جريمة طقوسيّة؟».

- «إنّ كريتزا هو قاتل الإنجيليّين»، أجاب جوليهارت. «لقد قتلهم ليُصوّرنا، نحن العسكريّين، أثناء قيامنا بواجبنا».

تنهّد جوليهارت.

- هل ذهبتَ إلى السّينما، أيّها النّقيب بورمان؟ هل شاهدتَ الشّريط؟ ما رأيك؟

- إن سمحتَ لي، يا سيّدي العقيد، لمْ يبدُ لي جميلًا، غير جميل بالمرَّة. فقد شعرتُ بالخزي وأنا أشاهده.

- «يُمكن لعدسة كاميرا أن تهزم جيشا بأكمله»، قال جوليهارت. «إنّها خطّة العدوّ، وهي حصان طروادة جديد. لا يجب على جيش أنْ يُصوَّرَ وهو يقوم بعمليّات عسكريّة كما لا يجب أنْ تُصوَّرَ أغلب الأعمال الّتي يمتهنها الإنسان في أفلامٍ، لأنّها ستغدو حينها مقيتة ومشؤومة. فلو قمنا بتصوير النّاس أثناء أدائهم لأعمالهم، ثمّ نُطلع النّساء على هذه الشّرائط لَمَا استطعنَ مشاركة أزواجهنَّ نفس السّرير، لَخَافَ الأطفال من آبائهم ولَمَا استطاعوا تحمُّل مداعباتهم. هلّ أنّبك ضميرك عندما شاهدت الشّريط؟».

- «لمْ أشعرْ بالفخر وأنا أشاهده»، أجاب النّقيب بورمان.

- «لو أنّ القادة الكبار والأبطال الّذين تنتصب تماثيلهم في السّاحات العامّة، كانوا قد صُوّرُوا مثلَنا، لَمَا كانت هناك تماثيل ولا قادة ولا كتب تاريخ. لا يجب تصوير كتيبة الفرسان أثناء قيامها بالهجوم. لو فعلنا ذلك لَمَا تحدثّنا اليوم عن نابوليون ولا عن القيصر ولا عن الإسكندر الأكبر. فلْتَنْسَ الموضوع إذن، فلا يجب أن تشعر بالذّنب تجاهه».

أخرجَ العقيد صورة من محفظته، وقال مخاطبًا بورمان:

- «هذا هو ستانيسلاس كريتزا. إنّه رجل ماكر جدًّا، ونتوقّع هذه اللّيلة أن ينزل من الباخرة ثلاثة أو أربعة أشخاص لَهُمْ نفس أوصافه. لذلك، فمن الأفضل أن تأخذ الصّورة معك كي تتأكّد من أنّك ستقبض على الشّخص المناسب. إنّه حذر جدًّا، وأريد أن أمدّك بصورته دون أن أعرّضك لعدوى الجُذام».

- «آه لا تبالغ»، قال النّقيب.

ومدّ يده ليلتقط الصّورة، لكنّ المسافة كانت كبيرة جدًّا.

- «إنّ الاحتياط ضروريّ دائمًا»، قال جوليهارت. «سأُناولكَ هذه الصّورة بعد تعقيمها».

نادى العقيد على فريق الممرّضين الّذين يعقّمون الجدران.

- «عقِّموا هذه الصّورة»، أمر جوليهارت.

ثمّ لفّها في ورقة وربطها بحصاة ورماها. سقطت الصّورة الّتي حملتها الرّيح، فداس عليها زينو.

وحين رفع قدمه عن المسحوق الأبيض، لمح وجه ستانيسلاس تحت نعل حذائه. اقترب الجنود يحملون مرشّاتهم، ورشّوا وجه كريتزا. فانحنى الفَلاشي والتقط الصّورة، ثمّ أعطاها إلى النّقيب.

- «إنّه وجه مألوف»، قال بورمان. «لمْ أتخيّلْ أبدًا أنّه قدْ يكون قاتل تروبيك. ومع ذلك، فإنّ له رأس مجرم فعلًا».

- «بإمكانك الانصراف»، أمر جوليهارت وهو يرمق النّقيب بنظرة ملؤها العتاب، لأنّه أفرط في الحديث أمام زينو.

- «كنتُ سأُقسم بأغلظ الأيمان بأنّ جريمة القتل ارتكبها آكلو

لحوم البشر. إنّها جريمة قتل لا يجرُؤُ على ارتكابها إلّا هُمْ».

- «إنّ السّود المتوحّشين كانوا مُجرّد مُنفّذين للجريمة. فهذا هو القاتل الحقيقيّ».

لقد استمع السّائق إلى كلام يفوق احتماله. فابتعد وهو يسيرُ على الممرّات البيضاء كأنّه رجل ثمِلٌ. ثمّ جلس على العشب، وقد تملّكه الدوار. فنهض وذهب للقاء رئيس الفريق.

- أُريدُ المغادرة. أشعر بأنّي لستُ على ما يرام.

- «اِبْقَ هنا»، قال الممرّض. «إنّه تأثير المُعقّم. إنّ الموادّ المُطهِّرة ضارّة، لكنّني أتساءل ما إذا كانت تؤذي الإنسان أيضا طالما أنّها تقضي على الجرثومة المسبّبة للجُذام. فالإنسان ليس أقوى من الجُذام ولا أكثر مكرًا منه. وهذه العقاقير المُطهِّرة الّتي أُثبِتَ عدم ضررها تُسبّب في الحقيقة غثيانًا وصُداعًا. فالإنسان لا يُمكن أن يكون أقوى من الجُذام».

- «اسمحْ لي بالمغادرة أرجوك»، توسّل الفَلاشي.

عندما أكّد العقيد بأنّ ستانيسلاس كريتزا قاتلٌ، لمْ يتساءلْ زينو لمرّة واحدة ما إذا كانت هذه التّهمة صحيحة أم باطلة، لأنّ مصدرها جوليهارت نفسه، أي السّلطة. في فَلاشيا كما في كلّ البلدان المحتلّة، تُعدّ السّلطة وسيلة قمع، ولحظة تدخُّلِها تعني اندلاع قُوى الشرّ والظّلم الّتي تسحق الإنسان حتمًا، سواءً كان بريئًا أو مذنبًا. لذلك حين تدخّلتْ قُوى الاضطهاد، أي السّلطة، لمْ يُفكّر السّائق إلّا في أمرٍ واحدٍ فقط: الإسراع في إنقاذ الرّجل المُهدّد، إنقاذ ستانيسلاس

كريتزا والمُحيطينَ به، أيْ إنقاذ نفسه وماكس أومبيلينت بمعنى آخر. إنّ السّلطة كالطّاعون والحريق والفيضان، لذلك يجب تحذير النّاس من تَدَخُّلِهَا كيْ يتمكّنوا من الفرار إلى أبعد مكان. وهذا هو واجب الفَلاشي: الإنسان والنّصراني.

- «لا أستطيع البقاء هُنا»، توسّل زينو. «يجب أن أذهب».

ثمّ قال في نفسه:

- «تصلُ الباخرة اللّيلة، فيما سأسافر رفقة ماكس إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة غدًا صباحًا. فإذا قُبِضَ على كريتزا، سيقع التّحقيق معي ومع السيّد أومبيلينت. نحن لسنَا مُذْنِبَيْن، لكن يجب أنْ تَتِمَّ مُساءلتنا، وسيُفوّت علينا التّحقيق موعد السّفر على متن الباخرة».

من جهة أخرى، كان الفَلاشي متأكّدًا من أنّ كريتزا ليس مذنبًا مثلما هو متأكّد من براءته. فالسّجون تغصّ بالأبرياء والمُتَّهَمين ظُلْمًا. لذلك، كان يرغب في تحذير ماكس وإنقاذ كريتزا. إنّه يُريد القيام بعمل صالح.

- «أُريد المغادرة»، قال زينو.

- «لن يُغادر أيٌّ كانَ هذا المكان قبل العاشرة مساءً»، قال الممرّض. «إنّ عملنا ينتهي على السّاعة السّابعة. ومن ثمَّ، سنأخذ حمّامًا مُطهّرًا في تمام السّابعة والنّصف. لا بُدّ من تطهير كلّ شيء، لأنّ هناك احتمالًا أنْ تنقُلَ العدوى إلى منْ هُمْ في الخارج».

لم يُسمحْ للفَلاشي بالذّهاب، وقدْ أصبح سجينًا الآن.

صاح الممّرض:

- «لا أحد يملك الحقّ في نقل عدوى الجُذام إلى الخارج! لا أحد!».

(29)
عودة ستانيسلاس كريتزا

في الثّالث من كانون الثّاني، بينما كان زينو في مبنى القيادة العسكريّة رفقة فريق التّطهير، ظهر كريتزا في مصحّة ترووبيك، مُرتديًا كعادته طقمًا رماديًّا وقفّازات قطنيّة، ويعتمرُ قبّعة من القشّ وينتعل حذاء من القنّب.

- «أنا ستانيسلاس كريتزا، أريد التحدّث إلى صديقي ماكس أومبيلينت».

دلّه الممرّض على غرفة الرّجل الأسْوَد.

- «هل سيُغادر ماكس أومبيلينت غدًا؟ متى ستُبْحِرُ الباخرة؟».

- «تصل الأوروبوليس اللّيلة»، قال الممرّض. «وسنُقِلُّ إليْهَا السيّد أومبيلينت على متن سيّارة الإسعاف، غدًا صباحًا، لأنّه ما يزال غير قادر على المشي. ستُبْحِرُ الباخرة أوّل الظّهيرة».

دخل ستانيسلاس الغرفة، وقد ارتسمتْ على شفتيْه ابتسامة عريضة. وبما أنّ ماكس كان نائمًا حينها، انشغل كريتزا بإحصاء التّغييرات الّتي طرأتْ على حياة الرّجل الأسْوَدِ. كانت صورة والدته، الأمّ أفريكا أومبيلينت على المنضدة. وتُوجَدُ إلى جانب الصّورة هديّة المبشّرين لزينو، وهو الصّليب الصّغير الّذي أهداه

الفَلاشي بدوره إلى ماكس. وبالقرب من الصّورة والصّليب كان هناك ظرفًا وكالة السّفر، كُتِبَ على أحدهما اسم زينو وعلى الآخر اسم ماكس أومبيلينت. إنّهما بطاقتا سفر إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة في الدّرجة الأولى على متن باخرة أوروبوليس.

- «كيف حالك؟»، سأل الأسْوَدُ وهو يفتح عينيْه، وقدْ بدا أكثر شبابًا وبهجةً بعد أنْ شُفِيَ من السّموم.

- «كان من المُفترض أنْ أصل اللّيلة على متن الأوروبوليس»، قال كريتزا. «لكنّني عَدَلْتُ عن الفكرة في اللّحظة الأخيرة، وركبت الطّائرة».

- «الأوروبوليس، إنّه اسم الباخرة الّتي سأُبْحِرُ على متنها».

- «من الواجب توخّي الحذر على إثر الأحداث الّتي شاركنَا فيها»، قال ستانيسلاس.

- «أُعْلِمُكَ بأنّني سأُسافرُ غدًا، ولا تقولُ شيئًا؟»، سأل الأسْوَدُ.

- «إنّك تتصرّف مثلي»، أجابه كريتزا. «هذا جيّدٌ جدًّا. أنت تقول إنّك ستُسافر، غدًا صباحًا، إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة على متن الأوروبوليس، بينما في الحقيقة ستسافر معي على متن الطّائرة اللّيلة، إلى وجهة أخرى».

- «سأُغادرُ غدًا إلى الولايات المتّحدة على متن الأوروبوليس»، قال ماكس.

- «هل تمزح؟».

- «أُقسم لك بأنّني مسافرٌ غدًا»، أجاب الرّجل الأسْودُ. «سأُسافر

رفقة زينو، لقدْ كاتبتُ والدتي واقتنيتُ التّذاكر. ها هي».

- «لا يُمكنكَ الرّحيل»، قال كريتزا.

- لماذا؟ ومنْ سيمنعني من الرّحيل؟

- «لن يمنعكَ أحدٌ من ذلك»، أجاب ستانيسلاس. «ولكنّك حين تنزل من الباخرة، سيقبضون عليك. أنتَ تعرف هذا الأمر».

- «لمْ أفعلْ شيئًا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، قال ماكس.

- «لكنّك فعلتَ شيئًا آخر هنا»، قال كريتزا. «تخيّلْ لو أنّ أحدَ آكلي لحوم البشر سلَّم نفسه إلى الجيش. تخيّلْ ماذا سيحدثُ لو يتكلّم؟ سيقول إنّك أنت من أَمَرَ بقتل المبشّرين، فتطلبُ السّلط الاستعماريّة تسليمكَ، وسيُسلّمُكَ الأمريكانُ بكلّ سرور. فهذا ما ينتظرونه».

لمْ يتخيّلْ ماكس أومبيلينت أبدًا أنّه يُمكن أنْ يُقبضَ عليه في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ثُمّ يُسلّم إلى السّلطات في تروبيك كيْ يُعدم.

- «لا تهُمّني المخاطر»، قال الرّجل الأسْوَد. «سأكون بين أهلي، ولنْ أطلُبَ أكثر من هذا».

- «لنْ تكون بين ذويك»، قال ستانيسلاس. «بلْ لن تَصِلَ إلى الولايات المُتّحدة أصلًا. سيتمُّ إيقافكَ وإرجاعك إلى هُنَا لِتَمُوتَ في تروبيك».

- «كنتُ أَظنُّ أنّك تعرضّتَ إلى مكروهٍ ما»، سأل ماكس. «لماذا

لمْ تَعُدْ؟».

- «بَلَغَنِي أنّك لمْ تستردَّ عافِيَتَكَ. لمْ يكنْ من الحكمة أنْ آتي، لكنّنا نمرُّ بوضعٍ صعبٍ. ولذلك، ها أنا أعودُ لاصطحابك معي. وسأُقِلُّكَ على متن سيّارة في هذه اللّيلة بالذّات. ومن ثمَّ، سنركبُ الطّائرة من المدينة المجاورة».

- إلى أين؟

- «إلى البلاد الوحيدة الّتي لنْ تخشى فيها منْ أنْ يُسلّمكَ أحدٌ أبدًا»، قال كريتزا. «وحدها موسكو لنْ تُسلِّمَكَ».

- «لا!». صاح ماكس أومبيلينت.

وغرق الأسود في نوبة نحيبٍ هستيريّةٍ، فناوله ستانيسلاس قنّينة الرّوم.

- «هذا ما سيجعلُكَ تَسْتَرِدُّ هدوءَكَ».

- «لمْ أتذوّقْ قطرة رومٍ واحدةٍ منذ دخولي إلى المصحّة».

لمعتْ عيناهُ، لكنّه أمسك بالقنّينة بيديْه العملاقتيْن، ثمّ حملها إلى فمه وكامل جسده يرتجف من فرط اللذّة.

- «إنّ موسكو في انتظاركَ»، قال كريتزا. «لقد نجحتْ مُهمّتُنَا بامتياز، وأصبح العالم كلّه لا يتحدّث إلّا عن المواطنين التّعساء الّذين أبادهم الأوروبيّون. الآن، يشعر كلُّ أوروبيٍّ بالذّنب، وقدْ لعبتَ دورًا هامًّا في هذا النّجاح. فعمّا قريبٍ، سنشرع في التّرحيل الفعليّ لسود تروبيك نحو الحداثة لأنّ الأعمال التّمهيديّة قد انتهتْ تقريبًا، وأوشك الأوروبيّون على الرّحيل».

- «سأُغادرُ إلى أمريكا»، قال ماكس فجأة.

- رغم وجود خطر القبض عليكَ وتسليمِكَ ليتمّ إعدامك في ترويبيك؟

أمسك الرّجل الأسْودُ رسالة والدته، وفضّ شمعها. لقد كان يرى اليد الّتي كتبتها وهو يتأمَّلُها، يدَ والدته المليئة بالخواتم والألماس. إنّها يدٌ صغيرة وناعمة، ممتلئة سوداء، يدٌ تداعبُ بحنانٍ.

- «إنّها رسالة من أمّي»، قال ماكس أومبيلينت. «إنّ أمّي تنتظِرُني».

- «أنتَ لستَ رجلًا أسودَ من قبيلة آكلي لحوم البشر يا ماكس»، قال ستانيسلاس كريتزا. «أنت أسودُ حداثيٌّ. فقدْ تعرّضتَ لعمليّة تشويهٍ فظيعة وتعرّضتَ للظّلم، تحمَّلتَ كلّ ما يمكن لرجل أنْ يتحمّله على سطح هذه الأرض. لذلك، لا يحقّ لكَ أنْ تكونَ أحمَقَ. لا أحد يُنْكِرُ أنّ الأمَّ شيءٌ مهمٌّ، ولكن تُوجد أشياءُ أُخرى، أشياءُ أكثر أهميّة من الأمّ أحيانًا».

- «لا»، قال الرّجل الأسْوَدُ. «أنتَ لا تُدركُ معنى ما تقوله يا كريتزا، فلا شيء أهمَّ ولا أفضلَ من الأمّ».

وقف ستانيسلاس، وقال:

- «في كلّ مخطّطاتي، قرأتُ دومًا حسابًا للعيوب الثّلاثة للمعدّات البشريّة، وهي الموتُ والمرضُ والغباءُ. وقدْ كنتُ أنتظرُ دائمًا أن ينبثقَ الغباءُ من أيِّ شخصٍ كان، لأنّه يسكن جميع النّاس. لذلك، أعتقد أنّه يجب إنقاذ النّاس بالقوّة. لكنّي لمْ أُقدّرْ غباءكَ

حقّ قدره يا ماكس، لأنّ على المرء أنْ يتحلّى بكميّة هائلة من الحماقة لِيَفْعَلَ ما تفعَلُهُ. فأنْ تُضحّي بكلّ شيء وتُلْقِي بنفسكَ في أحضان الشّرطة لأنّك تُحبّ أُمَّكَ، يجعلني أدركُ، الآن، لِمَ تشحذون التّاريخ. سأعود في الفجر لاصطحابك، فلْنَنْسَ إذن حديثنا هذا. وأنا واثق من أنّك ستأتي، فليْسَ باستطاعة أحد أنْ يكون غبيًّا إلى هذا الحدِّ».

- «لنْ أذهب»، ردَّ ماكس أومبيلينت.

- «سيكون أمامك الوقت الكافي من الآن إلى الرّابعة فجرًا، كي تُفكّر في الأمر. فاللّيل فطنٌ رُغْمَ سواده، سيجلب لك النّصيحة. والآن، نَمْ».

غادر ستانيسلاس كريتزا، ثمّ عرَّج على مكتب الاستقبال في المصحّة، وشكرهم بكلّ تهذيب على حسن المعاملة الّتي حظيَ بها صديقه الأسود ماكس أومبيلينت.

(30)

الهروب

وصل زينو إلى مصحّة تروبيك على السّاعة العاشرة والنّصف مساءً، فقدْ تعذَّر عليه المجيء في وقت مبكّر. لقدْ عقَّموه بأكمله، من رأسه إلى أخمص قدميْه، بما في ذلك شعره وحاجباه وأظفاره وحذاؤه وملابسه. كانت الحقائب جاهزة في غرفته من أجل الرّحيل. لكن فكرة واحدة ظلّت تشغل باله طيلة فترة الظّهيرة: «قاتل المبشّرين هو ستانيسلاس كريتزا». فالفَلاشي يُدركُ جيّدًا أنّ هذا الاتّهام باطل، لكنّه اتّهام خطير.

- «يجب أنْ أُخبِرَ السيّد أومبيلينت وكريتزا»، قال في نفسه. «علينا توخّي الحذر. صحيح أنّ الجيش أحمق، ولكن لا قدرة لنا على مقاومته».

تركَ السّائق الضّوء مشتعلًا في غرفته الصّغيرة في المصحّة، ونزل إلى غرفة ماكس أومبيلينت.

- «إنّ زيارة الرّجل الأسود ممنوعة هذا المساء»، قال الممرّض.
- «هل تعرَّض لنوبة؟»، سأله زينو.
- «إنّ الزّيارات ممنوعة، هذا كلّ ما أعرفه»، ردَّ الممرّض.
- «بإمكانك أن تُخبِرَني على الأقلّ ما إذا كان حيًّا أو ميتًا».

- «لا أعرف»، قال الممرّض.

رجع الفَلاشي إلى غرفته، وحاول عبثًا أن ينام.

في منتصف اللّيل، نهض الفَلاشي الّذي كان يرتدي منامته وينتعل خُفّيْه. فوضع معطفًا على كتفيْه، وخرج إلى الرّواق تاركًا باب غُرفته مفتوحًا على مصراعيْه، ثمّ نزل الدّرج وسار في الرّواق الّذي يُحاذي غرفة ماكس أومبيلينت، فوجد الممرّض المُناوب وهو واضعٌ رأسه على الطّاولة، يُغالب النّعاس. نزع زينو خفّيْه، واجتاز الخطوات العشرين الّتي تفصله عن غرفة الرّجل الأسْوَد، في بطء، ماسكًا خفيّه بين يديْه. ثمّ أدار مقبض الباب ودخل.

- «من المؤكّد أنّ السّاعة تُشير إلى الثّانية صباحًا»، خمّن الفَلاشي.

كانت النّوافذ مفتوحة، وقد ألقى القمر بأشعّته الذّهبيّة على جدران غرفة الرّجل الأسود.

- «يا لَلرَّائِحَةِ!»، قال زينو. لكنّ رائحة قويّة ولاذعة كانت تملأ الغرفة، إنّها رائحة الكحول.

اقترب الفَلاشي على أطراف أصابعه من سرير ماكس الّذي كان يئنّ ويتذمَّر وهو نائم.

- «ماكس»، قال زينو. «سيّدي أومبيلينت، استيقظْ يا سيّدي».

وضع الفَلاشي يده على كتف الرّجل الأسْوَد وهزّه برفق، فلمح في ضوء القمر فمه المفتوح وهو يئنّ، ويقول:

- «ناكوسانسوا...».

إنّها كلمة تعني «كُرْهٌ» و«حبٌّ» مُجتمعيْن في الآن نفسه. كان

ماكس أومبيلينت يرى كابوسًا، وخيطُ دمٍ يسيل من فمه على ذقنه، فيما تهمس شفتاه الملطّختان بالدّم: «ناكوسانسوا».

- «سيّدي أومبيلينت، أتوسَّل إليْكَ!»، قال زينو.

كان صدرُ ماكس وهو عارٍ في ضوء القمر، يُشبه فقمة عظيمة.

- «لقد ثَمِلَ مُجدَّدًا»، قال الفَلاشي في نفسه. «لقد تناول الرّوم وشعر بتوعّك، لهذا منعوني من رؤيته».

- «ما الّذي يحدُثُ؟»، سأل الرّجل الأسْوَدُ.

فتح ماكس عينيْه، ولمح الفزع على وجه السّائق.

- «ما الخطب؟»، سأل الرّجل الأسْوَدُ مُجدّدًا.

- «حدث أمرٌ جللٌ، يا سيّدي»، أجاب الفَلاشي.

أغمض ماكس عينيْه وقدْ غلبه النّوم.

- «لا تنمْ، يا سيّدي»، قال زينو. «أتوسَّلُ إليْكَ لا تَعُدْ إلى النّوم، فقدْ حدث أمرٌ خطير. إنّ العقيد جوليهارت أعطى الأمر إلى النّقيب بورمان بالقبض على ستانيسلاس كريتزا، وهو يقول إنّ السيّد كريتزا قد قتل المبشّرين. لقدْ سمعتُه بأُذُني».

فتح الرّجل الأسود عينيْه وتشنَّجتْ عضلات جسده الضّخم، فيما انقبض فكّاهُ. ثمّ رفع يده ومسح خطَّ الدّم واللّعاب السّائل من فمه.

- «هلْ أُشعلُ الضّوء، يا سيّدي؟»، سأل الفَلاشي.

- «أخفضْ صوتكَ»، أشار إليه ماكس وهو يضع إصبعًا على شفاهه، وبحث عن قميصه في العتمة. ثمّ فتح الخزانة، ورمى

ببنطالٍ وقميصٍ إلى زينو، ثمّ ارتدى ملابسه بسرعة. لمْ يفهم الفَلاشي ما يُرِيدُهُ ماكس منه، لكنّ هذا الأخير أشار إليه بأنْ لا يفتح فمه.

- «ارْتَدِ ملابسَكَ»، قال الرّجل الأسْوَدُ.

وأشار إلى البنطال والقميص والنّعال الّتي أخرجها للتوِّ من الخزانة.

- «إنّها واسعة جدًّا، يا سيّدي»، قال زينو. «سأذهبُ لارتداء ثيابي في غرفتي...».

- «أُصمُتْ!»، قال ماكس. «ارْتَدِ ثيابكَ».

تناول السّائق البنطالَ الّذي كان ضعفَ مقاسِه من يد الأسْوَدِ، ثمّ وضعه مع القميص على ذراعِهِ. اقترب ماكس من النّافذة وقبض على القضبان مُحاولًا أن يلْوِيهَا بلا جدوى، ثمّ ما لبث أنْ عادَ إلى وسط الغرفة.

قبضتْ يداه الشّبيهتان بيَدَيْ غوريلّا على قضيبيْن، وسُمِعَتْ ضجّة مخنوقة. ثمّ بدت القضبان ملويّة تحت ضوء القمر، وتدلّتْ من حافّة النّافذة مع الإسمنت الّذي كان يَشُدُّها، بينما واصل ماكس في توسيع المساحة الّتي تفصل بين القضيبيْن، وما لبث أن استدار نحو زينو، ووجهُه وجبينُه يتصبّبان عرقًا، ثمّ رفع إصبعه إلى شفتيْه البنفسجيّتيْن، وقال:

- «اتبعْنِي في صمت».

تسلّق النّافذة بخفّةِ قطٍّ، وقفز إلى الأسفل من غُرفته الّتي تقع

في الطّابق الأرضيّ، فلمْ يُحدثْ صوتًا عند سقوطه. وها هو الآن في حديقة المصحّة يُصفّر بصوتٍ خافتٍ على طريقة الثّعابين. وفي الجهة المقابلة، كان الفَلاشي يَقِفُ في إطار النّافذة ويُحدّق في الفراغ. أشار إليه الأسود بأنْ يُقلّده، ولكنّ زينو لا يملك الشّجاعة لفعل ذلك، فأغمض عينيْه وترك جسده ينزلق على طول الجدار الّذي لمْ يكُنْ عاليًا، إذْ لا يتعدّى ارتفاعه على الأرض متريْن تقريبًا. سقط السّائق بين ذراعيْ الأسْوَدِ الّذي أجبره على الانبطاح أرضًا. ثمّ رفع هذا الأخير رأسه وأنصت. فقدْ سَمِعَ صوتَ صفّارة في الميناء. إنّها الأوروبوليس على الأرجح قدْ وصلتْ إلى عاصمة ترويبك.

- «اتْبَعْنِي ببُطءٍ»، أمَرَ الرّجل الأسْوَدُ.

بدأ ماكس أومبيلينت في الزّحف كالثّعبان عبر الحديقة.

- «هلْ سنرحلُ، يا سيّدي؟».

- «نعم»، أجاب الرّجل الأسْوَدُ.

- «ألَنْ نعود إلى المصحّة أبدًا؟»، سأل الفَلاشي.

واصل ماكس الزّحف وهو يجرّ زينو خلفه، وكُلّما وقف هذا الأخير ألصقه الأسْوَدُ بالأرض بيده العريضة كالمجرفة.

- «ماذا عن حقائبنا، يا سيّدي؟».

- «لا»، قال الرّجل الأسْوَدُ.

عندما وصلَا إلى باب الحديقة، وضع ماكس يده على كتف الفَلاشي. فتوقّف هذا الأخير فيما أرهفَ الأسْوَدُ السّمعَ. إنّه السّكون التامّ! خرجا من الحديقة، فظهر الميناء على يمينهما، ولاح البحر

وباخرة بيضاء من بعيد، إنّها الأوروبوليس. لكنّ ماكس اتّجه نحو اليسار، في اتّجاه الغابة إلى طرف المدينة.

أمسك الرّجل الأسود زينو من كتف منامته. ومَضيَا معًا، مُنْتَصِبَيْ القامة هذه المرّة. ثمّ توقّفَا تحت شجرة. وأخذ ماكس يتنفّس بصعوبة، فهي المرّة الأُولى الّتي يقف فيها منذ إجرائه العمليّة الجراحيّة.

- أَلَنْ نعود إلى المصحّة أبدًا، يا سيّدي؟

- «كلَّا»، قال الرّجل الأسْوَدُ.

نظر في اتّجاه الدّغل، إلى داخل الأراضي، وابتسَم.

- «كلَّا»، قال ماكس.

- لماذا نهربُ، يا سيّدي؟ نحن لمْ نرتكبْ أيَّ جرمٍ.

تنفّس الرّجل الأسْوَدُ بصُعوبَةٍ، فبَدَا مثل آلة على وشك الانفجار.

ثمّ كرّر الفَلاشي سؤاله مرّة أخرى:

- «لماذا نهربُ، يا سيّد أومبيلينت؟ هل ارتكبتَ إثمًا؟ قلْ لي ماذا فعلتَ، فأنا صديقُكَ، حتّى لوِ ارتكبتَ إثمًا، سأظلّ صديقَكَ».

لمْ يُجِب الرّجل الأسْوَدُ.

- «لِمَ نهربُ؟ هل ارتكبتَ خطيئة يؤنّبكَ عليها ضميرُكَ؟».

أدار ماكس رأسه العظيم المُتصبّب عرقًا، وهمس في أُذُنِ زينو:

- «أجلْ لديّ خطايايَ، لكنّ خطايَا الرّجل الأسود بيضاءَ».

(31)
الرّجل المُفَتَّش عنه

اختفى ماكس أومبيلينت وزينو الفَلاشي من المصحَّة دون أنْ يترُكَا أثرًا، فتمَّ إبلاغ الشّرطة بذلك، وطُرِحَتْ جميع الفرضيّات.

لكنّهما ظهرَا مُجدّدًا في عاصمة ترويبيك، ونزلَا في أحد الفنادق بهويّات مزوّرة. اقْتَنَى ماكس قُمصانًا ومنامات حريريّة جديدةٍ. لقد استعاد أناقته من جديدٍ. وارتدى الفَلاشي أيضًا قمصانًا حريريَّة مثل الأسْوَدِ. كما توقّفت الصُّحف عن الكتابة عن الإنجيليّين وعن مجزرة السّود. وعاد كلّ شيء كما كان.

ظلّ ماكس وزينو في انتظار باخرة تُقِلّهُمْ إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. مازال الفَلاشي يجهلُ إلى اليوم كلّ شيء بخصوص مقتل المُبشّرين، فهو يعرف فقط أنّ ماكس مطلوب من الشّرطة لأسباب سياسيّة.

- «لستَ مُطالبًا بأنْ تشرحَ لي، يا سيّدي»، قال زينو. «لقدْ فهمتُ أنّك ضحيّة لأنّني صديقُكَ. عندما نصلُ إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ستُصبح الأمور على ما يرام. ستكون في منزلك بين ذَوِيكَ، وسيكون كلّ شيء من حسن إلى أحسن».

سيُسافر أومبيلينت والفَلاشي على متن يختٍ خاصٍّ. فهذا أكثر

سريّة. وهُما في انتظار هذه الباخرة الّتي ستصل في غضون أسبوع. وفي الأثناء، واصل الأسْوَدُ تناول الكحول.

في السّاعة الثّامنة من صباح أحد الأيّام، ذهب زينو إلى المدينة. فقد اعتاد المجيء إلى هناك كلّ صباح، ليتفرّج على البضائع المعروضة. إنّها المرّة الأولى الّتي يعيش فيها حياتَه دون أدنى شعور بالقلق، كالأثرياء تمامًا. لكنّه لمْ يرجِعْ اليوم إلى الفندق لِيتناولَ فطور الصّباح كالمعتاد على السّاعة التّاسعة والنّصف، رفقة الأسْوَدِ الّذي كان في انتظاره. لقد تأخّر، إنّها العاشرة ولمْ يعُدْ بعدُ، ولمْ يأتِ للغداء أيضًا.

أدرك ماكس أنّ الفَلاشي قُبِضَ عليه، فغادر غرفته بالفندق دون أن يحمل حقائبه، وأخذ يتجوّل في المدينة. لقد قرّر أن يُغيّر الفندق أو المنطقة بأكملها. كان يرتدي بنطالًا أصفرَ داكنًا وقميصًا بلون السكّر، كما علّق في رقبته جرابًا جديدًا يحوي قنّينة روم. وأخذ يتجوّل بخطًى شبيهة بخُطَى النّمور والضّباع، خطًى مترنّحة ورشيقة.

- «لقد ألقوا القبض على زينو»، قال ماكس أومبيلينت في نفسه. «وسوفَ يَدُلُّهم على النّزل. لذلك لن أعود إلى هناك مُطلقًا، ولن تعثر عليّ الشّرطة».

كان الجوّ حارًّا، حين تحلّق أمام الرّجل الأسْوَدِ جمعٌ من النّاس حول إعلان أُلصِقَ للتوِّ. ولمح ماكس اسمه وصورته على الإعلان، وهو إعلان من الحجم الكبير برتقاليّ اللّون، كُتِبَ عليه: «100 قطعة ذهبيّة مكافأة لِمَنْ يَدُلُّ على مكان الأسْوَدِ ماكس أومبيلينت، أحد قتلة المبشّرين في إيسيبوليا». لمْ ينتبهْ المارّة للرّجلِ الأسْوَدِ، لأنّهم كانوا منهمكيْن في النّظر إلى الصّورة وخاصّة إلى الرّقم: «100 قطعة ذهبيّة».

ابتعد ماكس أومبيلينت، فكان يلتقي بعد كلّ مائة متر يخطُوها مجموعة أشخاص آخرين بصدد قراءة ملصقات أخرى.

- «حبيبي»، قال أحدهم.

وأمسكتْ يدٌ بذراع ماكس الّذي استدار ليُفاجأ بامرأة في غاية الجمال، شفتاها حمراوان ومكتنزتان، ووجهها بيضويّ وترتدي فستانًا أحمر قانيًا، فستانًا مشقوقًا من الجانب يُبرز مفاتنها.

دخل الرّجل الأسْوَدُ إلى حانة، فتبعته المرأة الّتي لمْ يعدْ هناك شكّ في مهنتها.

جلس هو على مقعدٍ، فيما جلست المرأة إلى جانبه، على مقعد آخر. إنّ جسدها شبيه تمامًا بالأنهار المرسومة على الخرائط، خُلِقَ من تعرُّجات وانحناءات وتموُّجات.

حين غادر ماكس الحانة، كان الجنود الّذين يتفحّصون هويّات السّود يسدُّون الشّارع، فاتّخذ وجهة أخرى، بينما المرأة ذات الفستان الأحمر والأسنان اللّوزيّة الشّكل والجسد الشّبيه بالأنهار المرسومة على الخرائط، ما تزال تتبعه.

- «حبيبي»، قالت المرأة. «ثقْ بي، يا حبيبي».

- «دَعِينِي وشأني»، قال أومبيلينت.

إنّ الخوف يَخُصُّ الأحياء وحدهم، وماكس لم يشعر به حينَ أراد أنْ يتجاوز صفّ الجنود. لقدْ ماتَ بعض الخوف عندما شوّهه شقيقًا بلانش كنور، ومات بعضه الآخر يوم تعرّض لمحاكمة ظالمة، فيما تلاشت ذرَّات أُخرى من الخوف في موسكو يومَ استُأجِرَ لقتل الإنجيليّين.

لقد أصبح ماكس أومبيلينت متمرّدًا على الخوف. ومع ذلك، فقد أحسّ بالرّعب عندما لمح صورته على الجدار. لكنّها كانت المرّة الأخيرة الّتي شَعُرَ فيها بالفزع، وقد انعدم الآن هذا الإحساس إلى الأبد. فعندما قرأ أنّ حياته تُساوي مائة قطعة ذهبيَّة، اختفت آخر رعشة خوف من جسده، والآن أصبح شبيهًا بتمثال أسود.

تذكّر ما قاله ستانيسلاس كريتزا:

- «إنّ تاريخ السّود هو سجلّ تجاريّ كبير، دُوّنَتْ عليه الأسعار المقترحة لشراء رجل أسود».

- «من النّادر أنْ يُشترى رجل أسود بمائة قطعة ذهبيَّة»، قال ماكس في نفسه. «مائة قطعة ذهبيّة لكهلٍ أسود وخصيّ، ثمن جيّد. إنّ الجريمة تزيد من القيمة الذهبيّة لرجل أسود، فأنا أُساوي مائة قطعة ذهبيّة لأنّني قتلتُ أربعة مُبشّرين. ولولا ذلك، لَمَا أنفقَ البِيضُ فلسًا واحدًا من أجلي».

- «توقّفْ، يا حبيبي»، قالت المرأة.

ووضعت يدها على ذراع ماكس.

- «كلّ الطّرقات مقطوعة، يا حبيبي»، أضافت المرأة.

كانت رائحة عطرها قويّة كرائحة الأزهار المداريّة، كما كانت شابّة وجميلة جدًّا.

- «هيّا بنا إلى منزلي، يا حبيبي»، قالت المرأة. «أنا أُدعى لولا. بإمكانك النّزول إلى الشّارع عندما يرحل الجنود، أمّا الآن فأنت في خطر».

دفع الجنود مجموعة من السّود بضربات من الحرابات، وألْقُوا بهم في شاحنة الشّرطة.

- «تعالَ، يا حبيبي ماكس»، قالت لولا.

- «لقد عرفتني إذن؟»، نسألها الأسود. «أنت تعرفين أنّني أُدعى ماكس، وتُريدين الحصول على المائة قطعة ذهبيّة».

ضحكت المرأة، كانت شفتاها كحبّتيْ كرز طازجتيْن، وأسنانها بيضاء كلبّ حبّات اللّوز وعيناها تتوهّجان نورا.

تحت الفستان الأحمر، كان جسد لولا مرتجفًا مثل ورق الحور، تُشبه كلّ عضلة ورقة حور. إنّها لا تهدأُ أبدًا مثل تموّجات نهر..

- «ليس من أجل المال، يا عزيزي ماكس»، قالت المرأة.

في تلك اللّحظة، اقترب الجنود. فأضافت لولا قائلة:

- «من الحماقة أنْ تتركهم يقبضون عليك»، واصلت المرأة حديثها. «فقدْ تمّ القبض على جميع السّود. هيّا اصعدْ».

تبِعها الرّجل الأسْوَدُ، وصعد إلى الطّابق الأوّل لمنزل مؤثّث.

- «والآن، اتّصلي بالشّرطة»، قال ماكس أومبيلينت.

ثمّ ارتمى على أريكة، وطفق يعبّ الرّوم من ذات القنّينة المحفوظة في الجراب الجلديّ. لم تكن توجد في الغرفة كراسٍ، هناك فقط سرير والكثير من المرايا أيضًا، وسجّاد وبُسُط مخمليّة.

فتحت لولا أزرار فستانها الأحمر الّذي لمْ تكنْ ترتدي تحته لا قميصا نسائيّا ولا صدريّة، لمْ تكنْ ترتدي شيئًا.

- «ماكس حبيبي، لمْ أطلب منك الصّعود لأسلّمَك للشّرطة»،

قالت. «لقد دعوتُكَ من أجلي أنا وليس من أجل الشّرطة».

- «هل تعرّفتِ عليَّ في الملصقات؟». سألها ماكس. «أنت مقرفة! هذا عار! تشتهين المتعة مع قاتل؟ تُريدينَ عشيقًا قتل أربعة إنجيليّين؟ أليس كذلك؟».

- «أقسمُ لكَ أنّ هذا غير صحيح»، أجابت لولا. «عندما رأيتُكَ، لمْ أكنْ أعرفُكَ، فقدْ عرفتُ منْ تكون على المعلّقة منذ عشر دقائق فقط. وعندما اشتهيتُكَ في البداية، لمْ أكنْ أعرفُ منْ أنتَ. أُقسمُ لكَ أنّني لمْ أكنْ أعرفُ. أنتَ الرّجل الّذي انتظرتُه، وهذا كلّ ما في الأمر».

اقتربت لولا من ماكس أومبيلينت، فصدَّها.

ارتدت لولا فستانَ سهرة أزرق اللّون، شفّافًا مثل دخان سيجارة.

- «هلْ أنتِ خلاسيّة[1]»، سألها ماكس أومبيلينت وهو يُحدّق في شفتيْها الحمراويْن.

تحت الغلالة الشّبيهة بدخان السّجائر، ظهرتْ انعكاسات قاتِمة على جسد لولا.

قالتْ:

- «أنا سوداء لأجل الرّجل الّذي أُحبّ ويُريدُني سوداء، وبيضاء لمنْ يُريدُني بيضاء. إنّني، في الحقيقة، سوداء وبيضاء في الآن نفسه. لست مخادعة، بل أكون على هوى من يشتهيني، وباللّون

(1) خلاسيّ: ابن لأبوين، أحدهما أبيض والآخر أسود. (المترجمة).

الّذي يشتهيه الرّجل الّذي يُحبُّني. فوحدهن النّساء الباردات والطّاعنات في السنّ، لهنّ لون واحد. أمّا بالنّسبة إليك، فسأغيّر لوني في كلّ مرّة. أنا أُحبُّكَ، ومتأكّدة من ذلك. لقد عرفتُكَ على الفور، وأعرفُ أنّ هذا الأمر لن يدوم دهرا. فقدْ أُحبّك يومًا واحدًا أو ربّما ليلة واحدة فقط، ولكنّ هذا كافٍ. إنّ الاحتدام لا يحتاج إلى ديمومة».

- «أنا أسْوَد»، قال ماكس.

- «لون البشرة مسألة ثانويّة»، قالت لولا.

نهض ماكس أومبيلينت، وعبّ جرعة من الرّوم.

- «هل تُريد شمبانيا، يا حبيبي»، سألته لولا.

- «كلّا»، أجاب الرّجل الأسْوَدُ. «أُريد الرّحيل».

- «لنْ ترحلَ»، قالت المرأة. «لقد انتظرتُكَ منذ الأزل، لأنّك الرّجل الّذي وُلِدْتُ من أجله. أنت الهدف الوحيد لوُجودي، وكلّ الرّجال الّذين عرفتُهُمْ وأحببتهم كانوا يُشْبِهُونَكَ. وقدْ أحببتهم فقط لأنّهم يُشبهونَكَ، لكنّهم لمْ يكونوا أنتَ».

- «لا بُدّ أنْ أذهبَ»، قال ماكس.

أدرك الرّجل الأسْوَدُ أنّ لولا لمْ تستدرجْهُ إلى بيتها كيْ تُبلّغ عنه، ولا لأنّه مجرم، بل لأنّه ماكس أومبيلينت الّذي يُشبه رجل أحلامها.

- «لا أُريد أنْ أكون سببًا في معاناتك»، قال ماكس. «ولكن عليَّ أن أذهب».

- «لا»، قالت لولا.

وجلستْ عند قدميْ الرّجل الأسْوَدِ على السجّاد الأزرق، وقبّلتْ ركبتيْه ونعليْه.

- «لوْ كُنتَ تُحبّني حقًّا، لعرفتَ أنّ الحبّ الكبير يكون من طرفٍ واحدٍ، ربّما لأنّه كبير جدًّا. إنّها القاعدة». «لا تذهبْ»، توسّلت لولا. «لا بُدّ لكَ أنْ تُبادلني هذا الحبّ. أُريدكَ أنْ تبقى. هذا كلّ ما في الأمر».

- «هذا مستحيل»، قال ماكس أومبيلينت.

كان جسد لولا يرتجف كأجساد الغزلان الّتي أفزعها صوت الرّيح بين أوراق الأشجار.

- «أنا لا أطلبُ منكَ شيئًا، بل دعوتكَ لأَهبكَ كلّ شيء. أنا لا أطلب شيئًا، فَابْقَ معي».

- «هذا مستحيل»، قال ماكس أومبيلينت. «هذا هراء. ماذا سأفعل لو بقيتُ هُنا؟».

- «الحبّ.. الحبّ.. الحبّ..»، ردَّدت لولا.

- «مستحيل»، قال ماكس أومبيلينت. «فأنا رجل خصيّ».

سقط جسم لولا على السجّاد الأزرق، عند قدميْ ماكس أومبيلينت كما تسقط العصافير الّتي أصابتْها طلقة قاتلة عند قدميْ الصيّادين..

- «كلّا!»، قالت لولا. «هذا غير صحيح!».

وأجهشت بالبكاء. كان حبّها لماكس أومبيلينت صادقًا صاعقًا، فهي لم تستدْعِ الرّجل الأسْوَدَ لأنّها فتاة عزباء. فقدْ كانت ستَدْعُوهُ

حتّى لوْ كانت تملكُ بيتًا وأطفالًا، كانت ستهجر كلّ شيء من أجله. هكذا هنّ النّساء الحقيقيّات، النّساء اللّواتي ليس لهنّ لون واحد.

كانت لولا تبكي عند قدميْ ماكس أومبيلينت. إنّها تُصدّقُ كلّ ما قاله لها، لأنّ ما منْ امرأة عاشقة إلّا وتُصدّقُ كلّ ما يقوله لها الرّجل الّذي تُحبّه. إنّها لا تنشدُ أدلّة أبدًا.

- «هل الأطبّاء هُمْ من فعلوا بك ذلك؟»، سألت لولا.

- «كلَّا»، أجابها ماكس.

- «من فعل بكَ ذلكَ، يا حبيبي المسكين؟ من؟».

- «البيض»، ردّ ماكس أومبيلينت.

أخذت لولا تنتحب على البساط الأزرق.

- «لماذا؟ لِمَ فعلوا بك ذلك، يا حبيبي؟».

- «لأنّني أسْوَدُ»، قال ماكس. «لأنّني رجلٌ أَسْوَدُ».

نهض ماكس أومبيلينت. وحين همّ بالرّحيل، تمسّكت لولا بساقيْه والْتَوَتْ حول ربلة ساقه كنبتة متسلّقة فيما غطّى شعرها المسدول نعليْ الرّجل الأسْوَدِ.

- «كان يُمكن للبيض أنْ يفعلُوا هذا بكلّ الرّجال السّود في الكون، وليس بك أنت، يا حبيبي. كان عليهم أنْ يُجنّبُوكَ كلّ هذا. لِمَ أنتَ بالذّات؟ أيُّ خطأ ارتكبْتَهُ حتّى يتصرّفوا معكَ على هذا النّحو؟ فيمَ أذنبتَ؟».

- «هذا ما يفعله البِيضُ مع السّود في أغلب الأحيان»، قال ماكس. «أَلَا تقرئين الصّحف؟ لقد ارتكب الجنود في كينيا هذا

الصّنيع في حقّ المساجين السّود جميعهم».

- «ولكنْ لِمَ أنتَ تحديدًا؟».

أبعد ماكس أومبيلينت جسد لولا المتمّوج عنه، وخرج إلى الشّارع. تاركا إيّاها وحيدةً باكيةً دون أن يلتفت وراءه. في الشارع اختفى الجنود. لقد انتهت الحملة. ولكنّ بائعي الصُّحف ظهروا من كل مكان وهم يصيحون:

- «القبض على زينو الفَلاشي، قاتل المبشّرين في تروبيك! القبض على زينو الفَلاشي، الرّجل الّذي قتل أربعة قدّيسين! القبض على زينو الفَلاشي...».

(32)

جزئيّة لإتمام هويّة الرّجل الأسْوَدِ

نهض العقيد جوليهارت، وغادر مكتبه متّجهًا إلى الحمّام. نظر إلى صورته في المرآة الّتي تعلو الحوض المرمريّ. لقد احتفظ بعادة النّهوض مرّات عديدة في اليوم، من أجل النظر في مرآة الحمام منذ فترة الحَجْرِ الصحّي. إنّه ينظر في المرآة ليتأكّد من كونه لا يحمل بقع الجُذام، ليرى ما إذا لمْ يتعفّنْ جلده فوق عظامه. إنّ الجذام مرض يظهر فجأة، فقدْ تجده مزروعًا على جلدكَ في وقت غير منتظر، وهو أخبث مرض، لا تكتشف إصابتك به إلّا إذا تجذّر عميقًا في الجلد ويظهر على البشرة. ليس للأطبّاء ما يقولونه، لكنّ العقيد لم يكن مرتاحا، ولنْ يتيقّن من إصابته بالجذام إلّا لحظة يظهر المرض على جلده، رغم أنّ خدمه، يُعانون ثلاثتهم من هذا الوباء. عاد إلى مكتبه وراح يتأمّل صور زوجته وبنتيْه اللّتيْن عادتا إلى المدرسة. لقد هدأ الوضع وعادت الأمور إلى نصابها.

دخل أحد الجنود المكلّفين إلى مكتب العقيد جوليهارت، وقال:

- «هناك رجل أسود يرغب في الحديث إليْك شخصيًّا»، قال الجنديّ.

- «رجل أسود؟»، سأل العقيد. «رجل أسود يريد التحدّث إليّ

شخصيًّا؟».

كانت دهشة القائد العسكريّ طبيعيّة، فالسّود لا يدخلون مكتب العقيد جوليهارت أبدًا.

- «إنّه سائح أسْوَد»، قال الجنديّ. «وهو رجل أنيق جدًّا، يحمل آلة تصوير. إنّه سيّدٌ أسود».

- «فلْيَدْخُلْ».

بقي العقيد بمفرده، ودخل المكتب عملاقٌ أسود، قامته ضعف قامة جوليهارت. كان يرتدي قميصًا من الحرير اليابانيّ وبنطالا من القطن النّاعم، ولا يضع ربطة عنق. كانت رقبة الرجل العملاق بارزة من ياقة القميص البيضاء كأنّها عمود من الغرانيت الأسود، فيما تدلّى جراب جلديّ من عنقه. كان الأسود ثملًا. دخل المكتب وهو يترنّح، لكنّه لا يترنّح كأيّ ثمل آخر: إنّه يترنّح كسنّور يسقط دائمًا على قدميه، كلّما فقد توازنه.

اقترب الرّجل الأسْوَدُ من مكتب العقيد المصنوع من خشب الأكاجو برشاقة قطٍّ، ينزلق عبر باب موارب.

- «أُدعى ماكس أومبيلينت»، قال الرّجل الأسود.

كان منتصب القامة، بلا حراك، عظيم البنية. ومنذ اللّحظة الّتي استند فيها إلى المكتب، ازداد جسد الأسْوَدِ ماكس أومبيلينت استقامة، وتضخّم صدر العملاق وكتفاه ورقبته في لمح البصر. لقد عظُمَ جسمه وهامته وقامته، أكثر فأكثر.

كانت جُمَلُ الأسْوَدِ مختصرة وجافّة، كما لوْ كان يمضغ قطعة

حديد بين أسنانه.

- «كيف يمكنني أنْ أساعدكَ؟»، سأله العقيد الّذي لمْ يفهم اسمه.

- «أنا ماكس أومبيلينت»، قال الرّجل الأسود. «أنا قاتل المبشّرين الأربعة».

احتقنتْ عينَا الرّجل الأسود بالدّم، وكفّ جسده عن الحركة، فيما ارتفعتْ ذراعاه الطّويلتان السّوداوان كذراعيْ غوريلّا امتدّتا لخنق ضحيّتها. إنّهما يدَا قاتلٍ.

نظر العقيد إلى الجرس في قلق، وهو يُراقب هاتيْن اليديْن السّوداويْن العظيمتيْن اللّتيْن تمتدّان، استعدادًا للقبض على عنقه.

ذراعا الرّجل الأسْوَدِ تمتدّان الآن أفقيًّا.

- «ماذا تنتظر؟»، قال ماكس أومبيلينت. «فليأتوا بالأصفاد؟ أقول لك إنّني ماكس أومبيلينت، الأسود الّذي قتل المبشّرين».

ضغط العقيد على زرّ الجرس. فدخل جنديّ، وتجمّد في مكانه: الأسْوَدُ هنا بذراعيْه الممدودتيْن في اتّجاه رقبة العقيد. كانت يداه ممدودتيْن نحو حنجرة العقيد، على مستوى جوزة حلقه الّتي تتحرّك بعصبيّة مثل ساعة غير منتظمة على طول رقبة القائد العسكريّ لترويبيك.

- «نادِ على حارسيْن، وهات الأصفاد»، أمر العقيد.

غاب الجنديّ، ثمّ ما لبثَ أنْ عاد يتبعه جنديّان خُلاسيّان اقتربا من ماكس أومبيلينت، وهُمَا ممسكان بالأصفاد. لكنّ الأصفاد كانت

صغيرة جدًّا، لا تستطيع حلقاتها أن تطوِّق معصميْ الرّجل الأسود.

- «اُخرجوا، وانتظروا أمام الباب».

بقي أومبيلينت بمفرده مع العقيد. أسقط ذراعيْه على طول جسده، فليس خطأه إن كانت أصفاد الجيش ضيّقة جدا. إنّها على مقاس سود تروبيك، لكنّ ماكس يعرف أنّه سيقع جلب أصفاد تناسب مقاسه خلال أيّام.

- «استجواب لمعرفة هويّتكَ»، قال العقيد. «قلتَ إنّ اسمك ماكس أومبيلينت».

- «نعم!».

- «أنت قاتل المبشّرين الأربعة في تروبيك؟».

- «لستُ القاتل»، صحّح ماكس أومبيلينت. «أنا منّفذ اغتيال المبشّرين الأربعة».

- «لا فرق»، قال العقيد.

- «لا أبدًا»، قال ماكس أومبيلينت. «أنا منفّذ عمليّة الاغتيال، وهذا عمل رجل أسود».

- «هل نفّذت الجريمة الرّباعيّة بنفسك؟»، سأله العقيد وقد اضطرب شعوره كرجل أبيض.

- «كلَّا»، أجاب ماكس. «قام بتنفيذ العمليّة سُود آخرون أنا من استأجرهم. ولكنّهم نفّذوا عمليّة القتل باتّباع أوامري. أنا من أشرف على الاغتيال في مكان الجريمة، حتّى يُنفَّذَ كلّ شيء على أحسن وجه».

- «استأجرتَ قتلة آخرين إذن، قتلة مأجورين؟ دائما من السّود؟».

- «بالضّبط»، قال ماكس أومبيلينت.

- «كم استأجرتَ من قاتل؟».

- «عشرة»، أجاب ماكس أومبيلينت. «وكلّهم من السّود».

- «كيف قُتل المبشّرون؟».

- «خنقًا»، أجاب ماكس أومبيلينت.

كان ماكس أومبيلينت غير مبالٍ، ويُجيب بعبارات مختصرة ودقيقة.

- «أمرتُ القتلة بخنقهم، وهُمْ نيام. أمرتهم بأن يتصرّفوا كما لو كان الضّحايا تماسيح. ثمّ أمرتهم بأنْ يُلقوا بالجثث للنّمل الأحمر».

- «هذا فظيع!»، صرخ العقيد. «وهل كنتَ حاضرا؟ ألَمْ تشعُرْ بالتّقزّز؟... لا علينا. أنت أكثر الوحوش فظاعة!».

سكت العقيد لحظة. لقد تعرّض شعوره كرجل أبيض ومتحضّر لامتحان صعب.

- «ما أسماء القتلة العشرة؟».

- «لمْ أسألهم عن أسمائهم»، أجاب ماكس أومبيلينت.

- «كم كان أجر هؤلاء الحيوانات المتوحّشة؟».

- «الأجر الموعود لمْ يكنْ نقدًا. لقد وعدتهم بتحويلهم إلى بِيضٍ مكافأة لهم على قتل المبشّرين الأربعة».

- «وصدّقوك؟»، سأل العقيد.

- «لقد صدّقوا ذلك طبعا»، قال ماكس أومبيلينت.

- «هذا مشين!»، صاح العقيد جوليهارت. «مازال يُوجد في القرن العشرين، وعلى هذه الأرض، أناس يقتلون بدم بارد أربعة مبشّرين، أربعة قدّيسين، ويطلبون أجرًا على ذلك تحويلهم إلى بِيضٍ. هذا لا يُصدّقُ! حتّى قبل عشرة آلاف سنة، لمْ يكنْ عمل وحشيٌّ كهذا ممكنًا. أنتم أفظع من الوحوش. وكانت لك الشّجاعة المشؤومة كي تَعِدَهُمْ بتحويلهم إلى بيض؟».

- «لمَ لا؟»، أجاب ماكس أومبيلينت.

- «كنت تَعِدُهُمْ بشيء مستحيل، لأنّك لم تكن قادرا على تحويلهم إلى بيض».

- «لا يعنيهم أن تكون بشرتهم بيضاء»، قال ماكس. «لا يريد السّود التحوّل إلى بيض من أجل اللّون الأبيض، فنحن نُفضّل لون البشرة السّوداء لأنّ البشرة البيضاء تفوح منها رائحة العفن، خاصّة على مستوى القدميْن والإبطيْن. ولكن مع ذلك سيحتمل السّود أنْ تكون لهم بشرة بيضاء ليحصلُوا، في الوقت نفسه، على نصيبٍ طبيعيٍّ من الاحترام. ولهذا السّبب وافقوا على تنفيذ جريمة القتل. فأنْ تكون لك بشرة بيضاء، هو أنْ تحظى بالحدّ الأدنى من التّقدير. أمّا في ما يتعلّق باللّون فهذا الأمر لا يعنينا، لأنّنا نُفضّل اللّون الأسود».

- «هل أنت من خطَّط لجريمة القتل؟».

- «إنّ الأبيض هو من يضع الخطط دائمًا»، قال ماكس أومبيلينت. «أمّا الأسود فينفّذ. وأنا أسود. لذلك، لم أكن قادرا على ابتكار مخطّط. لقد تمّ استئجاري كمجرّد قاتل أسود».

- «لقد تمّ تسديد أجرتك دون شكّ».

- «أجل». أجاب ماكس أومبيلينت.

- «كم؟».

- «وُعدت بالحدّ الحيويّ الأدنى من المساواة مع باقي سكّان الأرض. فقط. نفس الأجر الّذي وَعدت به القتلة الآخرين، وهو المساواة الضروريّة بحصر المعنى، المساواة الّتي لن نتمكّن من البقاء على قيد الحياة من دونها».

- «هل تسلَّمت أجرتك؟».

- «لم أتسلّمها بعد»، أجاب ماكس أومبيلينت. «لكن لا شيء يدلّ على أنّه تمّ خداعي. لم أكن قادرا على انتظار تسلّم الأجرة. فقط».

- «لم تتمكّن من الانتظار لِتَسَلُّمِ أجرتك، وجئت تسلّم نفسك؟»، سأله العقيد.

- «تماما»، أجاب الرّجل الأسود.

- «شعرت بالنّدم فسلَّمت نفسك؟ لِتُطالب بعقابك بنفسك؟ أليس كذلك؟».

- «الأمر ليس كذلك»، ردَّ ماكس أومبيلينت.

- «ألست نادما على ما فعلته؟»، سأله العقيد. «ألم تسلّم نفسك لتكفّر عن خطيئتك؟».

- «لقد تطهّرتُ من ذنبي قبل أن أرتكب الجرائم الأربع»، قال ماكس أومبيلينت. «لقد نلتُ عقابي... لقد تمّ خَصْيِي، وتعرضّتُ لمحاكمة ظالمة. واستُؤْجِرتُ من طرف البيض في موسكو كقاتل. لقد كفّرت عن ذنبي مسبقًا، كما كفّرت عائلتي عن ذنوبها، وأسلافي أيضا، جنسي بأكمله. لمْ أعدْ في حاجة إلى أنْ أتعرّض للعقاب. إنّ ضميري مرتاح وليست لي أيّ مشكلة مع العدالة».

- «لا يُوجد عقاب يسبق الجريمة»، قال العقيد.

- «أنا أسود»، قال ماكس. «والأمر يختلف بالنّسبة إلى السّود. لقد نلنا العقاب منذ قرون، دون أنْ نرتكب جرمًا. وأنا لست استثناء».

- «لماذا جئت تسلّم نفسك بما أنّك تؤكّد أنّ ضميرك لا يؤنّبك على شيء؟».

- «دعْنِي وشأني، أنت وقصص الضّمير هذه!»، صاح ماكس. «لقد أتيتُ إلى هنا حتّى يتمّ إعدامي. إنّه الشّيء الوحيد الّذي لم تفعلوه لي حتّى الآن. وحتّى يكون العمل متقنًا، يتحتّم عليك تنفيذ هذا الأمر. فالبيض المتحضّرون يُحبّون هذا، يحبون العمل المُتقن».

كشف ماكس أومبيلينت عن أسنانه الّتي كانت في غاية الرّوعة،

أسنان لاحم. وكانت قامته تزداد طولًا فيما استأثر جسده الأسْود بكامل الحجرة.

- «إلى العمل أيّها العقيد!»، قال ماكس أومبيلينت. «ما تبقّى لك لتفعله بي بسيط، وقانونيّ هذه المرّة!».

باريس 1958.

مكتبة بغداد

مكتبة
الفكر الجديد
08-04-2017

شحّاذو المعجزات

قسطنطين جيورجيو

حين تنتهي من هذه الرواية لن تفكّر في شيء غير تحسّس كلّ الأماكن الموجعة فيك، تحسّس ما كان مخدّرا واستيقظ فجأة ليذكّرك بما سُلب منك باسم التقدّم والرقيّ والحداثة.. إنّها رواية تشييع الإنسان إلى مثواه الأخير بعد أن تغلّقت في وجهه كل أبواب الخلاص وصار نهبا لرياح الإيديولوجيا والتصنيفات القاتلة. رواية لا تقلّ خطورةً عن «الساعة الخامسة والعشرون» العمل الأشهر لقسطنطين جيورجيو، تضعنا وجهًا لوجه أمام الفكر الشرس الطاعن في القسوة والمغالي في اضطهاد الفرد. ما الّذي يدفع السُّود في هذه الرواية إلى تسوّل المعجزات؟

«السود عاجزون عن الإيمان بأيّ شيء. ولكنهم بشر ويجب أن يؤمنوا بشيء ما. ومن بين الأشياء المرئيّة كلّها لا وجود لما يستحقّ ثقتهم. لذلك ينتظرون المعجزات. هم لا يؤمنون بالمعجزات لأنهم سذَّج أو أغبياء. بل لأنهم يائسون. ولا رجاء لهم في غيرها».

رواية ترسم لنا رحلة العودة إلى الإنسان الذي تركناه وحيدا ضائعا، حاملا تابوته في بداية الطريق.

شوقي العنيزي

ISBN: 978-9983-833-93-5

9 789983 833935